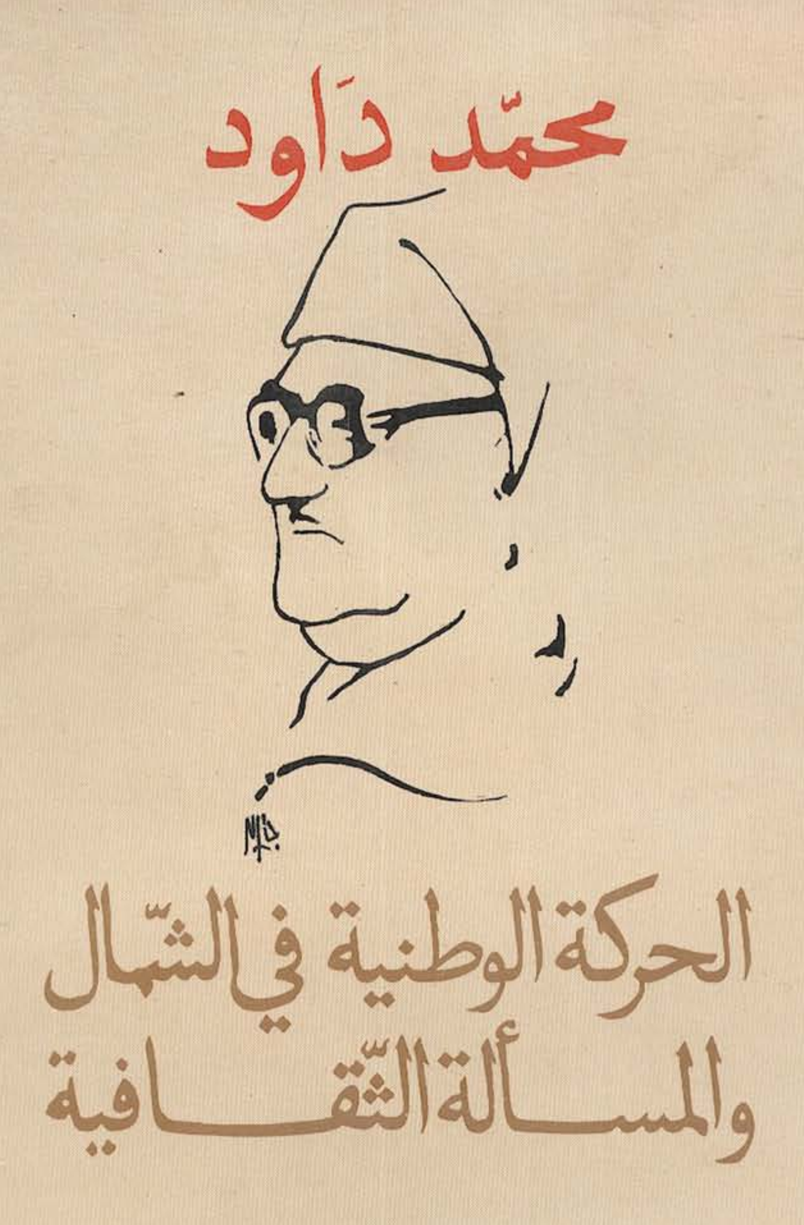
محمّد داود



الحركة الوطنية في الشّمال والمسألة الثّقافية

اتحاد كتاب المغرب

محمـــد داود

الحركـة الوطنيـة فـي الشمـال والمسألـة الثقافيـة

اتحـاد كتـاب المغـرب المجلـس البلـدي لمدينـة تطوان

تـطـــوان 24 ــ 25 ــ 26 نوفمبـر 1989

منشورات اتحاد كتاب المغرب
سلسلة ندوات، 1990/2
رقم الإيداع القانوني : 1990/1004

الطبعة الأولى. الرباط 1990

مطبعة المعارف الجديدة
زنقة الرخاء ــ الحي الصناعي
الهاتف : 7947 08/09/15
الرباط

الغلاف من إنجاز الفنان جاريد

محمــد داود وأولويــة النضــال الثقافــي

محمــد الأشعــري

يشتمل هذا الكتاب على أعمال الندوة التي نظمها اتحاد كتاب المغرب بتعاون مع المجلس البلدي لمدينة تطوان في أواخر شهر نونبر سنة 1989 في موضوع : محمد داود : الحركة الوطنية في الشمال والمسألة الثقافية.

ولم يكن لقاؤنا تحت ظلال هذه الذاكرة التي استلهمت مرحلتها، وامتدت بعنفوانها إلى مناطق الظل وإلى خصوبة الآني المرتبط بتحديات الواقع وتحولاته، مندرجا في إطار الاحتفاءات العابرة، بل كان ينتمي لتلك الارادة الثقافية التي راهنا عليها في اتحاد كتاب المغرب مجسدة في العمل المشترك لتحويل تاريخنا ورموزنا إلى ذاكرة مستعادة تغذي نبضنا اليومي، وتعيد الحياة لتجربتنا المشتركة عبر استنطاق دلالاتها وتداول أسئلتها الحية.

لقد التقينا في هذا الاطار نفسه من خلال تجربتين أساسيتين :
تجربة المختار السوسي وتجربة التهامي الوزاني، ولا شك أن أعمال هذه الندوة اذ تستعيد وجها متوهجاً من وجوه حركتنا الوطنية والثقافية هو وجه الأستاذ محمد داود فإنها تستعيد ذاكرة أساسية نستطيع ونحن نستقرئ مكنوناتها أن نقترب بشكل أدق وأعمق من خصوصية المرحلة التي أثرت في مسارنا الوطني بشكل عميق وأفرزت أسئلة ما تزال تشغل حيزا أساسيا من حياتنا السياسية والثقافية.

إن ثراء شخصية الأستاذ محمد داود يُبيح لنا أن ننخرط في هذا الافق الرحب، ذلك أنها ارتبطت بتحديد دلالات العمل الوطني أثناء مقاومة السيطرة الاستعمارية، ثم في أفق تشييد الدولة الوطنية. ونستطيع اليوم ونحن نعيد انتاج أسئلة متعلقة بهويتنا الثقافية، وبمضمون المدرسة الوطنية، وبحيوية المجتمع المدني المتحرر من اكراه السلطة والمتمسك بتعبيراته الثقافية والاجتماعية، نستطيع أن نلمس إلى أي حد استطاعت أعمال أساسية في حقول التعليم والصحافة والنشر ان تبلور على عهد كفاح الأستاذ محمد داود ورفاقه نظرة وطنية شمولية تستجمع قدرات الماضي وامكانات المستقبل، وتخلق لبنة لبنة ملامح الوطن المقبل من خلال الصراع اليومي ضد الأجنبي وضد أغلال الماضي والحاضر.

وإن أهم درس نستخلصه من هذه التجربة الفذة قد لا يكون بالضرورة ذلك الدرس السياسي الذي تلقنه حركات التحرر بصفة عامة، وإنما ذلك الذي يتعلق بالنضال الثقافي وأولويته في كل عملية تحول تراهن على التغيير والتجاوز وتطمح إلى خلق مجتمعات جديدة متحررة.

إن الافلات من سلطة النموذج المهيمن وبناء مجتمع لا يفقد ذاكرته ولا يقفز على حقائقه التاريخية والانسانية هو جوهر أي نضال وطني حقيقي. ومن هذا المنطلق فإن نضال حركتنا الوطنية لا بد

أن يخضع في مجمله لهذا السؤال الثقافي خصوصا ونحن ما نزال وبعد مضي أكثر من ثلاثين سنة على حصولنا على الاستقلال السياسي سجناء أوضاع تعليمية وثقافية لم تستطع فتح الافق المحلوم به منذ معارك التحرير الوطني.

لقد اخترنا، في اتحاد كتاب المغرب أن لا نسجن مثل هذه اللقاءات في مراسم تكريمية سطحية اقتناعا منا أن ابرز تكريم لشخصياتنا الوطنية الفذة هو محاورتها بجرأة وبانفتاح مستجيب لما حقق من تراكم على مستوى عملها المباشر وعلى مستوى اسهامها المعرفي. ولا نشك في أن جزءا مهما مما نشدناه قد تحقق فعلا على أيدي الباحثين الذين استجابوا مشكورين لدعوتنا وهو ما مكننا من وضع هذه الدراسات المتميزة بين أيدي القارئ الكريم.

وأملنا أن يساهم هذا الحوار في تكريس تقليد ثقافي نؤمن بإيجابيته وضرورته.

مـــا أكثـــر وأغـــزر تطـــوان
بـــداود الكثيـــر الغزيـــر

محمـــد الصبـــاغ

احترفَ تطوان ـــ أمُّنا الحَرَمَ الحُرمَة ـــ حتى الولهَ الدَّاهي، فعاش العاشقُ علَى صهوةِ الهَرْوَلَة، يركض في دروبها وأزقتها، وشقوقها، وأحواشها : يشرِّح، يبحث، ينقب، يحفر، يسأل عن أنفاسها، وخلجاتها، وومضاتها، وكيف تنام، وتحلم، وتعشق، وتناجى، وتزيِّن، وتمشط وتحزن، وتمرض، وتأكل، وتثور، وتفتقر، وتتزوج، وتتناسل، و..فَيَزَمِّمُ مادَقَّ من أمرها، وانفتح، وَرَقَّ، وطاب، وعمَّر، وشَقي، وسَعِد، ومات، وولد، ومضى، و..

فيفصد عروقَ أعماقها المزمنة، ويفرك سنبلَ أسرارها، وألغازها العتيقة، فتطوان، تسيل على تطوان، فيضَ، تاريخ تطوان.

يكتبون كثرةَ جمعِه مفراً داوداً واحداً، كأنهم بالحرف المِسماري الحافي يكتبون، ولا يكتبون مزامِيرَه، وجموعه السالمة.

يقرأون فسيحَه الشاسعَ، قراءة ضيقة، ويغفلون عن سهوله، ومِمْراحه، وَمِمْراعه.

يسمُّونه : دالا وواواً، سياقَ حروف قاتمة مُهيأةٍ لبطاقة، أو دعوةٍ، أو تذكرةٍ.

أرفضُ أن أسميه حروفا، وتقارير، وأتلمَّسَه بالمباشرة.

قبْل إسمِه جموعٌ ومشتقات في صيغةِ افْعَوْعَل، وبعد إسمه سمرٌ، ومليحةٌ كلاَم.

أريد أن أسميه على طريقتي الخاصة، كما يحلولي ـــ عمْرَ وفاء ـــ أن أسمي فرائد أحبائي، وخرائدَ خلاني، وديباجات شيوخي، وعشيرتي، وَلِدَاتي.

أريد أن أنقشه، أن أنمنمه، أم أفتش عن جوهر معناه، أن ألحن دفقاته، أن أباهي بإسمه، الاسماءَ الخمسةَ، والمنارة، والقلادة، ومنبرَ فاطمة ـــ هذه الفهرية الحِلية الزِّينة تاجُ عرائس فاس.

أريد أن أنقله مِن الحرف إلى البوْح، ومن النُّقطة إلى علامة التعجب، ومن التقرير إلى الغرِّيد الفريد، ويبقى دوماً : توريق موسوعةٍ.

أريد أن أكون فضولياً جريئاً، فأقتحمَ ـــ عنوةً ودون إذن ـــ سرَّ أصابعه، ولُغزَ ناصيته، ومكنونَ باله.

لأسميه على طريقتي الخاصة، علّي أن أصعد، أن أتمكتَب، أن أعَيِّدَ، أن أضَع باقة أندلس على سيِّدي أبي الحسن علي المنظري الغرناطي [1] أن امتشق تطوان، فأتُطْوِنَ سنديانة العفةِ ، وسروةَ الهمةِ، ولبلابةَ الكرامَةِ، وأتغَنّى بعفافِ الغيْداء «لُبْنَى» الشمَّاء، وأؤرخ لأرومةِ المُجَاهَدَةِ الشَّهَامةِ، حرباً على الوضيع، والهجين، والدخيل، والهشيم، والأنين.

مطولاته الألفيات، ومختصراته هي : السيدة الكرامة (البتول).

فمن أنامل هذه الشريفةِ الفاضلةِ، ينهلُ ماءَ الحياة، عَزيزاً كريماً، وإذا شَحَّ، يَسُفُّ ذكراه.

بيمناها، يسلِّم ويهنِّئ، بلسانها يُفصح ويعلِّم، بعينها يبصرُ ويحدق.

سكناهُ، وملبسُه، ومسعاه، غدواً ورواحاً ووقوفا، في الكرامة.

وياويحَ، من فتَّرتْ عيناه وزاغتَا، أو شَطَّ به لسانُه في حضرته ! كثيرةٌ هي مواقفُ كرامتِهِ المتفجرات.

إيزَابيلاَ الكَاثوليكية [2]، كانتْ تخشى بأسه المشتعل الوطني المخضوضر، فتهادنُ قيامتَه، وتراودُ وُدَّهُ، وقرباه، وتداريه، عبثاً، فيتحدَّى دلال ميْسها، وغُنج أعطافها، واحْورَارَ نظراتها، منتفضاً ناهضاً — من جراح الوطن الدم المصلوب — وهو في مَوَجَّانٍ وذهولٍ، فيتوزع على شوامخ المهمات الوطنيات وسوامقِها. فمنعطفات تطوان شعاليلُ دَاوُدِيَّة : تنير، تَهدى، تنظِّم، توطِّن، تُعلِّم، تُهَنْدِمُ، تبنى :

هنا تنبجس مدرسة [3]، هناك تنبعُ مجلةٌ وتدور مطبعة، وتؤسس جمعية، مروراً بلقاءاتٍ أورقةٍ وأرفاتٍ، أصمعياتٍ، مَعَرياتٍ، وأطواقِ حماماتٍ، ومروجِ ذهبيات محاضرةٍ، وندوة، ونشيداً وكتاباً مقروءاً، واكتتاباً وطنياً مفتوحاً، تحقيقِ مكرمةٍ انسانيةٍ، أو بناء صرْحٍ وطني.

لا يترك هوةً، أو سقطةً، أو ضعضةً، تَنبَّه لفداحتها، الا، وأقدم على علاجها، بالرِّفعة، والسمو، والنبل، وشجاعة الفحولةِ.

كل هذه الدَّاوُدِيَّاتِ، يُدوِّي دَالاتها دَمْدَمةً — هجمةً على قلنسوة إزَابيلاَ، ذاتِ الأحمر — الأصفر [4] وعلى مناوراتِ مُدَاراتها، لطرد إقامتها من نخيل الفدَان[4 ب]

---

1. أحدُ قواد بني الأحمر — باني تطوان الحديثة.
2. ملكة أراكون — زوجةُ الملك فِرْنَانْدُو الخامس ملك قشتالة. أكْرها عدداً كبيراً من المسلمين على اعتناق النصرانية، كما طرَدَا عدداً كبيراً من المسلمين أيضاً من اسبانيا.
3. من مؤسساته بتطوان : «المدرسة الأهلية» 1925 «المطبعة المهدية» 1928. جريدة «الأخبار» 1936. (عن «تاريخ تطوان» الجزء الأول — من حياة المؤلف).
4. العلم الاسباني.

4.ب كانت توجد في هذه الساحة الاقامة العامة الاسبانية.

احترف تطوان [5]، منذ أن كانت وَحَماً، فنطفةً، فجنيناً، فتط.. إلى أن استوت مُغنَّاةً [6] في مختلف الأقطار والأصقاع البعيدة.

إنه رحالةٌ طَي أعماقها، لاستجلاء دقيق معانيها ونيراتها. إنه منظم فسيفساء نهضتها.

إنه شهادةُ عدلين على زواجها السَّعيد، بأمين تاريخها العلاَّمة الباهر المجيد.

ففي كل قوس من أقواسها، وفي كل باب من أبواب سُورها، يقف داودٌ، كل داودٍ، بصبغةٍ مختلفة، ودائماً بحلة معرفةٍ، ونضالٍ، ودأب وكبد، وريادة، وبلازمته الكرامة.

معلِّمُ تطوان الستينات الأخيرة، معلِّمُ أساتذتي، وأستاذي، وعزيزي.

وكم له من يُمْنَى وحُسْنَى على هذا القلم الذي يختلج ــ دَاوُدَيْذِ ــ بمحبته، فقد كان يكلأُ صاحبَه ــ بمكتبته الخاصة بمنزله ــ ويرعي قطرات مداده المتعثرة الأولى، زمن حديقةٍ سمحاءَ، فيحاءَ، زهراءَ !

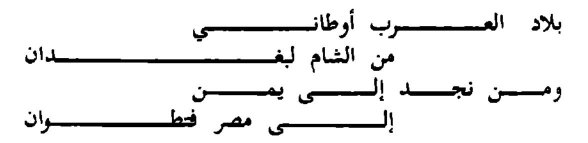
رحل، وبقي في نفسه كثيرٌ من ت.. تط.. وا.. ن، وبقيتْ تطوان، مفجوعة، تبحث عنه.. تبحث..

ومن ثَمَّ، تُرى، ماذا سيَخْتَارون له من الأسماء ؟ وكيف ؟ بعد هذا النَّفح من طيبه.

وأسكُت، ويبْقى حلوُ الكلام عنه، مستمراً، جهيراً، مزدحماً، في العقيرةِ.

---

5. موسوعته، وتقع في 8 مجلدات، ويبلغ عدد صفحاتها أكثر من 4000 تقريبا كما صدر له «مختصر تاريخ تطوان» في مجلد واحد. ومن كتبه المخطوطة :
ـــ «التكملة».
ـــ «عائلات تطوان» في مجلدين.
ـــ «على رأس الاربعين» عبارة عن مذكراته ودراساته، ورحلاته منذ طفولته.
6. اشارة إلى نشيد الشاعر السوري فخري البارودي :


بلاد العــــــرب أوطانــــــــي
من الشام لبغــــــــــــدان
ومــــن نجــــد إلــــى يمــــن
إلــــــى مصر فتطــــــوان

الفقيـه محمـد داود
الحركة الوطنية في الشمال والمسألة الثقافية

حســن الصفــار

قال الأستاذ عبد الخالق الطريس في كلمة ألقاها بمدرسة الفضيلة بتطوان بمناسبة تدشينه لموسم جمعية المغربية الثقافي في ماي 1969 : «أما تاريخ الحركة الوطنية هنا، واما تاريخ ما بذله الوطنيون في هذه الديار (والمقصود هنا هو شمال المغرب)، فذلك وإن ظلمنا فيه بعض الظلم، فالتاريخ كشاف، والحقائق موجودة وكافية لتقيم الدليل على عكس ما يظن الكثير من الناس، وسيأتي وقت قريب لتكتشف فيه كل هذه الحقائق حتى يحس أبناء هذه المنطقة بانتمائهم إلى مجموعة من السلف تستحق احترامهم واكبارهم، والانتساب إليهم».

وإن الحديث عن الإهمال والظلم الذي لحق الحركة الوطنية في شمال المغرب بعد الاستقلال، لا يقتصر على الأستاذ الطريس، بل يمثل إلى حد بعيد رأيا مشتركا بين كافة رجال الحركة الوطنية بهذه المنطقة من المغرب، والذين يرون بأن شمال المغرب ــ كما يقول الأستاذ محمد العربي الشاوش في كتابه «أضواء على الحركة الوطنية بشمال المغرب»ــ : «قد ظلم حتى في ذكرى تاريخه الوطني الحافل، ولم يعترف له بالتضحيات الكبرى التي قدمها، وبالنضال المجيد الذي خاضه من أجل الوحدة وانتصار ثورة الملك والشعب». فالملاحظ، إذن شبه اجماع على هذا الظلم الذي لحق تاريخ الحركة الوطنية بشمال المغرب على مستوى الإنصاف التاريخي، هذا الأمر الذي اتفق معه بدوري وأرى انه يعود إلى عاملين أساسيين :

ــ أول هذين العاملين، هو الفتور الذي يلاحظ في اهتمام البحاث والكتاب المغاربة بتاريخ الحركة الوطنية في شمال المغرب، بشكل يجعله تاريخا شبه مهمل ما زال في حاجة إلى الكثير من الدراسة والغربلة والتحميص، ولكن مع اشتراطنا دائما ان تكون هذه الدراسة دراسة عملية نزيهة تستقي مادتها الأولى من الوثائق أساسا باعتبارها الشاهد الذي لا يمكن الطعن في نزاهته.

ــ اما العامل الثاني، فيرجع إلى كون هذا التقصير التاريخي على المستوى الوطني ترك الباب مفتوحا على مصراعيه للكتابات الأجنبية وخاصة الإسبانية منها والفرنسية لتكتب لنا تاريخنا من وجه نظر استعمارية ــ في اغلب الأحيان ــ الغاية منها خدمة مصالحها وسمعتها بطريقة غير مباشرة، يؤول في نهاية المطاف إلى تشويه الحقائق وطمسها أكثر من انارتها.

إلا ان الأمر المخجل حقيقة، هو ان هذه الكتابات الاستعمارية المدسوسة في غالبيتها، أصبحت وسط هذا الفراغ على مستوى التأريخ، هي المصدر الأساسي الذي يستوحي منه المغاربة المادة الخام للكتابة عن تاريخهم، وخاصة بالنسبة للجزء من المغرب الذي كان تحت الحماية الإسبانية مما يؤدي في نهاية المطاف إلى تشويه هذا التاريخ ورميه بأباطيل قد يكون بريئا منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

إلا أنه مع كل ما تمت الإشارة إليه، وتوخيا للإنصاف التاريخي والعلمي، لايمكن بأي حال من الأحوال ان نبخس بعض الكتابات والأبحاث حقها في مجال المساهمة في كشف وتسليط الأضواء على تاريخ الحركة الوطنية في شمال المغرب وهنا لا بد من الإشارة على سبيل المثال فقط وليس على سبيل الحصر، إلى مساهمات بعض رجال الحركة في شمال المغرب امثال الأستاذ التهامي الوزاني والأستاذ الطيب بنونة والأستاذ محمد العربي الشاوش.. كما لا يمكن ان نتناسى مساهمات الأستاذ محمد ابن عزوز حكيم وبعض الأطروحات الجامعية...

إلا ان هذه المساهمات وحدها تبقى غير كافية ولا تغطي الفراغ الشاسع الذي يسود ملف الحركة الوطنية في شمال المغرب، ويظل الأمر محتاجا إلى خطى جريئة لاحقة، وإلى مساهمة أولئك الذين عاشوا تلك الفترة لإزاحة الستار عنها، عملا بقول الأستاذ الطيب بنونة — في كتاب «انطلاق المقاومة المغربية وتطورها» للسيد الحسن العرائشي — حيث يقول «فينبغي لنا جميعا — واعني بالجميع الذين شاركوا في تكوين هذه المرحلة من حياتنا — ان نقدِّم للباحث والمؤرخين ما عندنا من معلومات ووثائق، ونترك المجال للمحققين والمنصفين ليقولوا كلمتهم ويصدروا احكامهم».

بعد هذه الملاحظة، أرى انه من الأمور التي تفرض نفسها بالحاح على كل متتبع لتاريخ الحركة الوطنية بشمال المغرب، هو الأهمية الكبرى التي احتلتها قضية الثقافة في إطار هذه الحركة، والتي يمكن اعتبارها بحق سباقة في هذا الميدان بل يمكن الذهاب إلى ابعد من ذلك والتأكيد على وجود تفاعل وتكامل عضوي بين العملين الوطني والثقافي؛ العمل الوطني المتمثل أول الأمر في العمل السلبي من خلال العرائض والتظاهرات السياسية قبل ان يدخل مرحلة التحرك العملي المسلح والعمل المباشر من أجل اسقاط الحماية، والعمل الثقافي المتمثل أساسا في احداث المدارس والجمعيات والمطابع الوطنية وفي عملية الصحافة والنشر بالمنطقة.

وقد عرف شمال المغرب إلى جانب هذا التكامل علاقة جدلية متينة من العمل الوطني والعمل الثقافي؛ حيث كان الوعي والنشاط الوطني المبكر هو المحفز الأساسي وراء ميلاد ونمو العمل الثقافي بالمنطقة كسلاح أساسي للدفاع عن هذا الوعي والنشاط والوقوف بجانبه في معركة تتطلب استعمال كافة الأسلحة، وبالتالي فقد كان العمل الثقافي بدوره دافعا أساسيا وراء نمو العمل الوطني وانضاج الوعي السياسي من خلال التأثير على الجماهير الشعبية والزج بها في حقل الوطنية وانضاج وعيها السياسي والوطني.

وامام هذا المنطق، يبقى علينا البحث في علامات الربط الأساسية بين هذين الحقلين الوطني والثقافي، وهنا نصل إلى نتيجة محورية؛ وهي كون علامة الربط الأساسية كانت هي حركة النشر والصحافة من جهة كما كانت من جهة أخرى هي ثلة من الرجال استطاعوا ان يتفوقوا وان يوفقوا بإتقان كبيرين

الوطنية والثقافة ولعل الأستاذ الفقيه محمد داود ـــ بجانب بعض رجال الحركة امثال الأستاذ الطريس والشريف التهامي الوزاني ـــ يعتبر علامة ربط اساسية بين العمل الوطني والمسألة الثقافية بالمنطقة الشمالية من المغرب ويفرض نفسه على كل باحث وراء الكشف عن علامات الربط هاته.

إن الحديث عن مسألة الصحافة والنشر في إطار الحركة الوطنية المغربية، يدفعنا مجبرين إلى الوقوف عند الأستاذ الفقيه داود كأحد اقطاب هذا الميدان ورواده، وبالتالي يجرنا إلى الحديث عن الوعي المبكر لدى الفقيه بأهمية الصحافة والنشر كعلامة ربط أساسية بين العمل الوطني والمسألة الثقافية بالمنطقة.

فمن الأمور الطريفة التي يذكرها أهالي تطوان، ان الأستاذ محمد داود في حديث له مع الأستاذ الشيخ علال الخطيب في أوائل العشرينات، حدثه عن ضرورة اصدار صحف وطنية بالمنطقة، فكان جواب الشيخ الخطيب انه «قبل اعداد الصحف يجب اعداد القراء». وبالفعل اقتنع الأستاذ داود بحجية هذا المنطق وسار على نصيحة صاحبه من أجل خلق الجو المناسب لتنفس قطاع الصحافة والنشر، وكانت المبادرة الأولى من طرفه وكانت المدرسة الأهلية.

وهكذا يمكننا الحديث في أواسط العشرينات عن ظهور نوع من الوعي بالدور الكبير الذي يمكن ان تلعبه المدارس الوطنية في الحياة السياسية والإجتماعية بصفة عامة، وخصوصا بعد فشل استراتيجية المقاومة المسلحة التي عاشت عليها القبائل فترة من الزمان، وهكذا قام الفقيه محمد داود بتأسيس المدرسة الأهلية بتاريخ 23 جمادى الأولى 1345 الموافق لسنة 1925، والتي تعتبر أول مدرسة اسلامية وطنية حزة اسست على النظام الحديث في منطقة الحماية الإسبانية.

كما يرجع الفضل في تأسيس هذه المدرسة إلى مجموعة من رجال تطوان الذين كونوا مجلسا لتنظيم وتسيير هذه المدرسة، وهم السادة : مصطفى افيلال والحسن افيلال ومحمد السلاوي والزبير السكيرج وعبد السلام بن عبود وعلال الخطيب، ولكن يجب دائما ان لا ننسى ان المؤسس الأصلي والشخصية التي اعتبرت القلب النابض لهذه المؤسسة هو الفقيه محمد داود الذي عمل كمدير لهذه المدرسة واستاذ بها دون أي مقابل، والذي ـــ على حد قول السيد محمد ابن عزوز حكيم في كتاب «وثائق الحركة الوطنية»ـــ : «يعتبر بحق استاذ النخبة المغربية التي قادت فيها بعد الحركة الوطنية في الشمال البلاد تحت زعامة الأستاذ الكبير عبد الخالق الطريس». كما التحق للتدريس بهذه المدرسة كل من الأساتذة : الحاج عبد السلام بنونة والسيد محمد بالمخوت والسيد أحمد الفرطاخ وسيدي التهامي الوزاني...

وقد اعتبرت المدرسة الأهلية بازغة عهد جديد في مجال التعليم، حيث كانت ثورة فيما يتعلق بالأساليب الدراسية من جهة، وفيما يتعلق بالبرامج الدراسية من جهة أخرى، الأمر الذي اكسبها عطف مجموعة مهمة من الشخصيات.

فبخصوص الأساليب الدراسية، نجد سيدي التهامي الوزاني يقول في «مذكرته حول المقاومة المسلحة والحركة الوطنية في شمال المغرب» : «... إنها أول مدرسة تحطمت فيها القيود واستطاع فيها التلميذ ان يجلس مطلق الرجلين يكتب الدفتر»

اما بخصوص البرامج الدراسية، فإننا نجد من بين العلوم التي كانت تدرس في هذه المدرسة — كما تخبرنا بذلك مجلة السلام في جزئها الأول — : التوحيد والفقه الإسلاميان، واللغة العربية ومتعلقاتها، والحساب، والجغرافيا، والتاريخ الإسلامي، والتاريخ المغربي، والتاريخ العام، والصحة، والأشياء... الخ، وجل كتب الدراسة هي من المقررات رسميا بمصر وسوريا.

فمن خلال ما سبق ذكره، وإذا حاولنا تقسيم هذه البذرة الطيبة المبكرة لفقيهنا الأستاذ محمد داود، فإنه يمكن اعتبار احداث المدرسة الأهلية سنة 1925 كمرحلة مهمة من مراحل المسيرة الوطنية في شمال المغرب، ويعود ذلك اساسا لسببين : — الأول منهما فوري وهو كونها قد احدثت تطورا في المجال التعليمي الذي أصبح ذا أساليب عصرية وافق أوسع وأشمل.— والسبب الثاني لاحق وهو كوننا سنجد ان اغلب — ان لم نقل كل — قادة الحركة الوطنية بشمال المغرب وجل رواد الصحافة الوطنية بالمنطقة قد اقترن تاريخهم بالدراسة في هذه المدرسة الوطنية ولعل هذا الأمر ليس بالغريب — على حد قول الأستاذ محمد بن عبد السلام بن عبود في جريدة الحرية بتاريخ 21 يوليوز 1940 — حيث يقول : «ان المدارس الوطنية هي التي توجه سير التاريخ، فلهذا نرى الأمم المترقية تقدرها قدرها وتعتمد عليها في أخطر الأشياء، فهذا بسمارك يقول عندما انتصر على اعدائه في حرب 1870 (لقد انتصرنا بمدارسنا)».

وأخيرا، وقبل الخروج من موضوع المدرسة الأهلية، التي فرضت نفسها علينا في موضوعنا هذا باعتبارها معلمة تاريخية عظمى لا يمكن تخطيها عند الحديث عن الأستاذ محمد داود ولو في مجال الصحافة والنشر، أود ان اترك تحديد الميزة الأساسية والتقييم النهائي لهذه المدرسة للأستاذ احمد بن جلون في جريدة الحرية بتاريخ 13 مارس 1940 حيث يقول : «تمتاز هذه المدرسة عن غيرها بكونها منبع هذه النهضة المباركة، ففيها نفثت روح الوطنية في نفوس الشباب المغربي الثائر، ومنها انبعثت أشعة النور الأولى التي اضاءت السبيل لهذا الشعب الضليل، ويكفيها فخرا ان يكون اغلب قادة هذه الحركة الوطنية بالعاصمة من متخرجيها أو من الذين سبق لهم الدراسة فيها وتشبعوا بروحها، فهي إذن ام الوطنية الحنون، وإليها يرجع الفضل الأكبر في اخراج هذه المبادىء المقدسة إلى حيز الوجود».

وبعد حوالي ثلاث سنوات عن تأسيس المدرسة الأهلية، سيقوم الأستاذ الفقيه محمد دواد — بصفته رجل الأولويات والخطى الجريئة — بخطوة جد حاسمة على مستوى حركة النشر والصحافة بصفة خاصة وعلى مستوى مستقبل النشاط الوطني بصفة عامة، وذلك بتأسيسه للمطبعة المهدية التي اثبت من خلالها استباقه للزمن وعزمه الأكيد على ولوج ميدان الصحافة والنشر من أوسع الأبواب.

ففي اطار المرحلة الجديدة التي دخلتها الحركة الوطنية في شمال المغرب خصوصا منذ سنة 1925 — هذه السنة التي اعطت ميلاد المدرسة الأهلية على يد فقيهنا والتي تعتبر حسب اغلب البحاث في تاريخ الحركة الوطنية المغربية سنة انطلاق الحركة الوطنية وبداية طريقها — فإنه كان لا بد من التفكير في إيجاد حد لذلك الإحتكار الذي كانت تتمتع به اسبانيا في ميدان النشر والإعلام والصحافة المكتوبة داخل المنطقة المشمولة بحمايتها — هذا مع استثناء بعض الصحف والمجلات العربية التي كانت تدخل إلى تطوان من الشرق العربي مثل مجلة «العروة الوثقى» ومجلة «المصور» وغيرها—، فكان من الضروري القيام بخطوة أولى جوهرية على مستوى التجهيز قبل دخول المعركة بطريقة عملية.

وعليه فقد ظهرت دعوة جادة وملحة من الأستاذ محمد داود إلى ايجاد مطبعة عربية، هذه الدعوة التي وجدت الدعم المعنوي والمادي لها من طرف مجموعة من أهالي تطوان على رأسهم الحاج عبد السلام بنونة، وقد آل الأمر إلى تأسيس المطبعة المهدية بتاريخ 21 نوفمبر 1928 كأول مطبعة عربية من نوعها عرفها المغرب، وقد اتخذت شكل شركة تعاونية مساهمة، وتم اسناد امر ادارتها إلى مؤسسها وصاحب فكرتها الأستاذ الفقيه محمد داود الذي دفع هذه المؤسسة إلى لعب دور جد مرموق في مسيرة الحركة الوطنية بهذه المنطقة بل وفي المغرب بأجمعه.

ويلاحظ ان الأهمية الكبرى والخاصة للمطبعة المهدية تكمن في كونها قد لعبت دورين أساسين :

ــ الأول منهما يتجلى في فتحها المجال لامكانية الإتصال بين رجال الفكر بالمنطقة وعموم الشعب عن طريق اللغة، بعدما كانت الوسيلة الوحيدة للكتابة وللإتصال هي اللغة الإسبانية بما تتضمنه من فوائد وامتيازات مباشرة وغير مباشرة لصالح الدولة الحامية. فهذه المطبعة، اذن قد لعبت دور حلقة الوصل بين النخبة الوطنية المثقفة والجماهير الوطنية في وقت كانت فيه هذه الأخيرة في أمس الحاجة إلى استنشاق انفاس المبادىء الوطنية والمظاهر الثقافية في نفس الوقت، وذلك لإمكانية دفع تلك النهضة الوطنية والثقافية الفتية التي كانت في أول الطريق.

ــ أما الدور الثاني الذي لعبته المطبعة المهدية، فهو كونها كانت ــ في وقت لاحق ــ صاحبة فضل السبق في طبع أهم الكتب العربية والمجلات والصحف الوطنية بالمنطقة التي كان لها الإسهام الأكبر في مسيرة الحركة الوطنية بشمال المغرب وفي رفع المعنويات الوطنية على مستوى المغرب المحمي بأجمعه. ونذكر هنا من بين المجلات والصحف التي وجدت طريقها إلى القراء من خلال المطبعة المهدية على سبيل المثال : ــ مجلة السلام ــ وجريدة الحياة ــ وجريدة الأخبار ــ وجريدة الريف ــ ومجلة المغرب الجديد ــ ومجلة الأنوار ــ وجريدة الأمة... هذا بالإضافة إلى طبع قوانين ومطبوعات ومناشير ومذكرات حزب الإصلاح الوطني التي كانت تهز مضجع القوى الإستعمارية الحامية.

وهكذا وسيرا على برنامج دقيق ومحدد رسمه الأستاذ الفقيه محمد داود لنفسه بإيحاء من واقع هذا البلد السياسي والإجتماعي، رأى الفقيه ان الوقت قد حان لاقتحام ميدان الصحافة ميدان الصحافة بطريقة مباشرة اقتناعا منه بما يكتسيه هذا الميدان بصفته خطوة أساسية بالنسبة لكل مجتمع يتطلع إلى مستقبل افضل وبصفته علامة ربط أساسية بين العمل الوطني والمسألة الثقافية بصفة عامة.

وهكذا وبعد المدرسة الأهلية التي عملت على تهيىء جيل من القراء واعتبرت وبالتالي بداية الانتعاشة الثقافية بالمنطقة، والتي توجت بإرسال البعثات إلى الشرق سواء إلى نابلس في أكتوبر 1928 أو إلى مصر خلال نفس السنة حيث كانت خطوة اساسية في طريق الانفتاح الثقافي والسياسي بطريقة فعلية على الشرق العربي، جاء دور المطبعة المهدية التي اعطت الإشارة بانتهاء عهد الاحتكار الثقافي والصحافي من طرف الدولة الحامية، ثم اتت جمعية الطالب المغربية في مارس 1932 كأول جمعية ثقافية وطلابية عرفها المغرب خلال عهد الحماية، وبذلك تعبد الطريق بشكل نهائي أمام الفقيه محمد داود ليسن سنة حسنة كانت بداية عهد جديد في الحقل الوطني والثقافي وذلك بإعطائه الضوء الأخضر

للصحافة الوطنية التي انطلقت بتأسيسه لمجلة «السلام» في فاتح أكتوبر 1933 كأول مجلة عربية وطنية صدرت بالمغرب، والتي سيرأس بنفسه تحريرها على طول حياتها القصيرة.

وبخصوص رئاسة الفقيه محمد داود لتحرير مجلة السلام بنفسه، فقد كانت له دلالة كبرى، بصفة الفقيه من جهة رجل وطنية بالمعنى الحقيقي كما يتجلى بوضوح من خلال تأسيسه للمدرسة الأهلية ثم المطبعة المهدية ومشاركته الحاسمة في اعداد «مطالب الأمة المغربية» بتاريخ فاتح ماي 1931 و «المطالب العمالية» بتاريخ 5 ماي 1931، ومن جهة أخرى نظرا لكون الفقيه رجل ثقافة بمعنى الكلمة ومن أكبر مثقفي المنطقة فقد درس بمسقط رأسه تطوان على يد نخبة من الفقهاء منهم الحاج أحمد داود ومحمد بن تاويت واحمد الرهوني كما تابع دراسته بجامعة القرويين بفاس وفوق هذا وذاك كان واسع الاطلاع وعضوا ب «الجمعية الإسلامية الإسبانية» و «البيت العربي» بجانب الأمير شكيب أرسلان. فإصدار الفقيه داود لمجلة السلام ورئاسته لتحريرها كان لوحده له دلالة كبرى على المستوى الوطني والثقافي في نفس الوقت.

وقد صدر الجزء الأول من مجلة السلام في أكتوبر 1933، وقد قدمت المجلة نفسها للقراء بالعبارات التالية : «السلام صحيفة الشباب الحي الناهض، الشباب المفتخر بإسلاميته المعتز بعروبته ووطنيته، المتشبع بعلمه وبثقافته، العامل لتوحيد صفوف امته، المتحفز لقيادة شعبه في نهضته المخلص لله ثم لوطنه ودولته... السلام صحيفة الكهول ذوي المهابة والحمية، والشعور بالكرامة القومية، والغيرة على المصالح العمومية... السلام صحيفة الشيوخ الأبرار ذوي المهابة والوقار، والعلماء المهتدين المخلصين في حماية الدين، الناشرين لسنة سيد المرسلين...».

وإن وعي مجلة السلام بصعوبة المهمة الملقاة على عاتقها من جهة، وبالمصاعب التي قد تعترضها من اجهزة الرقابة الإسبانية إذا ما عمدت إلى الصراحة المباشرة من جهة أخرى، جعلها تقدم نداء إلى القراء في جزئها الأول جاء فيه : «أيها القارىء الكريم لا تكن من الذين يغترون بالألفاظ والمظاهر... ولا تحكم على أي شيء الا بعد الإطلاع عليه ودرسه وإدراك حقيقته، واعلم ان كل مقام له مقال، واللبيب تكفيه الإشارة والسلام».

اما بخصوص اهداف هذه المجلة الوطنية واتجاهاتها الرئيسية والنواحي الأكثر عناية من جانبها، فقد كافانا الأستاذ الفقيه محمد داود استنتاجها، وذلك بتخليصها بنفسه في مقاله الإفتتاحي تحت عنوان «مبدأنا وغايتنا» في الجزء الأول من المجلة، وهي النقط التالية :

1 — التربية والتعليم
2 — الأخلاق والتهذيب
3 — الأدب
4 — تعميم الثقافة وتوحيدها
5 — الإقتصاد والإجتماع
6 — الرياضة والصحة
7 — التجديد

8 ــ بيننا وبين بقية الأقطار الشرقية
9 ــ الأفكار المتطرفة
10 ــ ما ينشر عن بلادنا
11 ــ مبدأنا السياسي.

فمجلت السلام ستلعب دورا مهما في مسيرة الحركة الوطنية والثقافية بالمغرب، حيث اصبحت منبرا معبّراً عن رغبات الشعب المغربي ومحلاً لنشر عدد من العرائض الشعبية والإحتجاجات الوطنية والمظالم الإستعمارية، وبالتالي كانت باكورة لحرية التعبير ومتنفسا للوطنيين في جنوب المغرب للتعبير عن آرائهم، كما أولت عناية خاصة لقضية الأمة الإسلامية ونهضتها وتوحيد صفوفها، فقد كانت ــ كما وصفها الأستاذ علال الفاسي في كتابه «الحركات الإستقلالية في المغرب العربي» (ص 154) ــ: «مجلة جامعة مليئة بالروح الوثابة والوعي الصحيح».

اما بخصوص أهم الشخصيات التي كانت تكتب في مجلة السلام، فنذكر من بينها السادة : محمد داود، عبد الخالق الطريس، الحاج محمد بنونة، عبد الله كنون، محمد المكي الناصري، علال الفاسي، احمد بلا فريج، محمد بن الحسن الوزاني، سعيد حجي، محمد بن اليمني الناصري، عبد الملك البلغيثي، عبد العزيز الثعالبي. والأمير شكيب أرسلان... وغير هؤلاء كثير.

وقد صدر من مجلة السلام عشرة اعداد، الأول منها في اكتوبر 1933 والأخير في نوفمبر 1934، ويكفي مجلة السلام والأستاذ محمد داود فخرا ان السلطات الفرنسية قد ضاقت من هذه المجلة ومن وعيها الثقافي والوطني الوثاب، فأصدرت امرا باسم القائد الأعلى للجيوش المغربية مؤقتا «الجنرال دوك ماك كارتي» في 16 ماي 1934 بمنع دخول المجلة إلى المنطقة المغربية المشمولة بحماية فرنسا، وذلك بحجة ــ حسب نص الأمر ــ «ان المجلة التي عنوانها «السلام» الصادرة بتطوان باللغة العربية من شأنها ان تشوش النظام العام وتضر بالأمان المتعلق بجيوش الاحتلال».

وقد صدر هذا الأمر في «الجريدة الرسمية للدولة المغربية شلشريفة المحمية»، الصادرة بتاريخ 18 ماي 1934، عدد 1125، في الصفحة 680، كما ان نص هذا الأمر منشور باللغتين العربية والفرنسية في الجزء العاشر من مجلة السلام.

فمجلة السلام، اذن كانت بفضل ومن خلال الأستاذ الفقيه محمد داود تجربة رائدة في مجال الصحافة والنشر وفي مجال حرية التعبير ساهمت بشكل كبير في انضاج الوعي الوطني والثقافي، كما كانت تجربة ناجحة ستتلوها خطى لاحقة في مقدمتها تأسيس الأستاذ عبد الخالق الطريس لجريدة «الحياة» في شهر مارس سنة1934.

إلا ان سنة 1933 تتطلب منا بإلحاح وقفة أخرى مع الأستاذ الفقيه محمد داود، حيث كانت هذه السنة سنة مجد خصبة ومحورية في حياة الفقيه، والأمر يتعلق هذه المرة بمسألة ان لم تكن من صميم ميدان الصحافة والنشر فإنها ترتبط بهذا الميدان ارتباطا متينا وتتحكم فيه كما يتحكم فيها بدوره إلى حد بعيد، وهذه المسألة هي قضية «حقوق الإنسان».

فقد شكلت قضية حقوق الإنسان احدى الاهتمامات الأساسية للحركة الوطنية في شمال المغرب منذ وقت مبكر في حقبة كان فيها الإنسان المغربي يفتقر إلى ابسط حقوق وحرياته. كما كان للجمعية العالمية للدفاع عن حقوق الإنسان صدى في شمال المغرب خاصة من خلال تواجد فرع مهم لهذه الجمعية بالعاصمة الإسبانية مدريد.

وقد تحول هذا الإهتمام المبكر بحقوق الإنسان إلى مشروع عملي سنة 1933 عندما قامت نخبة من رجال الحركة الوطنية في شمال المغرب من بينها ــ وكيف لا ــ الأستاذ الفقيه محمد داود وعلى رأسها الحاج عبد السلام بنونة بتأسيس أوّل جمعية مغربية للدفاع عن حقوق الإنسان، وقد اقتبست هذه الجمعية نظامها وقانونها الأساسي من فرع الجمعية العالمية للدفاع عن حقوق الإنسان بمدريد.

اما بخصوص المجلس الإداري لجمعية حقوق الإنسان المذكورة، فقد كان يتألف من نخبة من الوطنيين بالمنطقة الشمالية، وذلك على الشكل التالي :

الرئيس : عبد السلام بنونة، الوكيل : التهامي الوزاني، الأمين : محمد المصمودي، الكاتب : خوسي البيرولا.

والأعضاء : محمد بن احمد داود، احمد غيلان، محمد طنانة، عبد الخالق الطريس، الحسين الحيحي، محمد بنونة.

والمشتركون : الطيب بنونة، عبد السلام بن جلون، الحاج محمد الصفار، مصطفى الريسوني، محمد الطنجي، محمد باغوز، الحسن بن عبد الوهاب، محمد بن احمد الناصر، عبد السلام حجاج، محمد بن محمد الدليرو.

والجدير بالذكر ان جمعية حقوق الإنسان هاته قد كان لها تأثير معنوي على سلطات الحماية الإسبانية، وبالتالي فقد شكلت وسيلة ضغط مهمة في يد الحركة الوطنية المغربية بالشمال تجاه دولة حامية طالما تبجحت بتعاونها مع الجمعية العالمية للدفاع عن حقوق الإنسان وباحتضانها لأحداهم فروع هذه الجمعية ــ كما ان جمعية حقوق الإنسان هاته قد اكتست أهمية خاصة من الوجهة التاريخية باعتبارها كانت أول جمعية من نوعها يعرفها المغرب بل وعدد من الدول العربية والإسلامية... وقد جاءت هذه الجمعية لتقف شاهدة على مستوى النضج السياسي الذي وصلت إليه الحركة الوطنية في شمال المغرب خلال تلك الفترة المبكرة من حياة الحماية في هذا البلد.

والجدير بالذكر بعد هذا ان مسألة الصحافة والنشر، قد وجدت طريقها الفعلي بعد صدور مجلة السلام، حيث عرف شمال المغرب انطلاقة فريدة من نوعها على المستوى الصحافي لا يمكن انكار ان فضلها الأول يعود إلى الأستاذ الفقيه محمد داود، هذا الرجل الذي أعطى الكثير على مستوى تشجيع الصحف الوطنية والذي شارك بقلمه ــ سواء باسمه الحقيقي أو باسمه المستعار ــ في اغناء اغلب الصحف والمجلات الصادرة بالمنطقة ــ ان لم نقل كلها ــ والتي نجد انفسنا هنا مضطرين للمرور عليها مر الكرام نظرا لضيق الوقت ورغبة منا في عدم الإطالة وفسح المجال امام باقي المتدخلين.

فسيرا على نهج الأستاذ محمد داود، اصدر تلميذه الأستاذ عبد الخالق الطريس في مارس 1934 جريدة «الحياة» الأسبوعية التي تعتبر أول صحيفة وطنية باللغة العربية صدرت بالمغرب.

وقد تولى الأستاذ الطريس بنفسه رئاسة تحرير الجريدة من عددها الأول لفاتح مارس 1934 إلى العدد الواحد الثلاثين لِـ 11 اكتوبر 1934 حيث تقلد في شهر اكتوبر بموافقة الكتلة الوطنية معام الإدارة العامة للأحباس، وآنذاك تخلى عن رئاسة تحرير الجريدة للشريف سيدي التهامي الوزاني الذي قام بهذه المهمة منذ العدد الثاني والثلاثين لِـ 18 اكتوبر 1934 إلى العدد السابع والسبعين وهو الأخير لِـ 29 غشت 1935.

وقد عاشت هذه الجريدة عدة مضايقات من طرف الإدارة الإسبانية بسبب صراحتها في انتقاد الإدارة الحامية والمراقبين الإسبان... كما منع دخولها إلى المنطقة السلطانية بأمر من رئيس جيش الاحتلال بتاريخ 16 ماي 1934.

وبأختصار يمكن القول ان جريدة الحياة قد صدرت ـــ حسب قول السيد عبد الكريم غلاب في كتاب «تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب» (ص 97) ـــ «للدفاع عن المصالح القومية وكانت معبرة عن الرأي الوطني في المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكانت تعكس مطالب الشعب المغربي... وقد عكست «الحياة» كل افكار الكتلة الوطنية في الشمال والجنوب». كما لعبت جريدة الحياة دورا أساسيا ـــ حسب السيد المكي الناصري في كتاب «الطريس ما قيل عنه» (ص 55 و 56) ـــ في «كشف الحقيقة الوطنية، وفي الكشف عن عورات الاستعمار الفرنسي والإسباني، وفي فتح صفحة جديدة من الجهاد، فقد كنا لا نملك في المغرب صحيفة وطنية باللغة العربية».

وبعد احتجاب مجلة السلام في نوفمبر 1934، قام الشيخ محمد المكي الناصري بإنشاء مجلة أخرى لتحل محلها هي مجلة «المغرب الجديد»، وقد صدر العدد الأول من هذه المجلة بمدينة تطوان في فاتح يونيو 1935 واسند أمر ادارتها إلى السيد محمد العربي بن جلون.

وقد كانت مجلة المغرب الجديد علمية وفكرية جامعية، تصدر في الأسبوع الأول من كل شهر عربي، وقد صدر منها سبعة عشر عددا ما بين فاتح يونيو 1935 و 19 غشت 1936.

فمجلة المغرب الجديد، إذن كانت خلفا لمجلة السلام وفي نفس الوقت استمرار للحركة الثقافية والفكرية التي عرفها شمال المغرب خلال السنوات السابقة لميلاد حزب الإصلاح الوطني.

وإن ايمان الأستاذ الفقيه محمد داود بأهمية الصحافة كسلاح ذي حدين، حد وطني يتم من خلاله خدمة القضية الوطنية العليا وعرض مشاكل الشعب ورغباته والبحث عن الحلول واقتراح المشاريع وفضح التعسفات الاستعمارية، وحدّ ثقافي يتم من خلاله تنوير عقول الجماهير الوطنية وتهييئها لحمل الرسالة التاريخية المنوطة بها؛ جعل الأستاذ الفقيه يفكر في متابعة طريق الصحافة بنفسه، فقام بتأسيس جريدة «الأخبار» سنة 1936 ليقوم من خلالها بمتابعة المهمة التي بدأتها مجلة «السلام» منذ سنة 1933.

وقد صدر العدد الأول من جريدة الأخبار يوم الأحد 21 ذي الحجة 1354 الموافق ليوم 15 مارس 1936، وهي جريدة جامعة تصدر مرة في الأسبوع مؤقتا بمدينة تطوان.

وقد قدمت جريدة الأخبار نفسها للقراء ـــ على عادة الصحف الوطنية بالمنطقة ـــ بمقال «اخلاص» في عددها الأول، من بين ما جاء فيه : «اما بعد فإننا نتقدم إلى امتنا العزيزة بجريدة «الأخبار»

وبرنامجنا خال من كثرة العهود والوعوْد، «إذ كثرة الأقوال، قد تؤدي إلى قلة الأعمال». وإذا كان هناك شيء يستحق ان نلفت إليه انظار قرائنا الكرام، فذلك ان خطتنا انما هي خطة بناء لا تهديم وان عملنا مصحوب بالاجتهاد والتجديد، لا بالجمود والتقليد. وإذا كان لنا رائد في كفاحنا فإنما هو الإخلاص !...».

وقد اغنى الأستاذ محمد داود هذه الجريدة بمقالاته الرزينة وفكره المتزن، كما شارك في الكتابة بهذه الجريدة الأستاذ عبد الخالق الطريس والسيد محمد علال الفاسي وعدد من الشخصيات ذات الأسماء المستعارة مثل : «المغربي» و «ابن الشعب» و «جندي جريح» و «ابو نزار» و «ابو ذر»... وغيرهم.

اما بخصوص المواضيع التي كانت تتطرق إليها وتعالجها جريدة «الأخبار»، فإنها متعددة ومتنوعة بقدر تنوع اهتمامات مؤسسها الأستاذ محمد داود.

فقد كانت هذه الجريدة تخصص ركنا منها لقضية الأنباء والأخبار سواء الدولية أو الوطنية أو المحلية، حيث كانت تخصص اعمدة منها للمواضيع التالية : — السياسة الخارجية — ابناء العالم — في بلاد العروبة والإسلام — في بلاد المغرب — اقوال الصحف — حوادث واخبار محلية...

كما كانت تخصص الجريدة جانبا مهما منها للقضايا الوطنية والسياسية والاجتماعية سواء بشمال المغرب أو جنوبه، وذلك من خلال مقالها الافتتاحي ومن خلال تتبع اطوار العمل السياسي والاجتماعي والثقافي بشمال المغرب واعلان مطالب الشعب المغربي ونشر بيانات كتلة العمل الوطني بجنوب المغرب والإهتمام بمشاكل المنطقة السلطانية، هذا اضافة إلى معالجة مواضيع حيوية جد مهمة خاصة بمشكلة التعليم وبشؤون الميزانية العامة وبأزمة الصانع المغربي وبمسألة المحترفين والنقابة وبمجتمعنا والأخلاق وكذلك قضية تحرير الشعوب العربية وتتبع تطوارت الشرق وكافة الدول العربية والإسلامية.

كما كان للجريدة ركن ثقافي جدّ مهمّ يظهر من خلال موضوع «ملاحظات ومشاهدات» وموضوع «الثقافة العامة» الذي يتم عادة من خلاله التعريف ببعض الشخصيات المغربية كما يتم نشر من الأشعار والأناشيد... هذا مع الإشارة إلى ان هذه الجريدة كانت تصدر معززة بالصور.

وقد كانت حياة جريدة الأخبار جد قصيرة، حيث لم يصدر منها سوى خمسة اعداد آخرها مؤرخ يوم الأحد 20 محرم 1355 الموافق ليوم 12 ابريل 1936، ولعل السبب الأساسي وراء توقف هذه الجريدة هو ضعف التشجيع المادي من جهة وقوة المضايقات الاستعمارية من جهة خرى.

ويكفي جريدة الأخبار فخرا، انه رغم قصر حياتها استطاعت ان تهز مضجع القوى الاستعمارية وتثير قلق السلطات الفرنسية التي منعت دخولها إلى المنطقة المشمولة بحمايتها.

وبعد قيام انقلاب فرانكو يوم 17 يوليوز 1936 ومجيء السيد «خوان بيكبيدر» إلى تطوان ظهرت أول مبادرة لاستغلال الظرف الجديد الذي اصبحت تعيشه اسبانيا وقد اقدم على هذه الخطوة الجريئة احد رفاق الأستاذ محمد داود القدامى في الحقل الوطني والحقل الثقافي، إلا وهو الشريف سيدي التهامي الوزاني الذي قام بتأسيس جريدة «الريف» بتاريخ 27 غشت 1936 كجريدة وطنية حرة سياسية ثقافية تصدر مرتين في الأسبوع.

وقد ضاق صدر الإستعمار الفرنسي بهذه الجريدة منذ أول المطاف، حيث منع دخولها إلى المنطقة السلطانية بتاريخ 11 شتمبر كما سيضيق صدر الإدارة الإسبانية بدورها بجريدة الريف فتصب عليها ثقل قيود الرقابة التي ستؤدي إلى احتجابها خلال بعض الفترات من حياتها.

وقد تولى السيد التهامي الوزاني بنفسه رئاسة تحرير جريدة الريف طوال حياتها باستثناء بعض الفترات القصيرة التي اسندت فيها رئاسة التحرير إلى السيد محمد المسفيوي.

وقد عاشت جريدة الريف ما يقرب من عشرين سنة انطلاقا من عددها الأول بتاريخ 27 غشت 1936، وقد كان عددها الأخير هو العدد 1240 للسنة 20 بتاريخ 17 يونيو 1956. وخلال هذه الحياة الطويلة التي ضربت بها الجريدة رقما قياسيا بين الصحف الوطنية على عهد الحماية، دامت جريدة الريف سندا ودعما للحركة الوطنية من جهة ومنبرا ثقافيا لامعا من جهة أخرى.

وبعد تأسيس حزب الإصلاح الوطني بتاريخ 18 دحنبر 1936، والذي يعتبر الأستاذ محمد داود احد كبار آبائه الروحيين، قام هذا الحزب وعلى رأسه تلميذ الفقيه الأستاذ عبد الخالق الطريس بإصدار جريدة «الحرية» ابتداء من تاريخ 14 مارس 1937 لتصبح بذلك لسان حال الحزب الرسمي. وهي جريدة كانت تصدر مبدئيا ثلاث مرات في الأسبوع، وقد تعاقب على ادارتها السادة : أحمد غيلان ثم عبد الكريم داود ثم مصطفى بن عبد الوهاب، اما رئاسة تحريرها فقد اسندت إلى الأستاذ عبد الخالق الطريس ثم إلى السيد محمد الخطيب.

وقد تضايق الاستعمار الفرنسي من جريدة الحرية منذ وقت مبكر، حيث تم منعها من دخول المنطقة السلطانية بقرار من المقيم العام الفرنسي «الجنرال نوجيس» نشر بالجريدة الرسمية للدولة المغربية في عددها 1310 بتاريخ 3 دجنبر 1937، كما عاشت هذه الجريدة داخل المنطقة الخليفية رقابة صارمة من طرف الإدارة الإسبانية، جعلتها عرضة لعدد من التوقيفات والغرامات، وانتهى الأمر بتوقف الجريدة عن الصدور بتاريخ 17 يناير 1947 بعد ان صدر منها 981 عددا.

إلا ان هذه الجريدة قبل ان تحتجب بشكل نهائي ودعت قراءها في عددها الأخير بمقال «مرحبا بالخطب...!!!» للسيد الطيب بنونة جاء فيه : «ان سياسة العنف لا تزيدنا الاعنفافي المقاومة، وما كان تعطيل صحيفتنا الحرية ليصدنا عن طريق الحق بل ما كانت السجون والمنافي ولا السلاسل والأغلال ولا المشانق والرصاص لتمنعنا عن متابعة الجهاد في سبيل الله واعلاء كلمته ومواصلة الكفاح من اجل المغرب وسيادته...».

كما انه بعد انتهاء عهد المنافي والأحداث الدامية مع «خوصي انريكي فاريلا»، وظهور بوادر الانفراج مع تعيين «الجنرال رفاييل غرسيا بالينيو» مقيما عاما لإسبانيا بالمنطقة الخليفية، تم استغلال هذا الانفراج بإصدار حزب الإصلاح الوطني لجريدة ناطقة بلسان حالة هي جريدة «الأمة».

وقد شرعت جريدة الأمة في الصدور منذ 1 ماي 1952، وهي مبدئيا جريدة يومية، وقد تعاقب على رئاسة تحريرها السادة : محمد الخطيب وعبد الخالق الطريس والمهدي بنونة في حين تولى ادارتها السيد مصطفى بن عبد الوهاب ثم الطيب بنونة... غيرهم.

وقد ازعجت هذه الجريدة السلطات الفرنسية منذ بداية المطاف، حيث تم منعها من دخول المنطقة السلطانية، كما امتد هذا المنع إلى منطقة طنجة الدولية، وفوق هذا وذاك نجد اسبانيا قد رمت بكل ثقل رقابتها على هذه الجريدة الوطنية.

ومما يزيد من الأهمية الوطنية والتاريخية لجريدة الأمة، هو كونها كانت الناطق الوحيد باسم الوطنية المغربية بعد تعطيل السلطات الفرنسية لجميع الصحف الوطنية منذ شهر دجنبر من سنة 1952.

ويكفينا تأكيدا على الدور الوطني والثقافي الحاسم الذي لعبته جريدة الأمة، التصريح الذي أدلى به المغفور له محمد الخامس ــ بعد عودته من المنفى ــ لمندوب جريدة الأمة السيد «عبد الله الخطيب» بتاريخ 19 نوفمبر 1955 والذي جاء فيه : «انني اعتبر هذه الجريدة الوطنية انها أول صحيفة مغربية حملت لواء الدفاع عن شخصنا وسيادة وطننا في هذه الظروف العصيبة التي اجتازها مغربنا المجاهد، حيث ظلت في ميدان الصراع إلى اللحظة الأخيرة... ان جريدة «الأمة» كانت بحق بكل افتخار سلوتي الوحيد في منفاي وكانت هي الصحيفة العربية التي استطاعت ان تخترق الستار الحديدي وتقطع هذا البعد الشاسع، وكنت اتطلع إلى وصولها بفارغ الصبر، لأنني كنت انظر إليها كأنها مرآة مصقولة تنعكس على صفحاتها حقيقة ما يجري في وطننا العزيز» (جريدة الأمة ــ عدد 688 ــ 21 نوفمبر 1955).

وأخيرا احتجبت جريدة الأمة بانتهاء المهمة الوطنية التي قامت من أجلها، وذلك بتاريخ 25 دجنبر 1956 بعد ان صدر منها 1021 عددا، لتكون بذلك آخر عهد الصحافة الوطنية على عهد الحماية.

بعد هذه الإطلالة على حركة النشر والصحافة في شمال المغرب كعلامة ربط اساسية بين العمل الوطني والمسألة الثقافية بالمنطقة، يمكننا الخروج بنتيجة محورية وهي كون حركة النشر والصحافة قد وجدت انطلاقتها ومهدها بشمال المغرب الذي كان سباقا في هذا الميدان الحيوي، وبالتالي يمكننا على هذا الأساس وعلى هذا المستوى اعتبار الحركة الوطنية بالشمال حركة الأولويات بالمغرب كما يمكننا اعتبار الأستاذ الفقيه محمد داود داخل هذه الأولويات «رجل الأولويات» والمدرسة الأهلية والمطبعة المهدية ومجلة السلام خير شاهد على ما نقول، وانه ــ حسب الأستاذ اكرم زعيتر في جريدة الشرق الأوسط بتاريخ 22 غشت 1984 ــ «لا عجب فالعلامة محمد داود مربي الجيل كان معروفا بغيرته الإسلامية وعربيته الخالصة النقية وصدقه في القول واخلاصه في العمل، وجرأته بالحق على الباطل، وابائه وعزة نفسه وترفعه عما لا يجمل بالرجل الكبير جزاه الله المثوبة والحسنى».

وبعد هذا يبقى علينا جميعا ان نتأسف على الإهمال الذي لحق منجزات فقيدنا الفقيه محمد داود ونتحسر على ضياعها وهي من أهم المعالم الوطنية والتاريخية بهذا البلد العزيز، والكلام هنا يتجه إلى اندثار المدرسة الأهلية حتى في اسمها وضياع المطبعة المهدية، وان كانت الحسرة لا تجدي في مثل هذه الحالات.

وأخيرا أود ان أنهي مداخلتي هاته بأمنية وبأمل يخالج صدر كل غيور على تاريخ الحركة الوطنية بصفة عامة، ولا نشك في ان هذا الأمل كان يخالج صدر فقيدنا الفقيه محمد داود، وقد استطاع الأستاذ محمد العربي الشاوش ان يعبر عنه خير تعبير في كتابه «أضواء على الحركة الوطنية بشمال المغرب» (ص

12)، حيث يقول : «وكم يسرنا ان يكتب تاريخ الحركة الوطنية المغربية كتابة نظيفة خاضعة لمنهج البحث العلمي التاريخي، لا كتابة عاطفية نابعة من الأغراض الشخصية ومستمدة من الشطحات الضونكيخوطية وهكذا تسجل الحقائق الوطنية والمواقف النضالية بكل موضوعية ونزاهة سواء في شمال البلاد أو في جنوبها، لأن الحركة الوطنية المغربية شركة مساهمة، ان صح هذا التعبير، ساهم في أحداثها ومواقفها وتطورها كل مواطن حر مستنير، كل حسب قدرته واستعداده وامكانياته، ولا يجوز خلقيا ولا تاريخيا ان نبخس المناضلين حقوقهم وتضحياتهم، ولا ان نستصغر عملا من الأعمال المبذولة في الحقل الوطني».

العمل الوطني بشمال المغرب من خلال الوثائق الدبلوماسية الفرنسية

عبد العزيز التمسماني خلوق

قبل أن أبدأ حديثي حول العمل الوطني بالمنطقة الخليفية من خلال الأرشيف الدبلوماسي الفرنسي، لا أراني خارجا عن الموضوع إذا قمت برصد بعض ملامح التضامن المغاربي في القرن الماضي لمناهضة الاستعمار الفرنسي. فهناك نصوص منشورة تناولت أنواعا من المقاومة الداخلية التلقائية التي انبثقت منها الروح الوطنية، فأبرزت التحرك المعادي لفرنسا، ومواقف الفئات المعارضة والرافضة لممارساتها. بعبارة أخرى، فما أريد أن أنبه إليه، بدءا، هو أن التنديد بالعقلية الاستعمارية الفرنسية قديم، كان موجوداً في وقت مبكر، إذ يرجع ظهوره إلى 1830، عقب استيلاء فرنسا على الجزائر. وهذا يعني أن الحركة الوطنية المغربية امتداد لهذا التراث النضالي الذي غرس فكرة التضامن في النفوس من أجل فك قيود الاستبداد عنها.

وهكذا يزخر المجلد الثامن من «تاريخ تطوان» بوثائق تهتم بالأحداث السياسية التي عصفت بالشمال الإفريقي في القرن التاسع عشر، فتصف النكبات التي تعرضت لها الجزائر منذ أن وقعت فريسة بين أيدي الفرنسيين، وتتحدث عن جموع المجاهدين الجزائريين التي تدفقت على تطوان، معبرةً عن الحزن الصادق والتأثر العميق الذي حصل للمغاربة، مبرزة الحمية الدينية التي أثارها الاعتداء لديهم. وفي هذا الصدد، يتوجب علينا القول بأن الرسائل الرحمانية التي نشرها فقيد الوطن محمد داود في هذا المجلد بالذات تعتبر دعوة صريحة للجهاد ضد سلطات الاحتلال، وتعبر عن نقمتها وسخطها. إنما تنطلق من الإيمان العارم بالمسؤولية التاريخية الملقاة على المسلم تجاه أمته. والواقع أن عباراتها تبعث على التفكير في مآسي الاحتلال الفرنسي :

«إن أهل الجزائر — يقول السلطان عبد الرحمان بن هشام — ناس غرباء أخرجهم العدو الكافر من أرضهم ووطنهم، والتجأوا لإيالتنا، واستظلو بظل عنايتنا، فينبغي لنا أن نؤنس وحشتم، ونعاملهم بما ينسيهم غربتهم، لأنهم إخواننا في الدين» (ج 8، ص. 314).

بالفعل، كان المغرب يعاضدهم ويحميهم ويشد من أزرهم ويشعر بالألم «منذ استيلاء عدو الله الفرنصيص على ثغر الجزائر، واحتوائه على ما وجد فيها من الأموال والذخائر» وهكذا، كان المولى عبد الرحمان يأمر بمواساتهم والإحسان إليهم وإكرامهم، وقد خاطب القائد محمد أشعاش بقوله : «فكل من

قالت بنتُ البـــــاي يا ناري
الفـــــرنسيس دخــــــل داري
وانــــا حملــــة في شهــــري
وبالخلعــــة رمــــيت صبيـــــة
يا سلام سلام علـــــى الباداويـــــة
يا رايس عشق البلــــــد بليـــــة
قالت مرة البــــاي يا شومــــــي
ولــــــدي رجـــــع رومــــــي
متحــــــزم بحــــــزم السومــــــي
ويقجـــــــم بالفرنساويــــــــة

من قراءة هذا النشيد، نتبين أنه ينادي بالكفاح ضد فرنسا، ويدعوها إلى الانسحاب من القطر التونسي لتترك أمره لأهله؛ كذلك يناشد التونسيين أن يكونوا رجالا وألا يذعنوا للحماية الفرنسية. فهذا النشيد دعوة إلى الثورة وتحريض ضد سلطات الاحتلال، إنه يتأجج نارا : يذكي، بكلماته الحماسية، وجدان رجل الشارع، ويثير إحساسه. لقد حمل فرنسا، ووقف ضد سياستها التوسعية، فتميز بلهجته الساخرة وبنقده القاسي للاستعمار. إنه يخاطب الناس باللغة الشعبية البسيطة، نلمح فيها إلى الخفة. باختصار، إنه يجسد الإرادة الجماعية ويعكس إيمانها القوي بالوطن.

لقد تقوى هذا التيار المناهض للاستعمال الفرنسي بشمال المغرب بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى. فعندما دخلت الإمبراطورية العثمانية هذه الحرب، وانضمت إلى ألمانيا والنمسا في نوفمبر 1914، حاولت تأليب الرأي العام ضد كتلة دول الحلفاء المتكونة خاصة من فرنسا وانجلترا وروسيا، فنشرت أفكارها بالمغرب. إنها جعلت لهذه الحرب الضروس أهدافا إسلامية، وأعطتها صبغة الدفاع عن المسلمين واستنهاضهم. فكانت تذكي شعلة الجهاد في نفوسهم وتقوم بالدعاية ضد فرنسا. وفي هذا السياق، نستشهد بوثيقة عثرت عليها ضمن مستندات الأرسيف الدبلوماسي الفرنسي بمدينة نانط، وهي عبارة عن فتوى طبعت بالمطبعة المحمدية بإسطنبول، أصدرها فحول الفقهاء : محمد بن طاهر، المفتي المالكي، جمال الدين بن صالح، المفتي الحنبلي، شعبان ابن يحيى الأزهري، المفتي الشافعي، علي بن عبد المومن، المفتي الحنفي. وقد تم توزيعها بتطوان. تقول الفتوى :

«يعلم بأن الله تعالى شرف المسلمين بحرية الرأي واستقلالية النفس. منذ نحو مائة عام الفرنصيص والإنجليز دمرهم الله سلطوا على الإسلام واستولوا شيئا فشيئا أكثر من نصف بلاد المسلمين ونزلوا قدر أحرار المسلمين إلى منزلة العبيد. في مدة استيلائهم قتلوا آلاف من المسلمين المعصومين وخربوا أحكام الدين المبين وهتكوا عيالات المسلمين ووضعوا بيت الله الحرام إلى التهلكة لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

«نحن كنا من المنتظرين إلى قدرة الربانية الحمد لله جاء الوقت. الآن الشرع يأمرنا بالانتهاء من ضعف الأعراب والوقت هو الوقت الموعود للجهاد الذي فرض على المسلمين. اليوم دم كل الفرنصيص

والإنجليز هدر وأموالهم غنيمة. على هذه الوسيلة نوصي إلى إخواننا المسلمين قيام العام الذي وجب علينا لتطهير بلاد المسلمين من أعدائنا الفرنصيص والانجليز».

«نـوضوا يا عبـاد الله فرض عليكـم الجهـاد
خرجـوا الفـرنصيص من بلادكـم
الـوقت يفـوت انتفعـوا
من ضعـف العـدو»

وفي هذه الأثناء، كانت موجة العداء ضد فرنسا قد تصاعدت، ففي الريف، نجد القاضي عبد الكريم الخطابي يستقبل المَبعوثين الأتراك والألمانيين الذين اتخذوا الجزء غير المحتل منه نقطة انطلاق لمهاجمة فرنسا في المغرب. وهذا ما يلخصه الدكتور جرمان عياش بقوله :

«وقع حادث حاسم مع دخول تركيا الحرب بجانب ألمانيا. كان من شأن هذا الحادث أن يعمل رأسا على إعادة النظر في الأمور بشكل محسوس. من قبل، عندما لم تكن الحرب تهم سوى الدول الأوربية، لم يكن من الميسورجني فائدة منها ضد الهيمنة الفرنسية بالمغرب إلا بدعم من دولة أوربية أخرى، وكانت هذه الدولة آنذاك هي ألمانيا التي لم تعد تخفي منذ بضع سنوات ما تضمره بدورها من مطامع، بحيث إن التعامل معها وقتذاك كان يجازف كثيرا بأن يتهم بالتواطؤ مع هذا السيد الجديد. خاصة إذا سبق له مثل الفقيه عبد الكريم أن خدم إسبانيا. أما وقد دخلت تركيا بدورها الآن في الحرب ضد فرنسا، فإن العون الذي يمكن انتظاره منها سيكون مدعوما بالضمانة الإسلامية. وهذا حتى لو كان مصحوبا بكفالة برلين وبغض النظر عن مشكلتهم مع فرنسا، ألم يكن المغاربة ملزمين بحكم الروابط الدينية بأن يساعدوا بدون تردد تركيا المسلمة ؟ ذلك بالذات ما طالبت به السلطة العثمانية في نداء وجهته منذ الأسبوع الأول إلى كافة المسلمين في العالم».

ونجد في ثنايا وثيقة إسبانية تأكيداً لمزاولة النشاط التركي في بلاد جبالة. لقد ذكر الممثل الإسباني المقيم بطنجة في رسالة بعث بها إلى محمد العربي الصنهاجي، خليفة نائب الحضرة الشريفة بها، في 14 أكتوبر 1917، أن الدعاية الألمانية انتشرت حتى في أحواز هذه المدينة. أفصح عن ذلك قائلا :

«وبعد فقد وصلنا كتابكم تاريخ 17 غشت موافق 28 شوال الماضيين من العام الجاري الذي تخبرون فيه بأن مكتوبا ألمانيا قرىء بجامع مدشرعين بلوط بتحريض الناس على إيقاد الفتنة ضد المخزن والحلفاء وان عدة نسخ منه قد فرقت حسب قولكم على يد الريسوني. وصار بالبال وقد رفعنا ذلك كله لعلم سعادة المقيم العام بتطوان. وبعد إجرائه البحث اللازم في ذلك نحو الشريف الريسوني أنتج البحث أن الشريف المذكور برىء من كل ما نسب إليه في شأن الكتاب المقروء بجامع عين بلوط وفي غيره مما قيل إنه فرق على يده...»

ومع حرب الريف التحريرية، أصبح الاهتمام الفرنسي بالشمال كبيرا، وهكذا نجد في مركز الوثائق الدبلوماسية بنانط تقارير مستفيضة ومذكرات مطولة ودراسات وافية تتناول القبائل الشمالية وتنظيماتها السياسية وخصوصياتها الدينية وتركيبها البشري ونفسية الأهالي. لقد أنجزها الخبراء، وكبار المسؤولين

ورد منهم قابله بالبشاشة والقبول، واجبر خواطرهم بالإكرام ولين الجانب، فإن جبر القلوب واجب وأحرى إخواننا المسلمين الذين قهرهم العدو واستولى على أملاكهم وبلادهم وفروا بدينهم». (ج 8، ص. 198).

ولقيت فكرة التضامن المغاربي في أواخر القرن المنصرم أشكالا من التعبير لإثارة الرأي العام ضد فرنسا. يخبرنا القنصل الفرنسي بتطوان في رسالة، وجهها يوم 10 يوليوز 1985 إلى القائم بالأعمال الفرنسية بطنجة، أن الشارع التطواني يردد نشيداً أثار حفيظته، واعتبره تعبئة سياسة ضد دولته. وفيما يلي نص هذا النشيد المغمور الذي عثرت عليه في محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية :

يا لفـــرنسيس أجـــي انقـــول لك
اخـــرج من تونس خيـــــر لك
هذا تركـــــي متحـــــزم لك
ويضربك بالدفونيـــــــــــة
يا سلام سلام علـــى الباداويــــة
يا رايس عشقُ البلــــد بليــــة
سيــد البـــاي قاعـــد متكـــي
ويهـــــدر بالفرنساويــــــة
يا يمـــى عطينـــي نتـــعشى
ما بيـــن المغـــرب والـــعشة
الفـــرنسيس دخـــل بالـــعسة
ويهـــــدر بالعجميـــــــة
يا سلام سلام علـــى الباداويــــة
يا رايس عشق البلــــد بليــــة
يا لالـــة اعطينـــي خروبـــة
نشري حبـــــة نشوبـــــة
الفـــرنسيس دخـــل بالنوبـــة
بالعسكــــــر والجادرميــــة
يا سلام سلام علـــى الباداويــــة
يا رايس عشق البلــــد بليــــة
يا يمـــى اعطينـــي اثميـــن
باش نشري طرف جبـــــن
الفـــرنسيس طلـــع للجبـــل
بالمدفـــــع والطبجيــــــة
يا سلام سلام علـــى الباداويــــة
يا رايس عشق البلــــد بليــــة

العسكريين، والمخبرون، والعملاء، وصفوة العلماء كروبر مونطاني Robert Montagne، ولبفي بروفنصال Lévi - Provençal، ولويس ماسنيون Louis Massignon، وميشو بيلير Michaux - Bellaire. كانت الأجهزة الفررنسية تستنير بها، سيما والبلاد كانت تخوض حربا شعبية، وكان المحتل، بالتالي، يقظا لما يجري حوله.

ومنذ الثلاثينات، نجد التقارير المطولة ــ التي تقدم وجهة النظر الفرنسية ــ تنطوي على معلومات مفيدة عن تدخل نيابة الشؤون الأهلية بتطوان في نشاط الأجيال الوطنية التي ظهرت على مسرح الحياة السياسية، وأخذت تنمو بروح فتية وعزيمة قوية. إنها تتعرض لتجربة الوطنية الحربية بالشمال منذ 1936، وتهتم ببرامجها الإصلاحية وصحافتها، وتراقب من كانو أكثرهم عملا وأكبرهم أثرا في معارك النضال السياسي، وترصد أصولهم الطبقية وآراءهم. والواقع، أنها تتمركز حول هدف أساسي هو التعرف على انتماءاتهم، وتطرح جملة من التصورات والتساؤلات تتعلق بحركتهم السياسية باعتبارها واقعا قائما ينبغي الاهتمام به. وهكذا، نجدها تتحدث عن ظروف صعود نجم المرحوم عبد الخالق الطريس، وعلاقة فرانكو بنشأة الأحزاب السياسية في تطوان، مهتمة أتباعها بممالأة فرنسا والتحامل عليها، وقد جعلتهم، خلال الحرب العالمية الثانية، مطية لأهواء أعدائها، فكانت تتهمهم بموالاة الألمان والتعاطف معهم، وارتمائهم في أحضان دول المحور. وهذه التقارير المحورة من طرف موظفين التقطوا معلوماتهم من العملاء والمخبرين تضعهم في مقام الأعداء، بل تعتبرهم عصاة لأنهم أعلنوا مناهضتهم للمصالح الفرنسية، واتخذوا موقفا معاديا للإقامة العامة، ومناوئا لسياستها.

ويستخلص من تقرير بعث به القنصل الفرنسي بتطوان إلى المقيم العام بالرباط في 13 دجنبر 1943 أن الصحف والدوريات العربية التي تكتب عن تعسف سلطات الحماية الفرنسية بالمغرب تصل إلى تطوان عن طريق البريد البريطاني، لذا كانت روح الكراهية للفرنسيين تظهر، ويعلنها الأهالي كلما وجدوا سببا لذلك، مشيرا إلى أن القنصلية البريطانية بنفس المدينة كانت على اتصال بقيادتي حزب الإصلاح الوطني وحزب الوحدة المغربية اللذين رفعا شعارات تبعث الحمية في النفوس، وتثير فيها روح التطلع إلى الحرية وإباء الضيم، فكانت لها اليد الطولى في توجيه الإدارة الجماعية لتجاهر بانتقاداتها لفرنسا وتندد بسياستها.

ومن مطالعة تقارير فرنسية أخرى، نلاحظ أن رجال الحركة الوطنية بالشمال نهضوا في وجه الاحتلال الفرنسي، إذ نجدهم، في الخمسينات، يقتحمون ميدان الكفاح السياسي بروح متحفزة للثورة، فكانوا يمارسون نشاطا فعليا. وفي هذا السياق، تقدم هذه التقارير معلومات دقيقة عن الاتصال المستمر، الذي كان قائما بين وطنيي طنجة وتطوان.

مسألة التربية والتعليم عند الحركة الوطنية في الشمال

عبد العزيز السعود

كان لتعاقب الأحداث الاجتماعية والسياسية وتناقضاتها منذ العقد الثاني من القرن العشرين بمدينة تطوان السمة البارزة في تبلور حركة «نهضوية» مست ميدان التربية والتعليم. لقد كان التعليم الأولي قبل هذه الفترة يعرف بالتدرير، كما كان يعرف في القديم بالتأديب ويقوم به طلبة جلهم من البوادي المجاورة للمدينة. أما تدريس العلوم (من نحو وفقه وأصول) فكان من اختصاص العلماء، وكان محتواه تقليدياً راسخا [1].

ولما كان تحصيل العلوم من أهم الأولويات لدى طبقة النابهين من رجال الوطنية فإنه وقع التفكير في تأسيس جمعية ثقافية برزت إلى حيز الوجود تحت اسم «المجمع العلمي والأدبي المغربي» في أواخر سنة 1916. وقد بين الفصل الأول من نظامها الأساسي هدف الجمعية «... انتشار الحقائق العلمية وتكثير دروس اللغة وغيرها بكل الوسائل الممكنة من مدارس وجرائد ومجلات وإيجاد مكتبة عالية تكون ملجأ لطلاب العلوم» [2].

ولقد كانت الغاية الأساسية هي استغلال هذا الجمع لمنح الحركة الاصلاحية منبراً للتعبير يكون في نفس الوقت لسان حال المجمع المذكور، فتقرر اصدار جريدة «الاصلاح» التي صدر العدد الأول منها في 29 يناير 1917 [3] وكان الاهتمام في هذه السنوات بتنظيم بعثة علمية إلى فاس، فتألفت بعثة هي أولى البعثات من تطوان نحو فاس بعد الاحتلال الأجنبي، وكان جامع القرويين في هذه الأثناء يعج بالطلبة ويصطخب من أثر التطور والانقلاب الذي يحدث في شبه الجزيرة العربية من جراء انتصار الحركة الوهابية، وفي نفس الوقت كانت الحركة الوطنية المصرية بقيادة سعد زغلول قد بلغت أعلى درجاتها فكانت الصحف والأخبار ترد على المغرب بهاتين الحركتين المصطخبتين في المشرق [4].

ولما تبين للجماعة المستنيرة بالمنطقة عدم جدوى الاستمرار في المقاومة المسلحة بعد فشلها وتغلب عمليات الاحتلال العسكري، وتبين كذلك ان المقاومة السياسية التي بدأت إرهاصاتها تلوح في الأفق تتطلب وجود رأي عام مساند وأطر قادرة على التوعية والتعبئة الجماعية والتسيير المنظم والتيقين من

---

1 . احمد الرهوني «عمدة الراوين في تاريخ تطاوين» مخطوط بالمكتبة العامة بتطوان ج 1 ص 729
2 . محمد بن عزوز حكيم «اب الحركة الوطنية المغربية الحاج عبد السلام بنونة» الرباط 1978 ج 1 ص 147
3 . نفس المصدر ص 175
4 . التهامي الوزاني «الزاوية» مطبعة الريف. تطوان 1942 ص 131.

ان مفتاح هذه الحركة سيكون لا شك هو التعليم، ومن ثم ستحتل مسألة التربية والتعليم مركزاً محورياً في فكر رجالات الحركة الوطنية بالمنطقة.

وكان جل الوطنيين الأول من المخضرمين ممن عاشوا في العهد الذي سبق وقوع الحماية الأجنبية ثم شاهدوا بلدهم وهو يخضع للاستعمار، فأقبلوا على هذا الميدان وهم يدركون بأنهم يقومون بعمل مرادف للمقاومة العسكرية، ذلك ان المغاربة رأوا كيف وقعت هزيمة حركة محمد بن عبد الكريم وشعروا بالنقص في الرجال المكونين والمسلمين بتربية وطنية متينة، فكان تهييء واعداد رجال يتحملون العبء الوطني. والواقع ان ما كانت تحتاجه تطوان ومعها باقي المنطقة الخليفية إنما هو عهد من التربية الوطنية الحقيقية، وعلى ضوء هذه المسألة يجب النظر إلى كل قضية اجتماعية أو سياسية، فإذا كانت سلطة الحماية تساعد على تحقيق ذلك فيجب تحمله، اذليس هناك من سبيل سياسي محض إلى النضوج السياسي والاستقلال الفعلي، فالتربية سلاح فعّال في تمثيل الأهداف السياسية إلى واقع عملي وممارسة فعلية. ومكانة التربية واهميتها في التوجيه السياسي في المسائل المهمة التي دفعت سلطات الحماية إلى السيطرة على ادارة التربية والتعليم ورسم خطوطها بما لا يتعارض مع مصالحها.

لأجل ذلك ارتبطت قضية التربية والتعليم بالعمل الوطني السياسي عند رجال الحركة الوطنية في تطوان ارتباطاً وثيقاً حرصاً منهم على تكوين جيل سيقوم بناؤه على الحفاظ على مقوماته الثقافية ونسيجه القومي.

ولقد كان لدعوات الاصلاح السلفية تأثير ملموس في تقدم هذه الحركة وتطورها، وهذا ليس بالأمر الغريب، فالفئة المستنيرة من الجماعة الوطنية كانت تقتبس الافكار النيّرة والمبادىء من مطالعة ما يكتبه المصلحون والسياسيون في المشرق العربي. وكان من المألوف في مدرسة الشيخ محمد عبده القول بأن الوسيلة الفعّالة الوحيدة للنضج القومي والاستقلال الحقيقي إنما هي التربية [5] ولهذا خصص معظم للتربية الوطنية وللاصلاح كما كان يفهمه.

وكانت دعوة مجلة «المنار» التي حلت محل «العروةالوثقى» في التجديد نحو إصلاح إسلامي بجميع أنواعه، ولا سيما الديني بإصلاح التربية والتعليم [6].

وكان شكيب أرسلان وهو أبرز مرشدي الحركة الوطنية بالمغرب يرى أن الأزمة الحقيقية الحاضرة في الاسلام هي أزمة التعليم، ولقد أجمل أسباب التخلف الاجتماعي عند العرب والمسلمين في كتابه «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ؟» فاعتبر الجهل والعلم الناقص أشد خطراً من الجهل البسيط [7].

وهكذا اقترن سبيل النهوض بأحوال هذه الأمة عند الجماعة الوطنية بالتعليم فيقول الأستاذ عبد الخالق الطريس «قلنا دائماً إن التعليم وحده هو الكفيل بإصلاح حال هذه الأمة، ولقد برهنت الأيام على

5 . البرت حوراني «الفكر العربي في عصر النهضة» (1798 — 1939) بيروت ط 3 سنة 1977 ص 222.
6•. انظر مجلة «المنار» العدد الأول بتاريخ 22 شوال 1315 هـ موافق 15 مارس 1898.
7 . شكيب أرسلان «لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ؟ «الطبعة الثالثة القاهرة 1358 هـ ص 58.

أن العمل الذي قمنا به من أجل انتشار المعرفة ساعدنا بشكل فعّال على بث روح الوطنية بين الجماهير» [8] وهكذا لم تتردد الجماعة الوطنية في الاقتناع بأنه يجب البدء بتعليم الأمة وتربيتها، وآنذاك فقط يمكن التفكير في وسائل النضال السياسي. فإبراز دور التعليم ومنحه الأولوية والأهمية هو خاصية جديدة يقدمها مشروع الكتلة الوطنية الاصلاحي الشامل. وفي هذا المعنى كتب المرحوم عبد السلام بنونة إلى والده الطيب عام 1930 «اعلم يا بني ان التعليم هو أساس الإصلاح فعندما تنعدم المعرفة تنعدم معها جميع وسائل الاصلاح» [9].

وبذلك ستفتح الجماعة الوطنية آفاقاً جديدة في وجه الناشئة المغربية، وتمثلت تجليات هذا التفتح في إنشاء المدرسة الأهلية ــ ارسال البعثات الطلابية إلى المشرق ــ تأسيس المعهد الحر.

المدرسـة الأهليـة.

نشأ التعليم الحر الأهلي كبديل وطني للتعليم الرسمي، ولم يكن الأمر قاصراً على المغرب فحسب، فالشيخ محمد عبده إقتنع ــ وهو في باريس ــ بأن معركة التعليم معركة أساسية، وكان يرى أن المسلمين لا ينقصهم الرجال ولا العلم ولا المال، وإنما تنقصهم التربية ومناهج التعليم المنقولة من الغرب لا توصل إلى هذه الغاية أي تلقين التربية المتينة. ومن هذا المنطلق اقتبس الوطنيون فكرة التعليم الحر. فجاءت فكرة إنشاء المدرسة الأهلية كتعبير عن نضج الوعي القومي لدى جماعة من الوطنيين، وعن رغبتهم في التحرر في صورة مقاومة «الرجعية»وأثرها في الأفكار والعقول، فهي أول مدرسة تحطمت فيها القيود واستطاع فيها التلميذ أن يجلس مطلق اليدين يكتب في الدفتر [10]. وأول مدرسة عربية إسلامية حرة أسست بشمال المغرب في عهد الحماية في أوائل عام 1925، وهي أيضاً بدون شك الأولى في استعمال الكتب المدرسية التي جلبها من المشرق المرحوم الأستاذ محمد داود وهو من أبرز مؤسسيها وأول من تولى ادارتها والتدريس بها والذي اكتسب بذلك بحق لقب رائد التربية والتعليم الحديث بالمنطقة، كما كان المنهج التربوي والتعليمي وجدول الحصص وتوزيعها مستوحى من النظام المتبع في المشرق العربي، فكانت بذلك كواجهة نضالية وتبين ان المسألة التعليمية أساسية وسياسية، وكان ذلك دليلا على انفراد الحركة الوطنية في الشمال بميزة الاتجاه العملي في تخطيط المهام [11]. فشكلت النواة الأولى للحركة العلمية الحديثة بتطوان وبداية الانطلاقة الأولى للحركة الوطنية بهذه المدينة، فتلامذتها هم مؤسسو حزب الاصلاح الوطني وقادته؛ فقد كان ضمن الفوج الأول الذي التحق بصفوفها عند اِفتتاحها عبد الخالق الطريس ومحمد الخطيب و ، وبذلك فإن إنشاءها يعد بحق من أهم المراحل في تاريخ الوطنية بالشمال، ولم تشأ ادارة الحماية أن تعترف بوجود هذا النوع من التعليم العربي ومنحه الصبغة القانونية رغم مجهودات بعض الوطنيين، فالظهير الخليفي الذي صدر في يناير 1927 والخاص بتنظيم التعليم الحر لم يشمل التعليم العربي بل اقتصر على التعليم الاسباني فقط [12]. ولعل هذا الموقف السلبي للادارة من

---

8 . ابن عزوز حكيم «اب الحركة الوطنية ..» ص 141.

9 . نفس المصدر والصفحة.

10. التهامي الوزاني «المقاومة المسلحة والحركة الوطنية في شمال المغرب» مطبعة الساحل، الرباط 1980 ص 110

11. نفس المصدر ص 116.

12. ابن عزوز حكيم «اب الحركة الوطنية المغربية...» ص 248.

المدرسة الأهلية ومستقبل تلامذتها المظلم وشهاداتها غير المعتبرة جعل الطريس لا يعطيها القيمة التي كان يريد أن يجعل لها [13].

ارسال البعثات الطلابية إلى المشرق العربي

طرحت مسألة التعليم الوطني الحر على المستوى العلمي مشكلة ندرة الكتب التعليمية التي كان يجلب جلها من مصر ولبنان وسوريا قبل بزوغ المطبعة «الوطنية» بالاضافة إلى ذلك النقص في أطر التدريس. فالتعليم الثانوي لن يتأسس إلا بعد إيجاد الأساتذة المقتدرين لتكوين حاملي شهادة التعليم الابتدائي من المدرسة الأهلية، وكان الاقتناع بأن الدراسة في القرويين لا تتوفر على الشروط الكفيلة بتمكين الشباب المغربي من تعليم عصري مساير للوقت الراهن لما ينقصها عن منهج تعليمي قائم على هذا الأساس، فكان التفكير في إرسال شباب إلى الشرق العربي للتعليم، فاتجهت أول بعثة طلابية إلى مدرسة النجاح بنابلس سنة 1928 وذهب البعض إلى القاهرة لاستكمال دراستهم.

وقد تأثر أفراد هذه البعثات بالجو القومي والثوري الذي كان سائداً بالمشرق العربي حينذاك والذي ترك بصماته واضحة في أذهان كثير من الناس، فتلك الأجواء الثقافية والسياسية المائجة ببلاد الشرق هيأت للطلبة المغاربة الموجودين هناك أفقا أوسع مما كانوا فيه، فكانت هذه البعثات بذلك نواة للحركة الفكرية والسياسية الوطنية لدى عودتها إلى موطنها، فمنها من ولج ميدان التربية والتعليم، ومنها من دخل حقل السياسة والفئة الأولى التي ستأخذ على عاتقها مهمة النهوض بالتربية والتعليم مكملة بذلك عمل الفئة الثانية في ميدان المطالبة بالاصلاح الاجتماعي والسياسي.

مؤسسة المعهد الحر

كان من بين أفراد الجماعة الوطنية رجال علم وفكر ودعاة للتجديد ومسايرة العصر، قد تعثرت جهودهم في سبيل تطوير التعليم الابتدائي وتكوين التعليم الثانوي والعالي، فراحوا يرسلون البعثات إلى الخارج، ولكن الدراسة في الخارج آنذاك كانت تكلف تضحيات وأتعاباً وامكانات لا يقدرون عليها. ثم إن البعثات لا يمكن الاعتماد عليها وحدها في تكوين أبناء الأمة، فبدأت الرغبة في إحداث مؤسسة للتعليم الثانوي تتبلور لدى أفراد الكتلة الوطنية منذ سنة 1934 خصوصاً بعد أن توفرت النواة الأولى لأطر التدريس بعد عودة البعثات من المشرق العربي. وتبلورت الفكرة في تشكيل «لجنة التعليم الخاص» تقوم بمهمة جمع المال للتعليم نشرت بياناً في جريدة «الحياة» [14] تحت عنوان «الاهتمام بالتعليم الخاص» جاء فيه : «ليست حالة التعليم في هذه البلاد حالة يسر بها أو يطمأن إليها، فإذا راعينا قلة المدارس وفساد البرامج وكثرة الأطفال الذين يتجولون في الشوارع من غير أن يجدوا مكاناً يهرعون له لتتربى فيه أرواحهم تربية صالحة تجعلهم عنصراً نافعاً للدين والبلاد، تجدان الاهتمام بالتعليم الخاص الذي يقوم على أكتاف الشعب شيء أساسي لا محيد عنه لبلادنا... إن الشعب الذي يريد لنفسه الحياة والسيادة يعتمد

---

13. التهامي الوزاني «المقاومة المسلحة والحركة الوطنية في شمال المغرب» ص 110.
14. انظر جريدة «الحياة» لسان حال الكتلة الوطنية ع 12 السنة 1 ماي 1934.

قبل كل شيء على نفسه، ولا يستطيع ان يرى ناحية ضعيفة فيه دون أن يقوم لتقويتها، وأي ناحية أضعف في بلادنا اليوم من التعليم ؟ إننا مفرطون في أقوى أساس تبنى عليه صروح النهضة، وإن استمررنا في تفريطنا فسوف لا ننجح في أي مسعى وأية غاية نقصدها، فواجب المعرفة اليوم أكبر من كل واجب، ومسؤولية إهماله أقسى من كل مسؤولية..».

وكانت حقيقة مرة أمام الجماعة الوطنية، وهي ان التضحية المادية في الأوساط البرجوازية لا تزال ضعيفة لم تشجع النهوض بالمشروع [15] وبالرغم من ذلك فقد قررت الجماعة الوطنية إنشاء تعليم يكون ثانوياً في بعض مواده وجامعياً في مواده الأخرى. فتم تأسيس المعهد الحر وتكوينه منذ نوفمبر 1935، وانضم إلى صفوفه مجموعة من الشباب الناهض وأساتذة تلقى جلهم دراسة في المشرق، فاعتبر بذلك من البعثة الأولى التي تلقى أفرادها دراستهم في مدارس التعليم الحديثة [16] وكان الأستاذ عبد الخالق الطريس هو المؤسس المدير لهذا المعهد.

وكان نجاح الحركة الاسبانية الفرانكوية التي قامت سنة 1936 قد دفعها إلى محاولة التقرب من الحركة الوطنية لأسباب منها انها ظلت معزولة دولياً، وقد استغلت هذه الأخيرة الفرصة فطلبت ادارة المعهد الحر من الحكومة تسليمها أهم بناية جديدة شيدتها للتعليم الحر لجعلها مركزاً للمعهد.

والواقع ان تأسيس المعهد الحر لم يمكن التفكير من خلاله الوصول إلى التعليم الثانوي (*) بقدر ما كانت النية في خلق جيل من الشباب المفعم بالروح الوطنية، وعلى هذا الأساس وضع برنامجه الدراسي، وكان ذلك هو حجر الزاوية التي جعلت أساساً للمشروع.

ولقد أدرك الاستعمار فاعلية التعليم في تدعيم الوحدة الوطنية، وأن هذه الوحدة تيسر جمع الجهود لتحقيق الاصلاح والكفاح في سبيل الاستقلال وإن آجلاً، ومن تم عمل على استغلال بعض الوطنيين في محاولة ابراز اهتمام الادارة بإصلاح التعليم بالمنطقة، ففي سنة 1929 طلب المقيم العام لإسبانيا من عبد السلام بنونة إعطاء رأيه في مسألة التعليم، فوضع هذا الأخير شبه مشروع يتضمن الخطوط العامة لانشاء كلية عربية عصرية بتطوان؛ ومن أبرز نقط هذا المشروع [17].

— جعل اللغة العربية هي أساس التعليم فيها.
— يختص القسم الأول من الكلية بالباكالوريا العربية على شكل الذي يوجد عليه التعليم الثانوي بمعاهد مصر وسوريا.
— تكون الدراسة في الأقسام المتخصصة ثلاث سنوات للحصول على الدبلوم العالي.
— إنشاء الشهادات الخاصة بكل قسم وإصدار ظهير تحدد بمقتضاه الوظائف والمهن الحرة التي يمكن لحاملي تلك الشهادات مزاولتها.

---

15. الطيب بنونة «كيف نشأ المعهد الحر ؟ سلسلة رجالات المعهد الحر. المطبعة المهدية تطوان ص 16.
16. أمين الريحاني «المغرب الأقصى» مؤسسة دار الريحاني بيروت الطبعة الثانية 1975 ص 194.
*. انظر الحوار الذي أجريناه مع الأستاذ محمد عزيمان حول الحركة التعليمية بتطوان قبل الاستقلال «الملحق الثقافي» لجريدة الاتحاد الاشتراكي. عدد 148 بتاريخ 1986.9.21.

- التعاقد مع أساتذة من لبنان وسوريا ومصر يعتمد عليهم في وضع المناهج النهائية وفي صيف 1930 وضع بنونة مذكرة جديدة مقدمها للمقيم العام احتوت خلاصة أفكاره حول مسألة التعليم بالمنطقة الخاضعة للحماية الاسبانية اشتملت على 23 نقطة من بينها [18].
- اعداد مخطط يهدف إلى بناء المدارس الابتدائية ومعاهد التعليم الثانوي في جميع مدن المنطقة وفي المراكز بالبادية.
- ازدواجية برامج التعليم.
- الاعتراف بالشهادة الابتدائية التي تمنحها المدرسة الأهلية
- تنظيم التعليم الاسلامي على أسس عصرية، وإنشاء ادارة رسمية مكلفة به وبالتعليم الاسباني العربي.
- منح إعانة خاصة للمدارس الحرة الموجودة بالمنطقة.

وكان الأستاذ عبد الخالق الطريس وقد كلف من بعض الدوائر العليا بالقاء محاضرة حول قضية التعليم وقد حالت أسباب دون إلقائها، ونشرتها جريدة «الحياة» وهي عبارة عن تقرير جامع لوضعية التعليم بالمنطقة [19] يحتوي على مشروع «إصلاح» للتعليم كما تراه الكتلة وملخصه :

- إن أمكنه تعليم الكتاتيب لا يتوفر فيها شرط من الشروط الصحية، وعلاج ذلك يكمن في الاصلاح التقني أي بتوسيع الأمكنة ودخول الهواء والشمس وتحديد عدد التلاميذ ثم الكشف الطبي.
- التعليم الاسباني العربي لم يتهيأ له لا البرنامج ولا الأستاذ ولا التلميذ. وإصلاحه مرهون برفع درجته من التعليم الأولي، وجعل الكتاتيب تقوم مقامه في ذلك ويخصص هو للدراسة الثانوية.
- إن دروس التعليم الديني في انحطاط مستمر، وعدم الاطمئنان على المستقبل بواسطتها ترك الناس لا يقبلون عليها حتى تكاد تتعطل كثير من الوظائف الشرعية والدينية فالواجب يقضي تنظيم هذا التعليم على طريقة حديثة يتبع فيها الأزهر أو الزيتونة.
- التعليم الأهلي يعاني نقصاً كبيراً، فبرنامجه غير تام ومواده قليلة وشهاداته غير معتبرة وقبل ذلك جاءت وثيقة «مطالب الأمة المغربية» [20] التي قدمتها الهيئة الوطنية في شمال المغرب إلى رئيس الجمهورية الاسبانية بمدريد في يونيو 1931 لتطرح المسألة التعليمية إلى جانب مطالب أخرى حول الصحافة والممارسة الديمقراطية جاء فيها : «إننا نسجل هنا بمداد الأسف كون الحكومة السابقة لم تبد أي اهتمام بتعليم الأهالي كما يجب، فقد مضى على الحماية ما يقرب من عشرين سنة لم تفتح في خلالها مدرسة ابتدائية خاصة بالأهالي مبينة على ثقافتهم الخاصة ولغتهم العزيزة فلذلك نطلب من الحكومة الجمهورية المنصفة فتح مدارس ابتدائية في المدن والقرى ومدارس ثانوية في أهم المراكز ويكون نظام التعليم على أساس اللغة العربية وثقافتها مع اللغة الاسبانية

---

17. ابن عزوز حكيم ص 344.
18. نفس المصدر ص 395.
19. انظر جريدة «الحياة» عدد 1 السنة الأولى 1 مارس 1934.
20. محمد بن عزوز حكيم «وثائق تشهد» مطبعة الساحل الرباط 1980 ص 14.

وآدابها. كما نطلب فتح مدارس صناعية وفلاحية عصرية وإرسال بعثات العلوم في المدارس العليا الاسبانية...»

وهكذا اِنتبه رواد الحركة الوطنية الاصلاحية باكراً ـــ كما رأينا ـــ إلى أهمية إصلاح التعليم فطرحوا ضرورة إصلاح الكتاتيب والمعاهد الدينية والتعليم الأهلي في إطار «مشروع تعليمي» قومي وقعت الاشارة إليه ضمنيا أحياناً وصراحة أخرى في وثيقة «مطالب الأمة» وفي التقريرين السالفين وكمحاولة لاظهار رغبة الحكومة في إصلاح التعليم نشرت الجريدة الرسمية للمنطقة الخليفية (31 أكتوبر 1934) ظهيراً خليفياً بتأسيس «مجلس استشاري أعلى للتعليم الاسلامي» كانت له مهمة عامة ودائمة لكن تبين مع مرور الوقت ان مجهودات تلك اللجان كانت تضيع سدى، فلم يكن من غرض الحكومة ان تفصل شيئاً. وبعد حدوث تحول على الساحة السياسية باسبانيا حاولت ادارة الحماية ـــ كما أسلفنا ـــ ارضاء عواطف الكتلة الوطنية بتسهيل بعض المطالب التعليمية، فعين المرحوم محمد داود مفتشا للتعليم الاسلامي، لكنه اِستعفي من منصبه بسبب الخلاف في وجهة النظر بينه وبين الادارة الاستعمارية ولعل هذا الانسحاب يفسر موقف الفقيه داود من سلطة الحماية وعزوفه عن الدخول في مغامرة مع الحركة الفرنكوية التي كانت مرفوضة على الصعيد الدولي.

والخلاصة، فإن الطريقة التي طرحت بها المسألة التعليمية ـــ فيما ذكر ـــ تثير لدينا بعض الملاحظات كالتالي :

- أساسية المسألة التعليمية بالنسبة للمسألة المحورية، أي الاصلاح الشامل.
- التركيز على التعليم الأهلي (الوطني) والتعليم الإسلامي، وهذا أمر مقبول بالنسبة للظرفية التاريخية التي طرحت فيها هذه المسألة.
- معارضة واقع الحماية في يخص ميدان التعليم بمطالب ذات بعد قومي؛ تعليم عربي وإسلامي تتنافى أهدافه مع نظرية الإدارة.

فما هو الإطار الذي تم فيه طرح هذه المطالب وهل عمل من أجل تحقيقها ؟

إن العمل السياسي للحركة الوطنية بتطوان كمحور حول المطالبة بالاصلاح الشامل، وهو الميدان الذي وقعت فيه المجابهة بين الوطنيين وإدارة الحماية، وفي إطاره طرحت مسألة التعليم كأولوية باعتبار ان التعليم هو أساس الاصلاح. فكان الموقف الاصلاحي دفاعياً بكل ما يحمله ذلك من معنى نفسي واجتماعي وتاريخي، وتفسره النظرة إلى التعليم كمفتاح للحركة الوطنية يمنحها القوة بشكل تلقائي.

وإذا كان الوطنيون لم يتناولوا المسألة بالتحليل ضمن عملية تفكيرية شاملة، فإن عملهم في هذا الميدان لم يخضع لمنطق رد الفعل أكثر من الفعل كما قد ينطبق على موقف الكتلة الوطنية في الجنوب [21] لقد تساهلت ادارة الحماية بالمنطقة الخليفية مع رجالات الحركة الوطنية فيما يخص المطالب التعليمية لأسباب سياسية ظرفية، ويمكن بذلك اعتبار ان عمل الوطنيين في هذا الميدان كان

21. عثمان أشقرى «الفكر الاصلاحي الوطني والمسألة التعليمية...» مجلة المشروع عدد 7 ـــ 8 سنة 1986.

فعّالاً. فبالرغم من انقسام الحركة الوطنية في الشمال على نفسها، فإن التنافس في الميدان السياسي تكرس في الواقع في إطار العمل التعليمي، فإلى جانب مؤسسة المعهد الحر، أسس الشيخ محمد المكي الناصري ــ زعيم حزب الوحدة المغربية آنذاك ــ معهد مولاي المهدي، وتمثل التنافس أيضاً في مستوى ارسال البعثات الطلابية إلى المشرق العربي، فهذا التنافس وإن كان وليد صراع سياسي فإنه كانت له نتائج إيجابية في الميدان التعليمي والثقافي بالمنطقة. لقد أثار هذا الفعل رد فعل الحكومة فأنشأت المعهد الرسمي (**) في الاربعينات، لكن هذا العمل استفاد منه الوطنيون وعملوا على استقطابه واستغلاله لتثبيت مناهجهم التربوية والتعليمية.

ونعود إلى التساؤل عن ماذا حققته الحركة الوطنية بالشمال في هذا الميدان ؟
لا نشك في ان الافكار الاصلاحية فتحت آفاقا واسعة لقيام «نهضة» تعليمية، لقد فككت هذه الأفكار البنية التعليمية التقليدية السائدة، وفتحت الطريق أمام تحرر التربية والتعليم.

وطرحت «المشروع ــ البديل» ولو بصورة غير مقنعة، وأهمية دورها أنها أسهمت في خلق مدرسة وطنية وأوجدت بالمنطقة نواة قائمة الذات بمدارسها وأطرها المتعددة، إلا أن أهم شيء امتازت به هو توجُّهها نحو التعريب والمحافظة على الشخصية القومية في التعليم.
فهل يمكن لهاته الحركة أن تحدث أكثر من ذلك ؟

**. انظر الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي عدد 148.

الأستاذ محمد داود في ميدان التربية والتعليم

محمد عزيمان

جعل اتحاد كتاب المغرب موضوع هذه الندوة :

«الفقيه محمد داود : الحركة الوطنية في الشمال والمسألة الثقافية» والواقع أن الحركة الوطنية في المغرب لا فرق في ذلك بين الشمال والجنوب أرتبطت ارتباطاً وثيقا بالمسألة الثقافية، ولا يرجع ذلك إلى بداية الحركة الوطنية السياسية بعد سنة 1930، وإنما يرجع إلى بداية الوعي الوطني منذ احتلال الجزائر، وهزيمة إسلي، وحرب تطوان، والإحساس بالخطر الذي يهدّد المغرب، فقد أحس المفكرون بأن حالة الجهل والأمية والتخلف الفكري والاجتماعي التي كان يعاني منها المغرب من أكبر أسباب ضعفه العسكري والسياسي وعجزه عن مقاومة المطامع والأخطار التي كانت تحدق به من كل جانب ووقعت المطالبة بنشر التعليم، وأرسلت البعثات إلى أوربا في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن، وفي عهد مولاي الحسن الأول — ولكن هذه الحركة أجهضت ولم تحقق ما كان مؤملا منها وانهزم المغرب أمام المطامع الاستعمارية وفرضت عليه الحماية.

وقامت المقاومة المسلحة في الشمال والجنوب لمدّة تزيد على العشرين سنة، وانتهت بتغلب الجيوش الاستعمارية المتفوقة في عددها وعدتها وتنظيمها ومواردها المالية، وازداد اقتناع المغاربة والنخبة المفكرة بصفة خاصة ب
فارق الحضاري بين ما وصلت إليه الدول الأوربية من تقدم في العلم والصناعة والاقتصاد وتنظيم الدولة وبين ما عليه المغرب من تخلف في هذه الميادين.

ومن هنا ارتبطت الحركة الوطنية بالمسألة الثقافية واعتبر نشر التعليم ونشر الوعي عن طريق المدرسة والجريدة والكتاب والمحاضرة والجمعية الأدبية والفرقة التمثيلية والفرقة الرياضية ركنا أساسيا من الأركان التي تقوم عليها الحركة الوطنية.

والفقيه داود نموذج لهذا الارتباط المتين بين الحركة الوطنية والمسألة الثقافية — فهو رائد من رواد الحركة الوطنية الأوائل — وهو أحد رجال الحركة السلفية — وهو رائد في ميدان التربية والتعليم — وهو رائد في ميدان الصحافة — وهو علم من أعلام المؤرخين المغاربة.

ومجال الحديث عن كل جانب من جوانب الأستاذ داود مجال واسع. وقد تعرض الاساتذة المشاركون في هذه الندوة وسيتعرضون لجوانب مختلفة من شخصية الأستاذ داود وعلاقته بالحركة الوطنية وبالمسألة الثقافية.

وسأقتصر في تدخلي هذا على جانب من جوانب شخصية الأستاذ داود وهو الجانب المتعلق بالدور الذي قام به في ميدان التربية والتعليم.

ولد الأستاذ داود فاتح أبريل 1901 من أسرة تطوانية كريمة معروفة بالتديّن والاستقامة، وتلقى تعليمه كما يتلقاه أمثاله في ذلك الوقت فحفظ القرآن الكريم ودرس مبادئ العلوم العربية والاسلامية بتطوان ثم رحل إلى القرويين بفاس سنة 1920 وأخذ عن أكابر علمائها ثم رجع لتطوان فاشتغل بالتدريس والعدالة ــ وإلى هُنا والأمر عادي، وشأن الأستاذ داود كشأن أقرانه من طلاب تطوان الذين كانوا يرحلون لإتمام دراستهم في القرويين ويعودون إلى بلدهم للاشتغال بالتدريس والعدالة.

ولكن الأستاذ داود كان مهتما إلى جانب دراسته العلمية بالاطلاع على الأحوال السياسية والاجتماعية في البلاد العربية والاسلامية، فكان على اتصال بصحافة مصر وتونس وبالحركة السلفية حركة جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده. يتتبّع الأحوال السياسية في تركيا وحركة مصطفى كمال وسقوط الخلافة وخيانة الحلفاء للثورة العربية وقيام الثورات الوطنية في مصر بزعامة سعد زعلول وفي الشام وبلاد الدروز، ويتتبع الحركة الفكرية والسياسية في تونس ودور الشيخ عبد العزيز الثعالبي وحركة جمعية العلماء في الجزائر بقيادة الشيخ عبد الحميد بن باديس ويتتبع اخبار الثورة الريفية بقيادة البطل عبد الكريم الخطابي ويراسل جريدة الاهرام المصرية بأخبار الثورة.

وقد أدرك الأستاذ داود أن أهم ميدان يستطيع أن يسهم فيه في خدمة وطنه وفي إعداده للتحرّر من الحكم الأجنبي واسترداد استقلاله ومكانته التاريخية هو ميدان توعية الشعب ونشر التعليم بين أبنائه وإعداد جيل جديد واعٍ بماضيه وتراثه مسلح بسلاح العلم الحديث يستطيع أن ينهض بالبلاد ويأخذ بيدها في عثرتها لتستردّ استقلالها وتسترجع مكانتها.

وكان هذا ما قصد إليه عندما أنشأ مع بعض رفقائه المدرسة الأهلية أول مدرسة عصرية حرة بتطوان سنة 1924.

هذه المدرسة التي كوّن فيها الأستاذ داود جيلا من الشباب سيكون له دوره في تاريخ الحركة الوطنية. ولم يكن عمل الأستاذ داود في المدرسة الأهلية عمل الأستاذ العادي الذي يلقى الدروس ويلقن التلاميذ مبادئ العلم ولكن عمله كان عمل الداعية حامل الرسالة الذي يريد أن يكون جيلا من الشباب يحمل رسالته.

ولم يكن اتصاله بتلاميذه ــ وكنتُ من بينهم ــ مقصورا على اتصاله بهم في فصول الدراسة، بل كان بيته مفتوحا أمامهم لعقد الاجتماعات والاطلاع على الصحف والمجلات التي كانت تصله من تونس ومن الشرق العربي والمذاكرة في الموضوعات التي توجه هؤلاء التلاميذ إلى المقاصد التي يريدها منهم ــ كما كانت مكتبته الخاصة مفتوحة أمامنا نستعير منها ما نشاء بتشجيع وتوجيه منه.

وكان من تلاميذ المدرسة الأهلية الذين تلقوا البذور الأولى للثقافة والوطنية على يد الأستاذ داود تلاميذ أصبح لهم شأنهم ودورهم الكبير في تاريخ الحركة الوطنية مثل الأستاذ الطريس والأستاذ عبد السلام بن جلون والأستاذ الطيب بنونة والأستاذ محمد بن مصطفى افيلال عليهم رحمة الله وقد قضى الأستاذ داود على رأس المدرسة الأهلية نحو اثنتى عشر سنة ثم سلمها لتلاميذه.

وبجانب النشاط التربوي للأستاذ داود أثناء هذه المدة في المدرسة الأهلية وفي الدروس التي كان يلقيها في المساجد، كان قائما في نفس الوقت بالاتصالات مع الشباب الوطني الذي سيتولى زعامة الحركة الوطنية في المغرب، فهو يشترك مع سيدي علال الفاسي وسيدي محمد بن الحسن الوزاني في إعداد القانون الأساسي للحزب الوطني ويشترك في لجنة إعداد المطالب التي قدمت للجمهورية الاسبانية عند قيامها سنة 1931، وينتخب عضوا في أول مجلس بلدي منتخب في تطوان في عهد الجمهورية الاسبانية — ويصدر مجلة السلام أول مجلة ثقافية وطنية في عهد الحماية.

وقامت الحركة الوطنية في اسبانيا بزعامة فرنكو سنة 1936 وحاولت تقديم بعض الترضيات للحركة الوطنية المغربية لضمان الاستقرار في منطقة الحماية الاسبانية أثناء الحرب الأهلية الاسبانية حين أصبحت إسبانيا فرنكو في عزلة دولية حاولت التخفيف منها بالتقرب إلى دول أميركا اللاتينية وإلى الدول العربية وكان لا بُدَّ لها لاكتساب صداقة الدول العربية من القيام بعمل ما في منطقة حمايتها بالمغرب، واستغلّ رجال الحركة الوطنية في الشمال هذه الظروف فتأسس حزب الاصلاح الوطني بزعامة الأستاذ الطريس، وتأسّست حركة الوحدة المغربية برئاسة الشيخ المكي والناصري، وأنشيء المعهد الحر ومعهد مولاي المهدي، وارسلت البعثات العلمية إلى الخارج وتقلّد الأستاذ داود مسؤولية تسيير التعليم الرسمي إذ عُيِّن سنة 1937 مفتشا عاما للتعليم الاسلامي ونائبا لرئيس المجلس الأعلى للتعليم الاسلامي، وكان الرئيس هو الفقيه الحاج أحمد الرهوني.

— وفي سنة 1942 عُين الأستاذ داود مديرا للتعليم وقد قضى الأستاذ داود في الاشراف على التعليم الرسمي فترة حافلة بالمنجزات التي تحققت بجهوده بالتعاون مع رفقائه من أعضاء المجلس الأعلى للتعليم الاسلامي الذي كان يضم نخبة من رجال العلم والثقافة مثل العلامة الحاج أحمد الرهوني والعلامة السيد محمد المرير والعلامة سيد عبد الله كنون والعلامة سيدي التهامي الوزاني والأستاذ الطيب بنونة، وكنتُ أنا الكاتب العام لهذا المجلس كما كنتُ بجانب الأستاذ داود في إدارة التعليم بصفة مفتش.

ومن المنجزات الهامة التي تحققت في الفترة التي أشرف فيها الأستاذ داود على شؤون التعليم : تنظيم التعليم الديني ووضع مناهجه وتقسيمه إلى مراحل ابتدائية وثانوية وعليا وتحديد الكتب الدراسية المقررة لكل مرحلة، واختيار الاساتذة اللازمين للتدريس — وقد قام الأستاذ داود برحلة رسمية إلى مصر للاطلاع على تنظيم التعليم الديني والعصري وجلب المناهج المقررة والكتب الدراسية والمستعملة في مختلف مراحل الدراسة للاستعانة بكل ذلك في تنظيم التعليم المغربي — وفتحت معاهد دينية في تطوان وشفشاون والعرائش والقصر الكبير والحسيمة والناظور. كما فتح معهد ديني في طنجة في الفترة التي كانت فيها أثناء الحرب العالمية الثانية تابعة للمنطقة الشمالية — وفتح المعهد الديني العالي بتطوان سنة 1944 هذا المعهد الذي أخرج نخبة من رجال التعليم والقضاء.

ولأجل أن نضع أنفسنا في الجو الذي بدأت فيه هذه الحركة أستسمحكم في أن أنقل هنا فقرات مما نشرته في جريدة «الوحدة المغربية» بتاريخ 18 أبريل 1937 في وصف الجلسة الأولى التي عقدها المجلس الأعلى للتعليم الاسلامي يوم 10 أبريل 1937، جاء في جريدة الوحدة المغربية :

«على الساعة الرابعة مساء السبت 28 من المحرم عام 1356 عقد المجلس الأعلى للتعليم الاسلامي جلسته الافتتاحية تحت رئاسة رئيس المجلس الفقيه العلامة السيد أحمد الرهوني، وقد تجلّى في هذه الجلسة أن المجلس يقدر المهمة الخطيرة الملقاة على عاتقه تمام التقدير ويرغب رغبة صادقة في القيام بواجبه على أكمل الوجوه ويحسّ احساسا عميقا بحاجة الأمة إلى المعرفة ويريد أن يقدم في أقصر ما يستطاع من الوقت مشاريع عملية ومؤسسات علمية تسدّ حاجتها وتسير بها سيرا طبيعيا ثابتا في طريق التطور والحضارة.

وبعد أن تَمّ التعارف بين أعضاء المجلس وتحدّدت الصفة الرسمية لكل واحد منهم وتقرر أن يعقد المجلس ثلاثة اجتماعات كل أسبوع، ألقى سيادة المفتش العام للتعليم الاسلامي الأستاذ الكبير السيد محمد داود تقريرا عن الرحلة التي قام بها إلى القاهرة موفداً من قبل المخزن لدراسة نظام التعليم في مصر، فبيّن أن الحكومة المصرية قابلته بمنتهى الحفاوة، وقدمت له كل التسهيلات اللازمة ومكّنته من الاتصال بدوائر التعليم ويسّرت له زيارة المدارس على اختلاف أنواعها ودرجاتها، وزودته بكل ما يحتاجه من البرامج والأنظمة وبيّن أنه قام بدراسة وافية لكل ما يتعلق بالتعليم في مصر واصطحب معه نماذج من كافة البرامج والأنظمة التي يسير التعليم المصري عليها فهنّأ المجلس الأستاذ داود بنجاحه في مهمته وشكره على الدراسة القيمة التي قام بها والتي سينتفع بها المجلس انتفاعا كبيرا في تنظيم التعليم المغربي، ثم قرر المجلس أن يبعث رسائل شكر إلى رئيس الوزارة المصرية وإلى وزير المعارف وإلى شيخ الأزهر على الرعاية الكريمة التي أحاطوا بها الأستاذ داود والتي تدل دلالة صادقة على تقدير مصر لهذه الروابط المتينة التي تربطها بالمغرب روابط الدين واللغة والثقافة والجنس.

ثم اشتغل المجلس برسم الخطة العامة لسيره فقرر أن يبدأ أعماله بتنظيم التعليم الديني لأن هذا النوع من التعليم قد وصل الآن إلى حالة يرثى لها من الانحطاط والفوضى، فقد قلّ عدد الدروس التي تُلقى في المساجد وضعفت رغبة الطلبة في العلم، وأصبحت البلاد مهددة بانقراض هذا النوع من التعليم، وأصبح الناس يخشون أن يأتي الوقت الذي لا يجدون فيه من يقوم بوظائف القضاء والإفتاء والعدالة والتدريس وغير ذلك من الوظائف الشرعية التي بها قيام الملة وحياة الشريعة — وقد لاحظ المجلس أن العدة اللازمة للتعليم الديني مُهَيّأة بالفعل. ففي مدرسة لوقش نحو 80 طالبا، وخارج هذه المدرسة نحو 40 طالبا كلهم منخرطون في سلك طلبة العلوم الدينية، وكلهم يتقاضون من الأحباس إعانة شهرية تشجيعا لهم على طلب العلم، ولكنهم جميعا يتخبّطون في عماء هذه الفوضى الشاملة. ثم إن في وزارة الأحباس ميزانية تصرف على المدرسين ليقوموا بالقاء الدروس في المساجد فهذا كله يجب أن يستغل وأن ينظم حتى تنتفع به الأمة، وحتى يؤدى الغايات المقصودة منه — وقد قسم المجلس التعليم الديني إلى ثلاثة أقسام : القسم الابتدائي والقسم الثانوي والقسم العالي. ورأى أن يبدأ بفتح القسمين الابتدائي والثانوي فقط، أمّا العالي فرأى أن يرجئه إلى أن يتم تهيّؤ الطلبة له.

وقدم سيادة المفتش نظام القسم الابتدائي إلى المجلس فدرسه المجلس وناقشه ثم أقره بالإجماع. بما يدل على أن المجلس يتجه اتجاها عمليا، يريد أن يعمل شيئا، أن يُخرج مشاريعه بأقصى ما يستطيع من السرعة إلى حيّز الوجود — وفي جلسة قادمة سيقدم سيادته نظام القسم الثانوي، وسيبدأ تطبيقه مع نظام القسم الابتدائي في وقت قريب جدا.

ودرس المجلس مسألة المدرسين الذين سيقومون بالتدريس في القسمين ووضع مشروعا سيدفع بمقتضاه للمدرسين النظاميين مكافآت كافية تفي بحاجاتهم ويتمكنون معها من الانصراف عن كل الشواغل والتفرغ للتعليم.

وبمجرد انتظام التعليم الديني سيولي المجلس وجهه شطر التعليم الحديث وسيضع نظاما صالحا للتعليم الابتدائي وآخر للتعليم الثانوي، وسيباشر تطبيق النظامين في المدارس الرسمية التابعة له ويؤمل أن تسير عليهما المدارس الحرة أيضا، هذه المدارس التي يقدر المجلس نشاطها ويعرف فضلها وينوي تشجيعها ومساعدتها» انتهى ما جاء في جريدة الوحدة المغربية.

كانت هذه الجلسة الافتتاحية للمجلس الأعلى للتعليم الاسلامي هي البداية المباركة لنشاط مكثّف قام به الأستاذ داود وهو على رأس التعليم الرسمي مع زملائه من أعضاء المجلس في تنظيم التعليم الديني بالأقاليم الشمالية وفتح معاهده الابتدائية ثم الثانوية في مختلف الجهات. ثم بعد ذلك فتح المعهد الديني العالي الذي امتاز بمستواه العلمي العالي وبمن اجتمع فيه من نخبة علماء ذلك الوقت في تطوان وبمن تخرج فيه من رجال التعليم والقضاء.

وهكذا بارك الله تلك البداية المتواضعة وتحولت مع الزمن إلى حركة علمية زاخرة استفادت منها أفواج متتالية من أبناء هذه الاقاليم الشمالية.

هذا في التعليم الديني. أما في التعليم العصري فكان من المنجزات الهامة التي تحققت في الفترة التي أشرف فيها الأستاذ داود على شؤون التعليم خلق المدرسة المغربية — إذ أن المدارس القليلة التي كانت موجودة والتي كانت تسمى المدارس الاسبانية العربية كانت خليطا غير منسجم بين شيء يشبه المسيد أو الكتاب القرآني وشيء يشبه المدرسة الاسبانية في أضعف صورة لها. فتمَّ خلق المدرسة المغربية التي تكوّن التلميذ تكوينا إسلامية عربيا، وتلقنه تاريخ بلاده وجغرافيتها بجانب دراسة المعلومات العامة الابتدائية — ولا بد هنا من الرجوع إلى القرار الهام الذي أصدره المقيم العام بيكبيدر بتاريخ 29 يناير 1937 باقتراح من المجلس الأعلى للتعليم الاسلامي والذي يقضي بخلق المدرسة المغربية وتحويل المدارس الاسبانية العربية إلى مدارس مغربية خالصة، لغة التدريس فيها هي العربية على أن تبقى اللغة الاسبانية مادة من مواد الدراسة.

ووضع المجلس منهاجا للمدارس توجه فيه العناية للتربية الاسلامية واللغة العربية وتربية الطفل المغربي مغربيا في عواطفه ومشاعره معتزا بقوميته ومتمسكا بمشخصاته، مع تلقينه العلوم الحديثة المقررة في مناهج التعليم الابتدائي في العالم بأسره.

وكان خلق المدرسة المغربية يقتضي إعداد المدرس المغربي الكفء والصالح للقيام بمهمته، وإيجاد الكتاب المدرسي المغربي اللازم االمدرسة المغربية — وبذلت جهود في سبيل تحقيق الغايتين.

وفتحت عدة مدارس ابتدائية جديدة في مختلف مدن المنطقة وبعض مراكزها القروية — وفتحت المدارس الابتدائية الرسمية للبنات ثم فتحت مدرسة للمعلمات، ونواة لمدرسة ثانوية للبنات ثم أنشىء التعليم الثانوي العصري المغربي وفتح المعهد الرسمي للدراسة الثانوية بتطوان سنة 1942. وكان الأستاذ داود نفسه من أساتذته مع استمراره في وظيفه كمدير للتعليم وأنشئت البكالوريا المغربية — وفتحت

مدارس المعلمين والمعلمات ـــ وكان الأستاذ داود يرعى هذه الحركة بكل غيرة وحماس. غير أن السياسة التي دخل الاستاذ داود إلى ميدان التعليم الرسمي على أساسها أخذت تتغير وأخذ تدخُل الاسبانيين في الاختصاصات التي كانت لمدير التعليم يزداد يوما بعد يوم، وأخذت العناية بالتعليم المغربي تضعف لصالح التعليم الاسباني المخصص لأبناء الإسبانيين فقدم الأستاذ داود تقريرا شاملا صريحا فضح فيه ما آلت إليه السياسة الاسبانية في ميدان التعليم بعد فترة التعاون المثمر التي آتت أحسن الثمرات ولم يلبث الأستاذ داود بعد ذلك أن استقال من وظيفة مدير التعليم محافظة على كرامته الوطنية والشخصية كما علل سبب استقالته.

وتفرغ لأبحاثه ودراساته التاريخية مع استمراره في التدريس في المعهد الديني العالي إلى أن تحقق الاستقلال فعاد للمشاركة في ميدان التعليم على الصعيد الوطني عن طريق المشاركة في اللجنة الملكية لاصلاح التعليم التي دافع فيها دفاعا حارا عن تعريب التعليم، وعن طريق عضوية المجلس الأعلى للتربية الوطنية مع استمراره في نشاطه العلمي والسياسي والوطني، وأسند إليه جلالة الملك الحسن الثاني الاشراف على خزانته الملكية إلى أن أعجزه المرض فتوقف ذلك النشاط الزاخر.

وفي يوم 4 رمضان 1304 موافق 4 يونيه 1984 أسلم الروح إلى بارئها بعد حياة حافلة بالعمل والانتاج والعطاء أدّى فيها رسالته خير أداء ودخل سجل الخلود في تاريخ النهضة المغربية الحديثة بمنجزاته الكبيرة وآثاره الباقية وشخصيته المتعددة الجوانب التي عقدت هذه الندوة لدرسها وتكريمها ووضعها في المقام الذي تستحقه بين الشخصيات المغربية الخالدة.

الاستـاذ داود وعملـه فـي الحقـل السياسي والميدانين التعليمي والثقافي

عبـد المجيـد بنجلـون

«Une méfiance véritable, non—affectée, contre toutes les forces haumaines dans tous les domaines, est le signe le plus sûr de la puissance d'esprit». lichtenberg. **Aphorismes.** Paris, Denoel, 1985; p 165.

«إن الرمز المؤكد لقوة العقل هو الحذر الحقيقي غير المتصنع اتجاه جميع القوى الانسانية في جميع الميادين».

لشتنبـرغ

من خلال القاء نظرة على مسيرة حياة الأستاذ داود، يتجلى لأول وهلة عامل مدهش، هو عدم انتمائه إلى حزب الاصلاح الوطني، بينما نجد، انه كان أحد مؤسسي الحركة الوطنية في شمال المغرب. وبالفعل، نجد ان استاذنا الجليل الذي قضى حياته في الميدانين الثقافي والتعليمي قد مر بفترة يطبعها نشاط سياسي قوي ومتميز.

لكن روبير ريزيط وصفه (Robert Rézette) «بالوطني المتعقل» (1) (nationaliste assagi) بالعكس، أظن ودون شك، ان الأستاذ داود لم ينفصل عن الحركة الوطنية طوال فترة الحماية، رغم عدم ظهوره الدائم على الساحة السياسية، وسيتضح ذلك جليا من خلال ما سأتعرض إليه في هذه المداخلة التي سترتكز على ثلاثة محاور :

المحور الأول : الأسباب الوطنية العميقة التي جعلته يبدأ حياته العمومية في الميدانين الثقافي والتعليمي ما بين 1920 و1927.

المحور الثاني : التزامه البين في الحقل السياسي ما بين 1928 و 1936.

المحور الثالث : عدم انخراطه في الحركة الوطنية في المغرب الخليفي الذي لا يعني عدم اهتمامه بالقضية القومية في بلاده.

(1) Les partis politiques marocains - Paris, Arnard Colin, 1955; p 156

ــ المحور الأول :

«الاسباب الوطنية العميقة التي جعلت» الاستاذ داود يبدأ حياته العمومية في الميدانين الثقافي والتعليمي ما بين 1920 و 1927.

ــ لقد ولد أستاذ الجيل سنة 1901، وانتقل إلى فاس سنة 1920 لمتابعة دراسته بجامعة القرويين، ولدى عودته إلى تطوان، مارس وظيفة العدالة خلال مدة وجيزة. أنشأ مكتبة تحت إسم رمزي هو «المكتبة الوطنية» وان دل هذا على شيء فانما يدل على انه كان بامكانه السير على هذا النحو طوال حياته، بعيدا عن كل خطر قد ينتج بسبب الالتزام السياسي.

لقد كان بإمكانه ان يعيش في طمأنينة كشأن مجموعة من المثقفين الذين عينوا في وظائف لدى المخزن، لكن استاذنا كان غير ذلك، والحقيقة انه اراد ان يخوض المعركة، والسبب في ذلك بسيط. فخلال مقامه بفاس ادرك ضرورة الالتزام السياسي من أجل معالجة الوضع انذاك، ألا وهو وضعية البلاد تحت نير الاستعمار.

لقد قال لي في هذا الباب :

«في فاس تفتحت عيناي، كانت حركة سعد زغلول في أوجها وكنت أقرأ خطبه، كما كنت أقرأ خطب عبد العزيز الثعاليبي. هاتان الشخصيتان كانتا بالنسبة لي بمثابة ركيزتين للوطنية» (2) لقد ادرك في نفس الوقت ان القومية، حينما تكون غير فطرية، فهي مثل قومية البدو الذين يحملون السلاح ضد المستعمر. إن المشاعر القومية تكتسب مثل ما نتلقاه من مواد مدرسية.

عند عودته إلى تطوان عام 1922 طبق تخطيطه النير بحذق. لقد أولى اهتمامه لمجموعة من الأطفال، وأصبح مربيا لهم على الطريقة التقليدية، فكان يلقنهم دروسا في القومية تحت غطاء تدريسهم مواد مدرسية. لقد قال في هذا الشأن :

«لقد لقنت الوطنية إلى الذين اصبحوا فيما بعد أقطاب حزب الاصلاح الوطني، باستثناء امحمد بنونة وسيدي التهامي الوزاني» (3). وتجاوز الأستاذ داود الاطار الضيق لمدرس خصوصي في القومية، من أجل تلقينها إلى تلاميذ آخرين اذ قرر هو والحاج عبد السلام بنونة تأسيس مدرسة حرة وتحقق ذلك سنة 1924، وكانت هذه المدرسة تسمى «المدرسة الأهلية». لقد كانت مؤسسة عصرية تحتوي على طاولات وكراسي وتجهيزات أخرى باختلاف ما كانت عليه الكتاتيب القرآنية. ونرى ان السبب الرئيسي والحقيقي من انشاء هذه المدرسة في حد ذاته كان سببا وطنيا، فَمِنَ رأيه ان التعليم هو أحسن سلاح ضد الوجود الأجنبي في المغرب.

---

2. انظر كتابي
Approches du colonialisme espagnol et du mouvement nationaliste Marocain dans le Maroc Khalifien — Rabat, Okad, 1989 ص 94

3. نفس المصدر ص. 94

ويجب التذكير أنه بالاضافة إلى الجهود التي كان يبذلها لصالح التعليم الحر في المنطقة، أصبح بكيفية جريئة مراسلا مجهولا لجريدة الاهرام القاهرية أثناء حرب الريف، ومن خلال مقالاته كان يبدي تعاطفه مع محمد بن عبد الكريم الخطابي. ومع نهاية حرب الريف تطور عمله السياسي بشكل أكثر وضوحا دون تخليه عن مهامه في الميدانين الثقافي والتعليمي.

ـ المحور الثاني :

مواصلة وتعزيز عمل الاستاذ داود في الميدان الوطني السياسي ما بين 1927 و 1936.

لقد ادركنا من خلال ما سبق ذكره ان عمل الأستاذ داود في الميدانين الثقافي والتعليمي كان يعكس صورة لروح الوطنية المتينة. خلال هذه الفترة الجديدة من حياته، كان يتحتم عليه مواصلة عمله في الميدانين الثقافي والتعليمي، لكن تطور الاحداث جعلته يسلك النهج السياسي بالاضافة إلى ذلك. فخلال تواجده بفاس اتصل الأستاذ داود بعدد من الشبان الوطنيين الذين اصبحوا فيما بعد من بين أقطاب الحركة الوطنية في المغرب، كما فعل امحمد بنونة أثناء وجوده هو كذلك بفاس.

ومن جهته قام الحاج عبد السلام بنونة باتصالات مع عدد من الوطنيين في بعض الجهات من المغرب.

في أواخر شهر غشت 1926 تأسس بتطوان فرع العصبة المغربية التي كانت تحمل اسما مُسْتَعَاراً هو «انصار الحقيقة». وكانت أول جمعية وطنية مغربية قد تأسست بتاريخ ثاني غشت 1926 بالرباط، وانخرط استاذنا في فرع هذه العصبة بتطوان حيث شغل منصب الكاتب العام فيه، وبتعاون مع الحاج عبد السلام بنونة أسس الأستاذ داود المطبعة المهدية، التي لعبت دورا حاسما فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلْقَوْمِيَّةِ وَٱلثَّقَافِيَةِ فِي ٱلشَّمَالِ، حَيْثُ أَصْدَرَتْ عَدَداً كَبِيراً مِنَ ٱلْكُتُبِ وَٱلْجَرَائِدِ وَٱلْمَجلاتِ ٱلْوَطَنِيَّةِ، وَكَانَتْ هَذِهِ ٱلْمُبَادَرَةُ، عَلَى ٱلرَّغْمِ مِنْ كَوْنِهَا كَانَتْ تَبْدُو عَمَلِيَّةً ثَقَافِيَّةً صِرْفَة، تُعَدُّ وَتُعْتَبَرُ مِنْ أَهَمِّ أَعْمَالِ ٱلْحَرَكَةِ ٱلْوَطَنِيَّةِ بالمنطقة.

وفي عام 1930 اجتمع استاذنا الجليل بفاس مع علال الفاسي ومحمد بن حسن الوزاني بهدف وضع نظام أساسي لهيئة كادت ان تكون حزبا وطنيا [4]. وبدءا من الظهير البربري وأثناء زيارة شكيب

4. تاريخ تطوان الجزء الأول تطوان معهد مولاي الحسن، 1959 ص ب

ارسلان إلى تطوان في شهر غشت 1930، نلاحظ ان الأستاذ داود قد شارك في جميع المبادرات السياسية، إذ كان عضوا في كل الهيئات السياسية التي أسست آنذاك، والتي كانت معروفة في مجملها باسم «الكتلة».

لكن كان هناك حدث تاريخي أظهر بشكل واضح دور الاستاذ في الحركة الوطنية بالمنطقة ويتمثل في إعلان الجمهورية باسبانيا في أبريل 1931، والذي كان ينتظر منه في الضفتين للبوغاز، اصلاحات مطابقة للسياسة الجديدة في اسبانيا. لقد اصبح استاذنا ثوريا إلى حد ما باتخاذه لمبادرات جريئة حيث انه قام بتنظيم مظاهرة عمالية مغربية مع سيدي التهامي الوزاني في رابع ماي 1931، على غرار ما يقوم به الحركيون العماليون. ومن جهة أخرى تقدم الأستاذ داود إلى الانتخابات البلدية بتطوان في شتنبر 1931 ضمن لائحة الوطنيين التي فازت في هذه الانتخابات.

وفي خضم هذه الأحداث لم ينقطع عمل الأستاذ الجليل في الميدان التعليمي، إذ عين عضوا في مجلس التعليم الأعلى نائبا عن مدرسي العلوم العصرية. وقد أنشأ مجلة السلام في فاتح أكتوبر 1933 التي كانت أول مجلة وطنية مغربية تصدر باللغة العربية، وكان له الفضل في بث أفكار قومية في مجلته تحت غطاء مقالات ذات صبغة أدبية، فنية وتاريخية. لكن الحرب الأهلية الاسبانية، ارغمت الأستاذ داود على الابتعاد عن الحركة السياسية العمومية [5].

ــ المحور الثالث :

انسحاب الأستاذ داود في الظاهر من الساحة القومية المغربية العمومية.

بعد مضي أسابيع على اندلاع الحرب الأهلية الاسبانية اتخذ استاذنا الجليل قرارا ليتفادى الوقوع في فخ السياسة الماكرة لبيكبيدر (Beigbeder) الرامية إلى منح بعض التسهيلات والحريات للحركة الوطنية في الشمال، وذلك من أجل مواصلة عملية تجنيد المغاربة «في هدوء» في صفوف الجيش الفرنكوي. لقد ادرك استاذنا ان اي تعامل أو تعاون مع السلطات الفرنكوية ولو من أجل الدفاع عن قضية القومية المغربية ستؤدي به لا محالة إلى شبهات مؤسفة، هكذا رفض جميع العروض المغرية التي قدمها له بيكبيدر (Beigbeder) وبالخصوص توليه ادارة جريدة «الريف» التي أنشئت فيما بعد، كما عرض عليه منحة نقدية تقدر ب 20.000 بسيطة. كما أن الأستاذ داود لم يرد التدخل في النزاع الذي كان من ورائه الاسبان بين الأستاذ عبد الخالق الطريس، والشيخ المكي الناصري، ورفض اقتراح هذا الأخير القاضي

5. ص 14 Approches du colonialisme

بالتعاون معه في تأسيس حزب جديد ورئاسته له، وذلك غداة تأسيس حزب الاصلاح الوطني.

لقد قرر الأستاذ داود عدم المشاركة في تأسيس حزب الاصلاح الوطني وذلك راجع إلى تخوفه من الوقوع في سبيل مذمومة، بينما كان من المفروض عليه قبل اندلاع الحرب الأهلية الاسبانية بشهور المشاركة الفعلية في الحركة الوطنية بالشمال. وبالفعل أسس أستاذنا الجليل في 15 مارس 1936 جريدة جديدة تحت عنوان «الأخبار» لكنها لم تدم طويلا حيث صدر منها خمسة اعداد فقط كان آخرها بتاريخ 12 أبريل 1936 [6].

لقد أبان الأستاذ داود عن تفكيره في شأن الأحزاب السياسية في مقال نشر في جريدة «الريف» بتاريخ 14 يونيو 1940 والذي سنشير إليه فيما بعد لاسباب أخرى.

يقول عن الأحزاب السياسية :

«انني رغما عن احترامي للاحزاب ما رضيت في يوم من الأيام بأن اتقيد برأي أي حزب منها وهي التي تدور مع الأحوال وتتقلب سياستها وصراحتها وتكتمها مع الظروف وتبعا لما تدعو إليه المصالح، ولست سوى فرد من أفراد الشعب الذي لا يتأثر بالأغراض السياسية ولا يشعر إلا بشعوره الطبيعي البعيد عن التصنع والمجاملات والدعايات».

وهناك سبب آخر ادلى إلي به في 28 نوفمبر 1975 عن عدم انخراطه في حزب الاصلاح الوطني : كان من الممكن اتخاذ قرار داخل الحزب مخالفا لرأيه الشخصي الأمر الذي يعتبره مسا بكرامته خصوصا إذا كان القرار قد اتخذ من طرف تلاميذه القدماء.

لكن هل هذا يعني ان الأستاذ داود قرر التخلي عن أي نشاط وطني ؟

لا أظن ذلك.لاسيما وان عدم انخراطه في حزب وطني لا يعني تخليه عن المبادئ الوطنية والقومية، كما ان عدم تعاونه مع السلطات الفرنكاوية كان بليغ الدلالة، وكان صمته ذا معنى، لكنه لم يكن دائم الصمت.

لقد كتب استاذنا الجليل كما اشرنا إلى ذلك سابقا مقالا جريئا في جريدة «الريف» في 14 يونيو 1940، وذلك خلال الأسابيع المشهودة التي انهزمت فيها فرنسا ضد ألمانيا وهذا المقال كان تحت عنوان :

نريد استقلال المغرب

يجب ان توحد البلاد المغربية، وان تكون بها دولة وطنية مستقلة. المغرب كله لنا، والأجانب ضيوف عندنا. نقبل منهم من يحترم شعورنا، ونطرد من يهين كرامتنا.

يقول بالخصوص : «... بصراحة هل ستحل اسبانيا محل فرنسا وتمر على المغرب ثلاثون سنة أخرى دون ان توجد في المغرب حتى مدرسة ابتدائية واحدة منظمة ؟...»

---

6. قال الأستاذ داود في 30 نوفمبر 1977 «قررت ايقاف اصدار الجريدة لأسباب مادية صرفة..».

في نهاية سنة 1975 وبداية سنة 1976 اخبرني أستاذنا الجليل عن مضمون حديث جرى خلال اجتماع انعقد ما قبل تظاهرة سانية الرمل بقليل والواقعة في 21 يناير 1954. كان من بين الحاضرين في هذا الاجتماع المقيم العام، وبعض الوزراء في الحكومة الخليفية وخالد الريسوني. وكانت لاستاذنا الجليل الشجاعة الكافية والجرأة النادرة من نوعها لمغادرة قاعة الاجتماع عند سماعه لتصريح خالد الريسوني الذي يمس بالروح الوطنية.

في الحقيقة لقد رفض أستاذنا الجليل المشاركة في المؤامرة التي كان يخطط لها الاسبان الذين كانت لهم نوايا انفصالية في المغرب الخليفي، هذا الموقف الوطني الغيور للاستاذ داود يتأكد بشكل مشع من خلال وثيقة اسبانية، ويتعلق الأمر برسالة من طوماس كرسيا فيكيراس Tomas Garcia Figueras الذي كان في ذلك الوقت نائبا للشؤون الوطنية، إلى خوسي دياز دي فييكاش (Jose Diaz de Villegas) المدير العام للمغرب والمستعمرات في وزارة الخارجية الاسبانية، في الفاتح من شتنبر 1953.

يقول طوماس كرسيا فكيراس لمراسله :

«... لقد كنت على علم بتصورات الجنرال حول المشكل المطروح [7] والذي تكلم معي في شأنه مرتين، ولقد عبرت له عن رأيي الشخصي في الفقيه داود الذي يعتبر بالنسبة إلي آخر رجل يمكن الاعتماد عليه في شأن ما يريد عمله الخنيراليسيمو (generalisimo). انني متيقين بان داود لن يتعاون معنا ابدا...

ربما سيكون أول من يحاربه [8] بجسارة، وباقل ضجيج من الطريس. وبما انه ليس ماديا ولا يحب الترف والبذخ ولا يريد الحكم فهو غير قابل للارتشاء ولن ننجح أبدا في اخضاعه لتفكيرنا. إنه رجل جد متدين وتعتبر حياته السياسية مثالية، فهو كرس عمله لتكوين الشباب المغربي، بنشر اهداف الوطنية... ومعروف بالتفاني، وأيضا بالانفاق من ماله الخاص. ان مسألة الملك والعرش مسألة جد شائكة وصعبة... وإنه من الخطأ الاعتقاد ان دواد سينساق مع تصورنا...»

«Yo estaba al corriente del pensamiento del General en el asunto en cuestión del que me habló en dos ocasiones y le dije cual es mi opinión personal del alafaquí sidi Mohamed Daud, que es para mi el hombre con quien menos podemos contar para lo que el Generalísimo se propone hacer... Estoy totalmente convencido de que Daud jamás se prestará a colaborar con nosotros... el primero quizas en combatirlo con más denuedo aunque con menos ruidos que Torres... y como ne es materialista, ni ama el lujo, ni desea el mando... resulta un elemento incorruptible y por eso jamás hemos podido reducirlo a nuestra razón.
ES un hombre profundamente religioso, su historial nacionalista es verdadamente

ejemplar, ya que todo cuanto ha hecho por la formación de la juventud marroquí por la difusioón del ideal nacionalista.... lo fue sin desmayo alguno desintere sadamente e incluso poniendo en la obra dinero propio. Tarea dificil y sumamente delicada, come es la cuestión de la monarquía y el Trono... es un error el suponer que Daud pueda prestarse a nuestro juego...».

---

7. يتعلق الأمر بالمؤامرة السالفة الذكر.
8. يتعلق الأمر بالمؤامرة السالفة الذكر.

إن الهدف من سرد هذه السطور من رسالة طوماس كرسيا فيكيراس إلى المدير العام للمغرب والمستعمرات بوزارة الخارجية بمدريد، هو الالحاح على أن ... الأستاذ داود كان وطنيا من أعلى مستوى، ولا يحتاج إلى الانخراط في حزب سياسي ليعرف بالوطني. ومن جهة أخرى فان هذه الحقبة التاريخية الممتدة ما بين 1936 و 1956 والتي من خلالها ابتعد استاذنا الجليل عن العمل القومي العمومي (في الظاهر) هذه الفترة تسجل استمرار عمل الأستاذ داود في الحقل الثقافي والتعليمي، والاجتماعي أيضا، دون تعرض للشبهات من خلال اتصالات مع سلطات الحماية على الرغم من شغله لمناصب رسمية:

فقد تقلد منصب مفتش للتعليم الاسلامي في 7 يناير 1937، وفي 25 فبراير 1939 عين عضوا بمجلس الاحباس، كما عين مديرا للمعارف في 2 فبراير 1942.

الخاتمة : لم ينحرف استاذنا الجليل عن استقامته الوطنية التي جعلته يبتعد عن الخلافات بين الاحزاب الوطنية. قد يقول البعض بانه بقي نظيفا لكونه انفصل عن العمل السياسي الذي يؤدي احيانا إلى الشبهات، وقد يظن البعض بانه لا يمكن اتهامه «بخيانة المثقفين». لانه حسب عبارة جليان بيندا (Julien Benda) لم يخن مهمته [9].

وتنطبق مقولة الفيلسوف شومفور (Chamfort) على استاذنا داود : «ان بعض المزايا المفرطة السمو تجعل أحيانا من المرء إنسانا غير صالح للمجتمع. فنحن لا نذهب إلى السوق بسبيكة ذهبية، ولكن نذهب مصحوبين بالدراهم والقطع النقدية» [10].

«Des qualités trop supérieures rendent souvent un homme moins propre à la société. On ne va pas au marché avec des lingots; on y va avec de l'argent ou de la petite monnaie».

على أية حال يجب الاعتراف بان حياة الأستاذ داود غزيرة بالأعمال الوطنية الجليلة وخصوصا في الميدانين الثقافي والسياسي [11]. فعندما يضع الأستاذ داود نفسه على هامش الوطنية الحزبية فان عمله في الميدانين الثقافي والتعليمي الذي كرس له حياته في الظاهر كان يشكّل في حد ذاته عملا وطنيا.

---

9. لقد أكد جوليان بندا (Julien Benda) بالتحديد حول خيانة المثقفين ما يلي : «الرجال الذين لهم مهام الدفاع عن القيم الابدية النزيهة مثل العدالة والمنطق والدين اسميهم مثقفين، خانوا مهمتهم لصالح اغراض فعلية»
10. ص 105، Maximes, pensées, caractéres et anecdotes. Garnier—Flammarion, 1968
11. ان مداخلتي هاته اكتفت بسرد بعض اعماله المهمة، ولمزيد من المعلومات يمكن الاطلاع على كتابين للاستاذ محمد بن عزوز حكيم :
    1 — وثائق الحركة الوطنية في شمال المغرب
    الجزء الأول تطوان مطابع الشويخ ديسبريس 1980
    2 — وثائق تشهد.الرباط مطبعة الساحل 1980.

الأستـاذ محمـد داود فـي ميـدان التعليـم

حسناء محمد داود

إذا ما أردنا أن نتحدث عند كفاح الأستاذ محمد داود في ميدان التعليم، وعن حبه لمهنة التعليم، وعن منجزاته في حقل التعليم، وعن مجهوداته وتضحياته من أجل إصلاح التعليم... فلا شك أننا سنقف مشدوهين أمام غزارة المادة، ووفرة العطاءات، وكثرة المواقف، التي تشهد بأن الأستاذ داود ـــ عندما توجه لهذا الميدان كوسلية من وسائل البعث القومي، والنهضة الوطنية، والانتفاضة التحررية كان فعلاً تلك الشخصية ذات النظر البعيد، التي تنصب أمام عينيها الهدف السامي، فتصوب نحوه سهمها بثبات، ثم تطلق السهم كي يسير في خط مستقيم قاصداً مرماه دون اعوجاج ولا توقف !

عُرف محمد داود بكونه أستاذ الجيل. وذلك لأنه كان له وزن وأي وزن في هذا المجال، مجال تعليم الشباب المغربي، وجعله يدرك مقومات الشخصية المغربية العربية المسلمة، فيعمل لحفظ هذه الشخصية ورعاية هذه المقوّمات، في فترة عصيبة من فترات تاريخنا الوطني، فترة شاءت الأقدار أن يكون الأمر والنهي فيها بيد المستعمر، وان يكون أبناء الوطن فيها مراقبين من طرف السلطة الحامية، مقيدين في أقوالهم وأفعالهم بقيودها التي تضيق الخناق على كل من رأت فيه بادرة من بوادر اليقظة القومية والشهامة الوطنية.

ونحن إذا ما رجعنا مع أستاذنا الجليل إلى سنوات شبابه، فإننا سنسترجع معه ذكريات ذلك العهد... ذكريات حفظتها لنا مذكراته وأوراقه ودفاتره التي تشهد بأن الخطة التي رسمها لمحاربة المستعمر، والطريقة التي اتخذها المواجهة أعداء الأمة، ولإنقاذ أبنائها من العبودية والتخلف، هي العقول، وإيقاظ الهمم، وتوسيع الآفاق، وبث الحماس في النفوس، حتى تهب وتقف وقفة ملؤها الثبات والثقة بالنفس، معلنة للملأ أنها تأبى الضيم والاستغلال وتتوق لتحقيق حياة العز والحرية والاستقلال.

وذاك هو المخطط، وهذا هو الهدف، وبقيت الوسيلة التي ستؤدي إلى نجاح المخطط وبلوغ الهدف !

هنا بدأت معركة محمد داود الطويلة وكفاحه المستميت من أجل خلق «المدرسة الوطنية» وتكوين الجيل المتحمس الغيور، المتغني بحبّ الوطن ورفعته، والعامل على تحقيق مجده وحريته. فأشهر سلاحه الذي يتمثل في لسانه وقلمه، وفي اتصاله بأساتذته وشيوخه من العلماء الأجلاء، وأصدقائه ورفقائه من الأعيان والوجهاء، كي يعلنوها جميعاً حرباً شعواء ضد كل ما من شأنه أن يقف حجر عثرة في سبيل تحرر هذه البلاد وتقدمها، حرباً «سليمة» تعتمد على الثبات والتعد . واستعمال أساليب الحكمة والتبصر، لإدراك الأمل المنشود وتحقيق الحلم الغالي.

كتب أستاذنا المقالات، ونظم القصائد، وصاغ الخطب، ولحن الأناشيد الحماسية، وأسس الصحف الوطنية، وجال في البلدان واتصل بأكابر الزعماء وعظماء المصلحين، وبذل من جهده الكثير في سبيل إنشاء المؤسسات التي تضمن تحقيق ما كان يتمناه لهذه الأمة... هذا كله إلى جانب ما نحن بصدده، وهو منجزاته في ميدان التعليم، وما حققه من مشاريع في إطار مسؤوليته في إدارة المعارف بهذه المنطقة، حيث أبدى من المواقف ما أكد تشبثه بمبادئه كوطني مخلص لا يهمه في سبيل تحقيق غاياته الوطنية والإصلاحية رأي مراقب ولا معارضة مسؤول ! تلك المواقف التي كان يتخذها — حفاظاً على مبادئه ومثله — والتي كان لها انعكاس واضح في تقدير شخصيته من طرف الصديق والعدو، والاعتراف بعلو همته وخلو صفحته من كل ما يشين سمعته أو يهين كرامته من طرف القريب والبعيد.

وعلى أية حال، فإن مجال الكلام في موضوع المساهمة في العمل الوطني لوالدي الأستاذ داود رحمه الله مجال رحب وفسيح، أتركه الآن لغيري من السادة الأساتذة والباحثين الكرام، ثم لما سيأتي من الأيام بحول الله حيث أطلب من الله أن يعينني على استجلاء كثير من الحقائق في هذا المجال، التي لا تزال اليوم في طي الكتمان.

ورجوعاً إلى سجل المذكريات الشاهدة بجليل الأعمال في الميدان التعليمي على الخصوص، أرى أنه من الضروري أن نتوقف مع أستاذنا في محطات من حياته، ندرك من خلالها مدى احتكاكه بهذا الميدان، ثم نطلع فيها على بعض أفكاره وأقواله ومنجزاته، في إطار منهجيته العاملة على تحطيم قيود الجهل، والأخذ بأسباب العلم، والتشمير عن ساعد الجد والعمل، بوصف هذه الخطوة أول منبه لجأ إليه ليثير اهتمام الشباب والشيوخ إلى أهمية القضية الوطنية التي تستوجب العمل المستمر والكفاح المتواصل، والتي لا يمكن أن يوجد لها حل إلا بواسطة التوعية الكافية والتوجيه السليم.

وبإجراء نظرة خاطفة على الجانب الإيجابي من حياة الأستاذ داود كعنصر مساهم في تطوير وإصلاح التعليم بكيفية فعالة في هذه المنطقة، نجد أنه قد كان له اهتمام خاص بهذا الميدان منذ السنوات الأولى من شبابه :

— فلقد ساهم في تأسيس وإدارة وتسيير المدرسة الأهلية الحرة في عام 1343 هـ — أواخر سنة 1924م.
— وفي عام 1349 هـ — 1930م عين عضواً في لجنة إصلاح التعليم الإسلامي بشمال المغرب، فكان هو الواضع لمشروع الإصلاح والمقرر لهذه اللجنة التي كانت تضم كلا من وزير العدل والقاضي وكبار العلماء.
— وفي عام 1353 هـ — 1934م عين عضواً في المجلس الأعلى للتعليم الإسلامي بشمال المغرب.
— ثم عين في عام 1355 هـ — 1937م مفتشاً عاماً للتعليم الإسلامي بشمال المغرب فأسس أثناء تقلده لهذا المنصب العديد من المعاهد الدينية والمدارس العصرية والقرآنية للبنين والبنات بمختلف المدن والقبائل، كما وضع لتلك المعاهد والمدارس مناهج حديثة على أساس العروبة والإسلام.
— ولقد سمي في الوقت نفسه نائبا لرئيس المجلس الأعلى للتعليم الإسلامي.

- بعد ذلك تم تعيينه مديراً للمعارف بهذه المنطقة، وذلك في عام 1361 هـ. 1942م. فأنجز من الأعمال مالا يسع المجال لذكره في هذه العجالة.
- وبعد إحراز المغرب على استقلاله، أي في عام 1376 هـ ــ 1956م، ثم تعيينه عضواً في اللجنة الملكية لإصلاح التعليم بالمغرب.
- كما عين في عام 1378 هـ ــ 1959م عضواً في المجلس الأعلى للتربية الوطنية بالمملكة المغربية.

وهكذا تكون أول محطة تستوقفنا في حياة الأستاذ داود ــ ونحن نستعرض منجزاته في هذا الميدان أولاً بأول ــ هي التي تتمثل في تلك الخطوة الفعالة في طريق الوصول إلى المقصود، تلك المبادرة الهائلة التي أقدم عليها أستاذنا، تلك الِانطلاقة الإيجابية الأولى من نوعها في سلسلة الأعمال الهادفة التي قام بها الوطنيون المخلصون في هذه المنطقة الأبية، ألا وهي مكرمة إنشاء «المدرسة الأهلية»، أول مدرسة عربية إسلامية حرة في شمال المغرب. هذه المدرسة الوطنية التي كان للأستاذ داود فضل كبير في تأسيسها وفي تسييرها وتنظيمها، فكانت نواة لخلق الجيل الواعي المتزعم لمواصلة الحركة التحررية ببلادنا.

ومن هنا ارتأيت ان أسلط الأضواء على الظروف المهيئة لإنشاء هذه المدرسة، وفكرت أن أصحبكم معي لنعيش جميعاً أحداث ميلادها، ونحن نتصفح أوراق ومذكرات والدنا وأستاذنا الجليل رحمه الله.

سنبدأ جولتنا معه وقد عاد إلى تطوان من رحلته العلمية إلى فاس ــ مدينة العلم والعلماء ــ بعد أن قضى بها سنتين من الدراسة والتحصيل على أكابر أساتذة القرويين الأجلاء. عاد الشاب ــ وهو ابن 22 سنة ــ وقلبه مليء بمعاني الطموح وبواعث النشاط، وحماسيات الشباب المتطلع لأن يحدث في بلده ثورة على مظاهر الجهل والتقهقر، وإصلاحاً لملامح الجمود والتأخر.

عاد في أوائل العشرينيات ــ وبالضبط في غشت من سنة 1922 ــ، وتلك فترة كانت حالة التعليم الأساسي الأولي فيها بتطوان ــ كغيرها من المدن المغربية ــ موسومة بما تميزت به من اقتصار على نوع معين من التعليبم الديني الملقن في الكتاتيب.

وإننا لنتساءل : إذا كان ما يلقن بتلك الكتاتيب، وبتلك الطريقة، يمثل التعليم الأساسي والابتدائي، الذي يفترض أن يهيء الطفل لبناء مستقبله ومستقبل أمته، فكيف يتصور ان يحصل على النتيجة المرجوة، وقد جعلت العناية محصورة ومقتصرة على العلوم الدينية البحتة دون غيرها من العلوم ؟

ثم إنه إذا كان الجو الذي تلقن فيه تلك العلوم الأولية جواً تنقصه كثير من عوامل الاهتمام بالطرق التربوية الصحيحة، وكذا عوامل الصحة والنشاط والحيوية، جواً تسوده القسوة والصرامة، ويعترف فيه بالسلطة لصاحب القضيب الذي يمثل بالنسبة للطفل شبحاً مخيفاً بدلاً من أن يكون منارة علم تضيء له الطريق وتهديه إلى شاطيء السلامة، فكيف يعقل ان يصبح هذا الطفل فيما بعد شاباً يفرض وجوده كمواطن ذي كيان يدافع عنه ويحميه مِمَّنْ يؤذيه ويستغل خيراته... شاباً يعول عليه في تحرير وطنه وبناء صرح امته مادياً وأدبياً ؟؟

لا أظن أن يحدث ذلك! لا في الحالات النادرة التي لا تخلو من الخضوع لعوامل ثانوية تدفع بها للتميز عن غيرها في وسط من هذا النوع.

نعم، لقد كانت هناك مدارس من النوع الحديث الذي تلقن فيه العلوم المختلفة بالطرق العصرية، إلا أنها مدارس أجنبية، يقول عنها والدي في تقييد له [1] : [كل ما كان موجوداً من المدارس إنما هو المدرسة الفرنساوية العربية، ثم المدرسة الإسبانية العربية، وقبلهما كانت المدرسة الوحيدة بتطوان هي المدرسة الإسرائيلية التابعة لجمعية الأليانس بباريس. والناس لا يطلقون على تلك المؤسسات اسم المدرسة، بل يسمونها بالإسكويلة، وفي الغالب لا ينطقون بها؛ لا مضافة لأصحابها، فيقولون : اسكويلة اليهود وإسكويلة الفرنسيين....] اهـ.

ومما يلاحظ على هذه المؤسسات أن الأجانب كانوا يفتحونها في وجه المغاربة، إلا أنهم كانوا يبثون فيها من المعلومات ما يسلخ هؤلاء الأطفال عن قوميتهم ولغتهم، ويبعدهم عن دينهم وتاريخهم، وعن ذلك يقول أستاذنا في احدى مذكراته [2] : [ولاحظت أن الإسبانيين في شمال المغرب ـــ كالفرنسيين في جنوبه ـــ يفتحون المدارس في وجوه أبناء المغرب، ولكنهم يضعون لها برامج مليئة بلغتهم الأجنبية، يلقنون بها تاريخهم وآدابهم، ويبثون في اذهان طلابنا ما يملأ قلوبهم تعظيماً وإجلالاً لعظمة الدولة الحامية، وإهمالاً واختصاراً لتاريخ المغرب وماضيه المجيد، ولم يكن لديننا ولغتنا في مناهج تلك المدارس إلا النزر اليسير، بل لم يكن فيها إلا ما هو ذر للرماد في العيون.] اهـ. ثم يقول أيضاً [3] : [ورأى كثير من الناس ـــ وخصوصاً في جنوب المغرب ـــ ان الحضارة الحديثة تدعو ـــ بل توجب ـــ أن يقبل الشباب على التعلم الحديث، ولا منبع له إلا تلك المدارس الأجنبية التي تضمن في نظرهم التعليم الصحيح، والمتجر الربيح. فأكبوا على ذلك إكباباً، رأينا فيه أنه إن كان نافعاً من الناحية العلمية والاقتصادية، فإن فيه خطراً على لغتنا وآدابنا، ثم على ديننا وأخلاقنا] اهـ.

هذه المظاهر وغيرها من مظاهر النقص والجمود، كانت مما يثير ثائرة والدي رحمه الله، فيطلق العنان لقلمه السيال معبراً في مقالاته الصحفية عن رغبته الأكيدة ودعوته الصريحة إلى وضع حد لذلك الوضع، موضحاً أن الأمر في حاجة إلى مجهود ضخم يبذله كل من العلماء وذوي القدرة والعناية بشؤون هذه الأمة، لاصلاح أحوالهم وتهييء الجو التعليمي المناسب للنشء الفتي، الجو الذي يشحذ أذهانهم ويفتح آفاقهم لتدشين عهد جديد يثبتون فيه وجودهم بين شباب الأمم الناهضة والمتقدمة.

ولكن، كيف يكون هذا الإصلاح ؟ لقد فكر الأستاذ داود ـــ رغم جهوده المتواضعة ـــ أن يؤسس نوعاً جديداً من التعليم الإسلامي بطريقة حديثة يجمع فيها بين الفائدتين ـــ على حد قوله [4] ـــ : [تعلم العلوم الحديثة مع المحافظة على لغتنا وآدابها وعلى ديننا وأخلاقنا، مع الاحتفاظ بثقافتنا والاعتزاز بتاريخنا وقوميتنا] اهـ.

---

1 . التقييد رقم 1 بملف المدرسة بالخزانة الداودية.
2 . التقييد رقم 3 بملف المدرسة بالخزانة الداودية.
3 . التقييد رقم 3 بملف المدرسة بالخزانة الداودية.
4 . التقييد رقم 1 بملف المدرسة الأهلية في الخزانة الداودية.

ومما زاده تشجيعاً للمضي قدماً نحو تحقيق هذا الهدف، أنه سبق له أن اطلع بمدينة فاس على منجزات بعض مفكريها الذين بادروا بتأسيس ما يعرف بالمكاتب التي تكتسي صبغة جديدة تقربها من المدارس الحديثة، إذ كان أستاذنا يتتبع خطوات تلك المكاتب معجباً بفكرتها، مخططاً لما عساه أن يحققه في تطوان بعد رجوعه إليها.

ولقد دفع به إعجابه وتخطيطه إلى انتهاز كل فرصة يقوم فيها أحد أعيان تطوان بزيارة لمدينة فاس، فكان يصحبهم إلى تلك المدارس ليشاهدوا ما بها ويطلعوا على المواد والطرق المتبعة للتدريس بداخلها، وهكذا تتيسر لهم معرفة الجو المدرسي المنظم القائم على تلقين مختلف العلوم من دين ولغة وأدب وأخلاق وعلوم وحساب... الخ، بطريقة مسايرة لمبادئنا وعقائدنا.

وبالطبع لم يكن الأستاذ يقصد من كل هذا سوى إثارة الاهتمام إلى ضرورة إنشاء مدرسة من هذا النوع في مدينة تطوان، على يد من له الكفاءة والاستطاعة المادية والأدبية لإنجاز مثل هذا العمل.

وقد يتساءل البعض هنا : ما هو المانع الذي منع الأستاذ داود من الاقدام على إنجاز فكرته بمجرد عودته من فاس ــ وهو المتحمس لذلك والراغب فيه بكل إلحاح ؟... كما قد يتساءل البعض الآخر ــ ولقد تساءلوا بالفعل !ــ ألم يكن في تطوان من يفكر في مثل هذه الأمور ومن يقدم على مثل هذه الأعمال ؟؟... فنقول على لسان الأستاذ داود ــ وكأنه قد تنبأ بورود هذا السؤال إلى أذهان المهتمين بهذا الموضوع : [5] [نعم، لم تكن تطوان فاقدة لأشخاص متنورين يعرفون قدر المدارس ومبلغ تأثير التعليم الحديث في حياة الأمم وتطورها، ولكن من هو هذا الشخص الذي يقدم على تأسيس مدرسة تحتاج إلى جهود مادية وأدبية زيادة على الجرأة الكافية لفتح هذا الباب أول مرة في التاريخ ؟ وما هي يا ترى التدابير التي ينبغي اتخاذها لمن يريد الإقدام على هذا العمل الجديد ؟] اهـ.

وهكذا يتضح لنا أن المسألة ليست مسألة خلو تطوان ممن يستطيع أن ينتبه لمثل هذه الجوانب الإصلاحية المهمة، وإنما هي مسألة الإقدام على عمل جديد لم يسبق له مثيل في تاريخ هذه المدينة ! وعمل من هذا القبيل لا شك أنه يتطلب من التدابير والاحتياطات ما يجعله بعيداً عن الفشل والخيبة. خاصة وأن الفكرة السائدة بين مختلف الطبقات حول المدارس الحديثة ــ ونقصد المدارس الأجنبية المذكورة سابقاً ــ كانت سيئة للغاية. ولذا فإن المقدم على عمل من هذا النوع لا يستبعد أن يقابل بالمقاطعة من طرف من له تلك الفكرة... فتكون النتيجة حينئذ عكسية ويبوء المشروع بالفشل الذريع عليه قبل ولادته، كما يحكم على صاحبه بكونه مبتدعاً لما يخل بالدين والأخلاق، متطفلاً على ما عند الأجانب من الأنظمة والعادات البعيدة عن ملتنا ومقوماتنا.

من هنا كان خوف أستاذنا وتحريه لاتخاذ الاحتياط اللازم لإنجاح المشروع وإحاطته بجميع الضمانات التي تكفل عدم رفضه من طرف المجتمع التطواني آنذاك. فأقدم على دراسة أحوال رفقائه بجس نبضهم ويتطلع لمعرفة نواياهم عسى أن يجد من بينهم من ينوي تحقيق هذا المشروع الضخم، فيستبشر بقرب الفرج، إلا أنه يصرح بقوله [6] : [فوجدت أن كل من يرجع من فاس أو ينهي دراسته

5 . التقييد رقم 1 بملف المدرسة الأهلية بالخزانة الداودية.

6 . التقييد رقم 1 بملف المدرسة الأهلية بالخزانة الداودية.

بتطوان، يسرع نحو العدالة أو ما يماثلها من الوظائف المحدودة الأعمال والآمال، فلم يبق أمامي إلا أن أرشّح نفسي للقيام بهذا العمل، وأن أقف بالمرصاد وأنتهز كل فرصة تقرب من تحقيق الأمل] اهـ.

كانت أول مبادرة لجأ إليها الأستاذ تمهيداً لتحقيق ذلك الأمل هي تهييء الجو أثناء إلقائه للدروس بمختلف المساجد، ذلك أنه صار يستعمل الأسلوب العصري في التدريس متخذاً الأمثلة المختارة المناسبة للفكر الحديث، ومقرباً المادة لأذهان الطلبة بطريقة مشوقة تجلب اهتمامهم وتطلعهم.

وأثناء هذه الفترة بالذات ــ أي أواخر سنة 1922م ــ حدث بتطوان أمر له علاقة بالموضوع، وهو أن أحد وجهاء تطوان ممَّن لهم عناية بالمسألة التعليمية واهتمام بإصلاحها، قد أقدم على عمل يمكننا أن نعتبره الشرارة الأولى المبشرة بإمكانية خلق المدرسة الجديدة. كان ذلك الشخص هو السيد محمد السلاوي رحمه الله، الذي لم يكن له ولد، فكان اهتمامه موجهاً للعناية بمستقبل أخ زوجته الطالب عبد الخالق الطريس ــ وكان اذ ذاك طفلا دون البلوغ. هكذا نجد السيد السلاوي يعمد إلى دكان صغير (أو ما يعرف بالدراز) في ساحة الوسعة، فخصصه لدراسة الطفل المذكور، على أن يقوم بتدريسه الفقيه السيد العربي الخطيب رحمه الله، وذلك بطريقة تعتمد على الكتب التعليمية الحديثة. وكان السيد الخطيب إذ ذاك أستاذاً بالمدرسة الإسبانية. وكان بتلك المدرسة ــ كما يقول الأستاذ داود ــ: [7] [أطفال من سنهم الطالب الطريس، فلم يكن السيد الخطيب يجد لامن الوقت ولا من الحرية ما يكفيه لتعليمهم تعليماً وطنياً مفيداً. وهيأ الله له السيد السلاوي، فبذل من ماله ما أصلح به أحد الأملاك المهملة واشترى له الأثاث الضروري، وإذ ذاك شرع السيد الخطيب في إلقاء دروسه على بعض الأطفال، وكان من بينهم الطالب عبد السلام ابن الوجيه الأمين الحاج محمد زوزيو] اهـ.

ومما يدل على اهتمام جل أهل تطوان بهذه الظاهرة وتشجيعهم لها، أنهم ما إن سمعوا بوجود هذه الخلية الأولى من نوعها، حتى سارعت مجموعة منهم بإدخال أولادهم ضمن النخبة المحظوظة... فكان بين هؤلاء الطلبة مثلاً الطالب الطيب بنونة، وعنه يحدثنا الأستاذ داود بقوله [8] : [وكان هناك شخص آخر دقيق الإحساسات، شاعر بالواجبات، قد شغف بالأعمال النافعة، وامتاز بالجرأة والإقدام والتجديد وهو النابغة المرحوم الحاج عبد السلام بنونة، فضم ولده الطيب إلى رفيقه عبد الخالق الطريسورفقائه] اهـ.

وبهذا نرى فكرة محاولة خلق الجو المدرسي المفيدة بالطريقة العصرية الحديثة كانت تساور أذهان كثير من التطوانيين، وبالتالي فإن الظروف المناسبة لخلق المدرسة التي كانوا يحلمون بها صارت تتهيأ شيئا فشيئا.

ثم نعود إلى نشاط أستاذنا داود في هذه الفترة، فنجد أنه قد عرض عليه بدوره أن يقوم بإعطاء دروس خاصة، ذلك أن السيد الحاج محمد زوزيو قد طلب من تدريس ولده عبد السلام المذكور سابقاً، فوافق الأستاذ وكلّه أمل في أن يكون ذلك فاتحة خير تؤذن بتباشير تأسيس المدرسة المرتقبة. خاصة وقد التحق بهذه الدروس فيما بعد ذلك طلبة آخرون، وإلى ذلك يشير أستاذنا بقوله [9] : [ثم عرضت عوارض

7 . التقييد رقم I بملف المدرسة الأهلية في الخزانة الداودية.
8 . التقييد رقم I بملف المدرسة الأهلية في الخزانة الداودية.
9 . التقييد رقم 1 بملف المدرسة الأهلية في الخزانة الداودية.

حالت دون استمرار دروس السيد الخطيب، فاتفق الرأي على أن يجمع زوزيو والطريس في حلقة واحدة، وأتولى أنا تعليمهما في وقت مخصوص على أن تبقى لهما الحرية فيما عدا من الأوقات. وقد كان ابتهاجي عظيماً بنجاح هذا التدبير، لأني اعتقدت أنه سيقربنا من النجاح المؤمل] اهـ.

شرع الأستاذ داود في تلقين دروسه للطالبين المذكورين، كما ضم إليهما أخاه الأصغر عبد الكريم داود، وانضم إليهم بعد ذلك الطالب محمد نجل الوزير السيد أحمد الركينة. وكان مقر هذه الدروس هو إدارة خصصها لهم السيد الحاج محمد زوزيو لهذا الغرض.

مرت عدة أشهر والطلبة يدرسون بشغف واهتمام، والأستاذ يدرس بجد ونشاط، حتى حدث مانع منع من متابعة الدروس بالإدارة المذكورة للسيد زوزيو، فانتقل الأستاذ بطلبته إلى مكتبه الخاص دخل منزله، حيث وجد نشاطاً أكبر وحرية أكثر. وهناك تابع دورسه مع الطلبة : الطريس وداود والركينة. أمازوزيو فقد تخلف عنهم، بينما التحق بهم كل من الطالب الطيب بن الحاج عبد السلام بنونة والطالب سيدي محمد بن سيدي مصطفى أفيلال.

بعد ذلك تتابعت هذه الدروس في أمن وأمان، والكل مبتهج بالنتيجة الباهرة المحصل عليها، وذلك لكون الأحوال قد تنظمت، والدروس قد أخذت مجراها الطبيعي في جو كله اهتمام ورغبة في النجاح من طرف كل من الأستاذ والطلبة.

ولا غرو أن ينجح عمل من هذا النوع لا يهدف من ورائه إلى منفعة مادية ولا شخصية، وإنما الذي يقصد هو تحقيق مبدإ سام وإنجاز فكرة غالية. وخير ما يؤكد هذا الكلام جواب الأستاذ داود لأحد التلاميذ الأربعة الذين لازموا حضور دورسه بانتظام وهم : الطريس وداود وبنونة وافيلال، حيث تقدم أحدهم إليه في نهاية الشهر الأول للدراسة بمبلغ مالي أرسله به والده كأجرة مقابل الدروس، فأجاب الأستاذ بما يلي : [10] [بلغ والدك شكري على عنايته، ورد إليه هذه الدراهم، وقل له بلطف : ليس هذا مسيداً يحتاج صاحبه إلى أجرة، وإنما هي دروس أتبرع بها في مكتبي خدمة لمبدإ وطني نرجو الله أن يحققه !] اهـ.

بهذه الطريقة، وعلى هذا المنوال تسلسلت الأحداث تسلسلها الطبيعي في ظروف كان من اللازم أن تقرب من تنفيذ فكرة إنشاء المدرسة. وعن هذه الفترة يحدثنا الأستاذ داود بقوله [11] : [وقد شملنا في هذا العهد اطمئنان من جميع النواحي، فمحل الدراسة هو مكتبي الخاص ولا سلطة فيه لغيري، وأنا غير متبوع لا بوظيف ولا بخدمة على العيال، وحياتي كلها علمية بين دراسة ومطالعة، وأولياء التلاميذ ليسوا من الأشخاص الذين يجهلون قدر العمل الجليل الذي نقوم به، والتلاميذ الأربعة كلهم نجباء مجتهدون، يتسابقون إلى الحضور قبل الوقت المعين، وإلى حفظ النصوص وفهم الدروس... وهي دواع كافية لأن أعتبر أننا أصبحنا الآن في ظرف يجب أن أنتهزه لتجربة نظام مدرسة ابتدائية بسيطة، تناسب وسطنا وثقافتنا، ولا يتعارض برنامجها لامع عوائدنا، ولامع مباديء ديننا، ولا يثقل كواهلنا ولا يؤثر على قوانا المادية أو الأدبية] اهـ.

---

10. التقييد رقم 1 بملف المدرسة الأهلية في الخزانة الداودية.
11. التقييد رقم 1 بملف المدرسة الأهلية بالخزانة الداودية.

كان أول شيء فكر فيه أستاذنا إذن، هو وضع برنامج أولي لدروسه الخاصة بطلبته الأربعة يحتوي على الموادّ التالية : التوحيد ـــ العبادة ـــ النحو ـــ الحساب ـــ الجغرافية ـــ التاريخ والسيرة ـــ المطالعة ـــ والمحفوظات، مع الحرص على أن يقع التدوين بواسطة الكتب المدرسية المقررة في المدارس المصرية آنذاك.

ثم إنه قد رأى أن يوسع دائرة عمله حتى ينتفع بدروسه هذه أكبر عدد من الطلبة، فافتتح درساً نحوياً بأقرب مسجد إلى بيته ـــ وهو مسجد الطرنكات ـــ معتمداً فيه على كتاب «الدروس النحوية» المؤلف من طرف جماعة من الأساتذة المصريين. فوقع إقبال كبير هذا الدرس، نظراً لما سمعه الناس من تفوق الطلبة الأربعة المذكورين في دروسهم، ثم لما عرفت به طريقة الأستاذ داود من طرافة وتجديد غير معهودين.

ولا شك أن كل ذلك قد مثل أكبر دعاية للإقبال على دراسة الكتب الجديدة بالأسلوب الحديث، وبالتالي للتشجيع على تهيىء جو المدرسة المرتقبة بفارغ الصبر. ولنستمع إلى تصريحات أستاذنا في هذا المجال إذ يقول [12] : [ولا أكتم أن خطتي كانت هي أن أكون عملياً، وأن لا أكون صاحب أقوال تذهب مع الريح، وأن أقدم للناس فوائد يرونها بأعينهم ويلمسونها بحواسهم دون احتياج إلى دليل. فبدلاً من أن أقول : أيها الناس هلموا إلى التعليم الحديث، أقبلوا على تأسيس المدارس العصرية، إن ذلك شيء مفيد، إنكم بدون ذلك لا تترقون، إن حياتكم وسعادتكم متوقفة على تحسين حالة التعليم، ومسايرة العصر في النهوض، ومجاراة الأمم الراقية في ميدان المعرفة والثقافة... إلخ، بدلاً من أن أقول ذلك، وتضيع أوقاتنا في الأخذ والرد والجدال الفارغ؛ قدمت لمفكّري تطوان تلاميذ أربعة، كانو يجلسون إلى جانب طلبة المسايد والدروس العادية بمطلق المساجد، فتبيض وجوه وتسود وجوه. يتكلم التلميذ المتعلم على الطريقة الجديدة، فتسمع المنطق السليم، وتجد القواعد العلمية مصحوبة بالفهم الصحيح والتطبيق العلمي. ونجد مشاركة في مختلف العلوم التي لا يحصلها أمثالهم إلا بعد السنوات الطويلة... وعقيدتهم سالمة، ودروسهم محصلة، وكتبهم مفهومة، ومحفوظاتهم مهذبة مؤثرة، وكل من رآهم حكم بأنهم لا يضيعون أوقاتهم في اللعب، وبأن معلوماتهم أكبر من سنهم وأوسع من وقتهم. ويحضر معهم التلميذ العادي، فيبهت ويخجل، ولا يعدم وسيلة يبرر بها انسحابه من الميدان] اهـ.

لقد دفع هذا الاقتناع بأستاذنا إلى متابعة دروسه الخاصة بتلاميذه الأربعة الذين صار يفتخر بهم ويزهو أمام الناس، بل و يعزو إليهم سر نجاح خطته المرسومة، حيث يقول [13] : [لقد كانت في أحد التلاميذ الأربعة جرأة وإقدام، وكان في الآخر عقل ورزانة، وفي الثالث خجل ولكن مع نباهة، وفي الرابع حفظ وثبات. وكان في الجميع استعداد للدخول إلى ميدان الامتحان باطمئنان، والخروج منه بنجاح. والحقيقة أن فضلي في نجاح الخطة كان ضئيلاً، وأنني ما كنت لأنجح لو لم تهيء المقادير هؤلاء التلاميذ النجباء الذين أراد الله أن يكونوا هم مفتاح الخير، وأن يكونوا هم الطليعة الأولى للنهضة الحديثة في هذه البلاد].

12. التقييد رقم 1 بملف المدرسة الأهلية في الخزانة الداودية.
13. التقييد رقم 1 بملف المدرسة الأهلية في الخزانة الداودية.

وهنا نجد أنفسنا أمام العتبة الأخيرة، المؤدية إلى بزوغ شمس المدرسة الأهلية، وذلك لما وقع الاتفاق والتصريح النهائي بضرورة إنشاء هذه المدرسة بين علمين من أعلام مفكري تطوان وهما الأستاذ محمد داود والأستاذ الحاج عبد السلام بنونة. وإنني ـــ وأنا أسجل هذين الاسمين العزيزين ـــ لأحسُّ بفخر واعزاز كبيرين ـــ لكونهما بالنسبة لي أقرب الأقارب، فالأول والدي، والثاني جدي لأمي. وكم كان بودي أن أطلع على وثائق هذا الجد الحبيب فيما يتعلق بإسهاماته الجلى من أجل خلق هذه المدرسة، إلا أنني ـــ وبكل أسف ـــ وجدت عراقيل حالت دون تمكيني من هذه الوثائق، ولذا فإني أعتمد كل الاعتماد في سرد هذه الحقائق، على ما سجله والدي رحمة الله عليه من مذكرات وتقاييد في هذا الشأن.

يقول الأستاذ داود عن هذا اللقاء التاريخي بين وبين الأستاذ بنونة [14] [وفي أحد الأيام، جاءني المرحوم الحاج عبد السلام بنونة، وقال لي بلسانه المهذب ولهجته اللطيفة، ومرونته السياسية : إنك ناجح في عملك العلمي.... (إلخ) فهلا ترى أن نخطو إلى الأمام خطوة فيها الخير والمصلحة ؟ فقلت : لعلك تريد أن نؤسس مدرسة. فقال : لا أريد غير ذلك. فقلت : لقد تأخرت في هذا كثيراً ـــ وأنت السباق إلى المعالي ـــ وكنت أنتظر منك هذا قبل سنة كاملة ! فقال : نحن أبناء اليوم. فقلت : سر على بركة الله وأنا معك في جميع الخطوات وعلى كل الوجوه] اهـ.

وبفضل الله، وبإلهام منه، وبعد الاتصال بمجموعة من الأعيان والوجهاء بالمدينة، اهتدت تلك الجماعة المباركة من رجال تطوان إلى الاقدام على تنفيذ المشروع المقترح. فانعقد الاجتماع المعلن فيه عن قرار تأسيس مدرسة عربية إسلامية وطنية عصرية، وذلك بتاريخ 17 جمدى الأولى عام 1343 هـ الموافق 15 ديسمبر 1924 ـــ حيث وقع الاتفاق في هذه الجلسة الافتتاحية على ما يلي :

1 ـــ إعلان القرار بإنشاء المدرسة.
2 ـــ وجوب تعيين أشخاص للقيام بشؤونها ومراقبة سيرها وتقنين إجراءاتها.
3 ـــ ضرورة تقسيم التلاميذ إلى قسمين (تمهيدي وابتدائي).
4 ـــ تحديد ما يقرأ ويدرس بها من العلوم والفنون.
5 ـــ تعيين أوقات الدخول والخروج بها.

وهذه مقدمة المحضر كتب لهذه الجلسة الافتتاحية [15] :

[بسم الله الرحمن الرحيم ـــ الحمد لله رب العالمين ـــ اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق، وعلى آله وصحبه وسلم.

لما أرشد الله بعض الأفاضل من أهل هذه الحاضرة التطوانية، لتحسين هيئة مكاتب أبنائها الدينية وإدخال ما شاء الله فيها من الدروس العلمية، قاموا بتأسيس مدرسة ابتدائية لتنفيذ أفكارهم السنية، وترويض مدارك أبنائهم مع الاعتناء بحسن التربية. فتم بفضل الله تنظيم ما هذبوه، وهو سبحانه المسؤول أن يلهم التوفيق لقصارى ما قصدوه].

---

14. التقييد رقم 1 بملف المدرسة الأهلية في الخزانة الداودية.
15. محضر الجلسة الافتتاحية لهيئة تأسيس المدرسة الأهلية = المحضر رقم 1 بملف المدرسة الأهلية في الخزانة الداودية.

وبعد تفصيل الكلام في النقط المذكورة أعلاه، تقرر أن يكون افتتاح المدرسة رسمياً في يوم الاثنين 23 جمدى الثانية عام 1343هـ الموافق 19 يناير 1925م [16].

ولقد كانت أول هيئة إدارية عينت لتسيير شؤون المدرسة حسب المحضر المذكور ممثلة من طرف السادة :

ــ سيدي مصطفى أفيلال	:	بصفة رئيس.
ــ السيد محمد داود	:	بصفة مدير داخلي.
ــ السيد محمد بن محمد اللبادي	:	بصفة أمين الصندوق.
ــ السيد محمد بن العربي بنونة	:	كاتب.

إلا أن سيدي مصطفى أفيلال لم يقض في رئاسة هذه الهيئة إلا شهراً واحداً، حيث نجد في محضر جلسة غير اعتيادية بتاريخ 20 جمدى الثانية 1343هـ. الموافق 16 يناير 1925م [17] : أنه قد استعفى من هذه المهمة نظراً لكثرة اشغاله، فعين محله أخوه الفقيه القاضي سيدي الحاج الحسن أفيلال، الذي طلب تسمية نائب عنه ليعوضه أثناء غيابه في مهمته، فتواقف المجتمعون على تسمية السيد محمد السلاوي نائباً مؤقتاً عنه.

ومن خلال تسمية الأستاذ داود مديراً داخلياً للمدرسة، يتضح لنا مدى اعتماد الهيئة المؤسسة عليه في مباشرة جميع الأعمال التي ينص عليها قانونها الأساسي، والتي تتعلق بتسجيل التلاميذ، ومراقبة تربيتهم وأخلاقهم، وسيرتهم مع أساتذتهم، وكذا مراقبة مواظبتهم أو عدمها، مع ضبط ذلك... ثم النظر في نتائجهم الدراسية ومكتسباتهم العلمية. هذا إلى جانب ما وكل به من وضع جميع ما يتعلق بالأنظمة والبرامج المناسبة للأقسام وكذا تعيين المواد واختيار الكتب المعينة لمختلف للأقسام أو المستويات... وعن هذه النقطة بالذات يقول الأستاذ داود [18] : [ولعل أصحابنا كانت لهم في ثقة كافية، ففوضوا إليَّ وضع برنامج الدراسة تجربة مطلقة وبدون مراجعة ولا تنقيح] اهـ.

وعلى ذكر القانون الأساسي للمدرسة الأهلية، أرى أنه من المناسب أن أشير إلى أنه يوجد بالخزانة الداودية، النص الكامل لهذا القانون المذيل بأسماء وتوقيعات السادة الذين ساهموا في إنشاء هذه المؤسسة. ولقد كتب هذا القانون بخط المرحوم الأستاذ الحاج عبد السلام بنونة، وعليه تعديلات وتنقيحات وفيما يلي نص مقدمته [19] :

[بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله علي سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

وبعد فقد أجمع رأي السادات المذكورة أسماؤهم بعد ختم هذه الوريقات علي تأسيس مدرسة عربية منظمة لقراءة أبنائهم وذويهم، وأرادوا أن يجعلوا لها نظاماً أساسياً تكون به أنموذجاً لغيرها، وتسير به

16. المحضر رقم 2 بملف المدرسة الأهلية في الخزانة الداودية.
17. المحضر رقم 3 بملف المدرسة الأهلية في الخزانة الداودية.
18. التقييد رقم 1 بملف المدرسة الأهلية في الخزانة الداودية.
19. القانون الأساسي للمدرسة الأهلية المحفوظ بالخزانة الداودية.

هي في طريق النجاح والرقي ان شاء الله. فتوافقوا على تعيين أربعة أفاضل يضعون فيهم ثقتهم، ويجعلون بيدهم سير هذه المدرسة، والنظر في مصالحها واجراء ما يأتي من النظام عليها بكل تدقيق، ويقوم كل واحد منهم بوظيفة من الوظائف الأربع اللازمة لقيام إدارة المدرسة، وهذه الوظائف هي :

1 ــ المدير.
2 ــ الرئيس الداخلي.
3 ــ أمين الصندوق.
4 ــ الكاتب.

وقرروا أن تكون هذه الوظائف مجانية. ومن هؤلاء الأربعة تتكون اللجنة العاملة بالمدرسة. ورغبة في التسهيل، توزع الأعمال على هؤلاء السادات المشكورين السعي حفظاً للكيان المطلوب] اهـ.

وبعد هذه المقدمة، يأتي تفصيل اختصاصات الهيئة الإدارية المذكورة وذلك في 30 بنداً. ثم تحديد أقسام المدرسة والمواد المعينة لكل قسم مع عدد الحصص المخصصة في كل مادة، كل ذلك في جداول منظمة.

ثم بعد هذا كله تأتي أسماء السادة الأفاضل الذين كان لهم شرف المساهمة في هذه المبرة، وهم كما ورد في الأصل [20] :

[العلامة الشريف القاضي سيدي الحسن أفيلال	(مع توقيعه)
الشريف سيدي مصطفى أفيلال	(دون توقيع)
سيدي محمد بن محمد اللبادي	(مع توقيعه)
سيدي علال الخطيب	(مع توقيعه)
سيدي محمد السلاوي	(مع توقيعه)
سيدي محمد الموذن	(مع توقيعه)
سيدي عبد السلام بن عبود	(مع توقيعه)
سيدي محمد الخطيب	(مع توقيعه)
سيدي الحاج أحمد الخطيب	(مع توقيعه)
سيدي عبد الكريم بن عبد الغفور اللبادي	(مع توقيعه)
سيدي أحمد بن محمد مدينة	(مع توقيعه)
سيدي محمد داود	(مع توقيعه)
سيدي عبد السلام بناني	(مع توقيعه)
سيدي عبد السلام بن العربي بنونة	(مع توقيعه)
سيدي الحاج العربي العطار	(مع توقيعه)
سيدي أحمد الصفار	(دون توقيع)
سيدي محمد الفتوح	(مع توقيعه)

20. القانون الأساسي للمدرسة الأهلية المحفوظ بالخزانة الداودية.

سيدي عبد الرحيم مدينة	(مع توقيعه)
سيدي محمد بن جلون	(مع توقيعه)
سيدي العربي الدليرو	(مع توقيعه)
سيدي أحمد بن عبود	(دون توقيع)
سيدي عبد السلام حجاج	(مع توقيعه)
سيدي محمد بن الحاج أحمد مدينة	(دون توقيع)
سيدي عبد الله الوزاني	(مع توقيعه)
سيدي الزبير السكيرج	(مع توقيعه)
سيدي بوهلال	(مع توقيعه)
سيدي عبد السلام الفاسي	(مع توقيعه)

(وتوقيعات السادة)

علال عزيمان.
أحمد بن التهامي أفيلال.
محمد بن أحمد بنونة.
محمد المسفيوي.] اهـ.

هكذا، وبدخول سنة 1925م. انطلق العمل بالمدرسة الأهلية. فمارس الأستاذ محمد داود مهامه المتمثلة في التسيير الإداري، إلى جانب التكفل بإعطاء الدروس في مختلف المواد. ولعل دوره كمدرس كان له أبعد الآثار في قلوب تلاميذته، حيث نجد أن العلاقة التي كانت تربطه بهم، لم تكن محصورة في تلقين الدروس العلمية المجردة بين جدران المدرسة... وإنما كانت علاقة موجه ومرب يستغل الفرص لإذكاء روح الحماسة الوطنية في تلاميذه، حيث جعل من مكتبه الخاص داخل بيته منتدى يجتمع فيه معهم، فيطلعهم على المجلات والجرائد التي كانت ترد عليه من الشرق والمغرب العربي — وهي كثيرة ومتنوعة — فيتناقشون جميعاً في مختلف القضايا التي تتعلق بمشاكل العالم العربي والإسلام على العموم، ومشاكل القطر المغربي على الخصوص. وفي مذكرات الأستاذ الخاصة ما يشهد بأن هذه المجالس كانت خير دليل على نجاح خطته وبلوغ هدفه المنشود بخلق فئة من الشباب التطواني الحي الناهض المتنور !

وقبل اختتام هذا العرض، يهمني أن أشير إلى أوجه النشاط الدالة على حيوية طلبة المدرسة الأهلية وإقبالهم على المساهمة في الحركة الثقافية آنذاك. فمن ذلك تأسيسهم لنادٍ أدبي، من جملة نشاطه مثلاً إصدار مجلة أسبوعية انتقادية تحت عنوان «أم عريط» وكاان شعار هذه المجلة الانتقادية : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ! ولقد صدر أول عدد منها في أربع صفحات، وذلك في شهر فبراير من سنة 1927م [21].

هذا إلى جانب ما كان هؤلاء التلاميذ يدربون عليه من وسائل المشاركة في الرأي العام، حيث نجد الأستاذ داود يدربهم على كتابة المقالات الاجتماعية اقتداء بمقالاته في مختلف الصحف... كما أنه كان يدفع بهم إلى التشجع في ميدان الخطابة ومواجهة الجمهور، فكان يحثهم على إلقاء الخطب

21. مذكرات محمد داود (لسنة 1927).

الرنانة أثناء مختلف الاحتفالات والتجمعات التي كانت تعقد داخل المدرسة أو خارجها في شتى المناسبات. وفي الخزانة الداودية عدة نماذج لذلك.

ولا ننسى هنا دور الأناشيد الحماسية التي كان الأستاذ داود حريصاً على تلقينها وتحفيظها لتلاميذته، تلك الأناشيد التي كان يقوم بنظمها أو تلحينها أو بهما معاً معبراً عن جذوة الحماس التي تختلج صدره، مريداً أن تنطلق حناجر الشباب المغربي، متغنيّة بأناشيد المجد والحرية والكرامة. ومن تلك الأناشيد نشيد «الشباب المغربي» الذي جعل مطلعه :

نحـــن الشبـــاب المغربـــي   النـــاهض الحـــر الأبـــي
ما فينـــا إلا مخـــلص   أبـــداً لقطـــر المغـــرب

ثم نشيد : «إي أمة المغرب»، هذا النشيد الذي ما زال صداه يتردد إلى اليوم على ألسنة المغاربة في الشمال والجنوب، وفي كل مناسبة وطنية، والذي من أبياته :

إن نعش عشنـــا كرامـــاً   أو نمت متنـــــــا كرام
همنـــا نهـــدي الأنامـــا   همنـــا نردي اللئـــام
في سما العليا كنا أنجماً زهرا   وعدلنا إذ ملكنا البر والبحرا

إيـــه أمـــة المغـــرب !
إيـــه دولـــة المغـــرب !

وكذا نشيد جمعية الشباب المسلمين الذي وضع كلماته الأديب مصطفى صادق الرافعي، ولحنه أستاذنا، ومطلعه :

ربنـــا إيـــاك ندعـــو ربنـــا   آتنا الـــنصر الـــذي وعدتنـــا

ومن أبياته :

العـــــلا إن العـــــلا   واجبـــــات المسلـــــم
خيـــر عالـــم خـــلا   كان فينـــا ينتمـــي
للعـــــلا فإننـــا   أمـــــة التقـــــدم
للعـــــلا وهاأنـــا   بحياتـــي ودمـــي

هذه صفحة واحدة من صفحات كثيرة يمكننا أن نتناول فيها جوانب أخرى تبرز لنا إلى أي حد نجحت المدرسة الأهلية في تأدية دورها كمؤسسة ذات كيان مكتمل، قامت بجهود المخلصين من أبناء تطوان البررة، وخطت إلى الأمام، فكانت عهداً لتحقيق الكثير من الأهداف السامية التي صبا إليها آباؤنا وأسلافنا الكرام رحمهم الله وجزاهم أحسن الجزاء.

ولا شك أن تلك الصفحات الباقية من تاريخ المدرسة الأهلية، تشتمل على كثير من الحقائق

والمعلومات الجديرة بتصوير الوضع التعليمي والفكري والاجتماعي الذي كان سائداً في مدينة تطوان، في وقت كانت فيه ــ تطوان ــ مسرحاً للصراع الحرج ضد الاستعمار، ومرتعاً للنضال المتواصل لنيل الاستقلال.

إذن، فللموضوع بقية وموعد مع الأيام التي بإمكانها أن تمسح الغبار عن ملفات مؤسساتنا الوطنية العريقة، وتعطيها حقها الكافي من التعريف حتى يعلم أبناؤنا وأحفادنا تفاصيل كفاح آبائنا وأجدادنا من أجل تحرير هذا الوطن : وبناء صرح هذه الأمة.

تطوان في 20 ــ 11 ــ 1989م.

مساهمة محمد داود في تحديد وجهة الشبيبة الوطنية المغربية

أحمد زيادي

في مطلع العقد الثاني من هذا القرن، كان الرعيل الأول من الشبيبة الوطنية المغربية التي نشأت في عهد الحماية، قد نضج واكتمل، وصار يتتبع بيقظة وحرص أخبار حركة المقاومة المسلحة في الأطلس، وأنباء الثورة الكمالية والثورة الريفية، ويتلقى بلهفة وشوق أصداء الحركات الوطنية العربية والإسلامية، ويلتهم ما تحمله إليه الكتب الإصلاحية والجرائد والمجلات المشرقيةُ من أفكار جديدة غذت نفسه المتعطشة إلى المعرفة والتائقة إلى الحرية، بزاد معرفي ثري، وتجربة ثقافية متنوعة، أتاحا له إدراك واقعه، ودفعاه إلى التفكير في حال بلاده، ثم العزم على التغيير بما في الإمكان من وسائل.

وهكذا شهدت عدة مدن مغربية، وخاصةً الرباط وسلا وفاس وتطوان، في أوائل العشرينات، تحت تأثير العامل الثقافي، والوازع الديني، وفي أكناف النشاط السلفي الإصلاحي، تكتلاتٍ وتجمعاتٍ لفئاتٍ الشبان السلفيين المتحمسين للإصلاح والتجديد من علماءَ ومتعلمين، يستوي في ذلك الذين تلقوا دراستهم بالمغرب، والذين تابعوا دراستهم بالشرق والغرب.

وبرزت من بين هذه التجمعاتِ سنة 1926، ثلاثُ جماعات وطنية في الرباط وفاس وتطوان متشبعةً بآراء الأفغاني وعبده ورضا وأرْسلان، ومتجاوبةً مع دروس أبي شعيب الدكالي ومحمد بن العربي العلوي، ومهتمةً بحركة جماعة الدستور في تونس، وبأعمال مصطفى كمال في تركيا.

وبالرغم من استقلال هذه الجماعات عن بعضها البعض، عند منطلقها، كياناً وتنظيما وبرامجَ ووسائل عمل، فإن تكوين دولة مغربية جديدةٍ كان غاية طموحها جميعاً.

ولما كانت المعطيات والظروف الخاصة بكل منطقة من المنطقَتين الرئيسيتين اللتين كان يقسم إليهما المغرب آنذاك مختلفةً تماماً، فإن الشباب التطواني كان يقف مواقف متسائلة ومتحفظة من الكثير مما كان ينقله إليه محمد بنونة ــ عضوُ جماعة الرباط ووكيلها لدى جماعة تطوان ــ من أخبار وأنشطة وبرامج.

وقد حدد محمد داود أهم المواضيع التي وقع الاختلاف في فهمها أو في برامجها أو وسائل تحقيقها، وراسل جماعة فاس وجماعة الرباط في سنة 1926/1345 مستطلعاً آراءها ومواقفها من أهم المواضيع والقضايا التي كانت تشغل بال الشبيبة الوطنية المغربية في العشرينيات.

وفي غيبة الرسائل التي كتبها محمد داود نفسه لا يسعنا إلا محاولة تبين ملامح وسمات الفكر الداوُدي من خلال ست رسائل جوابية من جماعة الرباط وجهت خمس منها إلى محمد داود بصفة مباشرة، وتتضمن السادسة عبارات تؤكد أنها وجهت إلى جماعة فاس، وإن كانت تجيب على نفس الأسئلة التي وجهها محمد داود إلى جماعة الرباط بصفة مباشرة، وتجعلنا نرجح أن جماعة فاس طلبت من جماعة الرباط إبداء رأيها في ما طرحه محمد داود من أسئلة على الجماعتين معاً، خاصة ما يتعلق بشدة اللهجة في مهاجمة الطرق؛ لأن أول تأليف في الموضوع كان هو (إظهار الحقيقة في علاج الخليقة) الذي ألفه محمد المكي الناصري في الرباط سنة 1922 وطبع بتونس سنة 1925، فكان أول قنبلة انفجرت في المعركة، وبذلك تكون جماعة العاصمة توصلت برسائل مباشرة، ورسائل غير مباشرة من محمد داود. ومما يزيد هذا الرأي رجاحة أن الرسالة التي تطرح هذا الإشكال، وهي (نحن والطرق) تجيب محمد داود بطريقة غير مباشر عن نفس السؤال الذي تجيب عنه بطريقة مباشرة رسالة (نحن والطفرة).

وقد وُقِّعَتِ الرسائل الجوابية بأسماءِ كتابها الصريحة، وحملت عناوينَ خاصةً، وحُرِّرت بالرباط ما بين خامسٍ وعاشر شعبان سنة 1927/1345، ما عدا رسالة واحدة أهمل عنوانها وتاريخ تحريرها، ووُقّعت باسم (ابن الوطن) ويرجح أنه اسم مستعار لمحمد بنِ الحسن الوزاني.

ومن بين الرسائل الست تبتدىء رسالتان فقط بالحمد هما (نحن والطفرة) ورسالة ابن الوطن، وتُختَتَم بالدعاء [1] أو الدعاء والسلام [2] أو بالتحية والسلام [3] أو السلام [4] وحده أو بدون هذا وذاك. وتقع (اتحاد الكهول والشبان) في صفحتين، وكل من (نحن والطفرة) و (نحن والعلم) و (نحن والاستعمار) في ثلاث صفحات، و (نحن والطرق) في سبع صفحات، ورسالة ابن الوطن في تسع صفحات. والرسائل جميعُها مكتوبة بالحبر والقلم القصبي التقليديين بخط مغربي واضح.

وقد تعرضت كل رسالة من الرسائل الست للإجابة على سؤال أو أكثر من الأسئلة المطروحة وورد فيها اسم داود صريحا [5] أو لفظُ الأستاذ [6] مفرداً أو مقرونا باسمه الصريح [7]، أو مسبوقا بكلمة تقديرية مثل الأخ [8] وجناب [9] وحضرة [10] وسعادة [11]، أو بتوجيه الحديث إلى سائل بضمير الجمع المخاطَبِ احتراماً وتقديراً، أو اعتباراً للجماعة بتطوان أو فاس.

1 . نحن والطرق : 7.
2 . نحن والطفرة : 3.
3 . نحن والاستعمار : 3.
4 . اتحاد الكهول والشبان : 2.
5 . رسالةابن الوطن 3 ونحن والاستعمار : 3.
6 . نحن والطرق : 7 واتحاد الكهول والشبان : 1.
7 . اتحاد الكهول والشبان : 1.
8 . نحن والاستعمار : 3.
9 . اتحاد الكهول والشبان : 2.
10. نفسه : 1.
11. نفسه : 2.

ومن أهم الموضوعات والقضايا التي عالجتها الرسائل المذكورة، ما يلي :

الفتــح والاستعمـــار :

يستفاد مما جاء في رسالة (نحن والاستعمار) ورسالة ابن الوطن أن محمد داود طرح في مراسلاته لجماعة الرباط أسئلة حول الاستعمار لا نتوفر على صيغتها الأصلية، لكنها تستشف منهما؛ فقد جاء في ديباجة أولاهما :

«بعد أن اطلعت مع إخواني على ما جاء في خطاباتكم العديدة، رأيت، وكلفني بقية الأعضاء أن أكتب لكم كلمة تتعلق بالفتح والاستعمار، وفيما إذا كان ينبغي لنا أن نتوق إليهما بعد استقلالنا أم لا. وسأبدي لكم رأيي في المسألة حيث إنه مطابق لرأي أغلبية الأعضاء» [12].

وجاء في موضوع آخر من الرسالة قولُه :

«أرى أنه قلما يَنْتُجُ الاستعمار عن حب الاستعمار والصولة والجاه الحبٌ المطلق فقط» [13].

وقولُـه :

«وأرى الأخ داود في رسالته يشعرنا أنه من أنصار القوة لامن أنصار الحقيقة؛ حيث إنه يغرينا بعد إستقلالنا على أن نذوق من لذة الفتح، وأن نستعمر الأمم الأخرى مثلما تستعمرنا» [14].

وقولُــه :

«وهل يجمل بنا في هذه الحالة أن ننتقد الانتقادات المرة على الاستعمار والمستعمرين ما دمنا نرى الاستعمار غايتَنا القصوى التي نسعى إليهما، ولا نرى الاستقلال إلا شوطا من الطريق التي توصلنا إلى لذة الفتح والاستعمار» [15].

وقد طرح الكاتب عبر الرسالة عدة أسئلة وأجاب عنها، ولا نستبعد أن تكون من طرح الأستاذ داود نفسه. وأهم هذه الأسئلة :

هل يمكن لنا أن نستقل ؟ هل الاستعمار يلائم طبائع البشر ؟ ما هي الوسائل التي يستعملها المستعمرون للنجاح في أغراضهم ؟

وجاء في رسالة ابن الوطن :

«أما تكلفنا بإيجاد موارد العيش لكل من يريد الخدمة مع الأجانب، فإني أرى ذلك من الأمور الواهية المتحيلة» [16].

وطرح خلال إجابته عدة أسئلة، من أهمها :

- من أي عهد أصبحت البلاد الشرقية عرضة لنبال الاستعمار الفتاكة ؟
- لماذا أصيبت أروبا بحمى الاستعمار والغصب ؟ وما هي البواعث لها عليه ؟

---

12. نحن والاستعمار : 1.
13. نفسه : 2.
14. 15. نفسه : 3
16. برسالة ابن الوطن : 7

— ما الذي حمل رجالنا — أي المجندين — على القضاء على الاستعمار والظلم، لكن في سبيل قوم أجنبين عنهم ؟ أهو الجهل كما يقول الأخ داود أم عدم وجود مَا يقتاتون به ؟

ويبدو من خلال الإجابات التي تضمنتها الرسالتان السابقتان أن كاتبيهما كانا يختلفان مع محمد داود في بعض الآراء والمواقف، لكنه اختلاف في الوسائل والأساليب لا في جوهر الأهداف.

يقول عمر بن عبد الجليل :

«نحن وإياكم متفقون — والحمد لله — على الكلام، ولكننا نختلف اختلافاً في ما ليس راجعاً في الحقيقة إلى اختلاف حقيقي، وإنما نرى نحن ما لاترون، وننظر مالا تنظرون، وليس من رأى كمن سمع» (17).

ومن أهم الأراء والاقتناعات التي اختلف فيها الطرفان :

— الفتح والاستعمار : إن محمد داود حينما تساءل عن إمكان انتقام المغاربة من المستعمر بعد توحدهم واستجماعهم لقواهم واستقلالهم، باحتلال أراضي مغتصبيهم لم يكن باعثه في الحقيقة على التساؤل عنصريةً حقيقةً ولا عدوانيةً مجانية، وإنما كان في تلك المرحلة المبكرة من الوعي يصل بخيط الأمل والحلم بين أفكار شبيبة أحلّت الكلمة محل البندقية في إطار جمعيات إصلاحية وثقافية وسياسية مسالمة وبين الحقائق الرائعة التي صنعتها الحرب الريفية التحريرية التي كانت ملاحمها ما تزال حديثة العهد، والمقاومة المسلحة الشعبية المتأجحة في العديد من ربو ع الوطن. هذا الوصل الذي لم يتم إلا في الخمسينيات، حين جمعت الحركة الوطنية بين حمل القلم وحمل السلاح، فتحقق النصر والاستقلال والوحدة.

ومن الجدير بالذكر أن التهامي الوزاني — وهو من أقرب رجال الحركة الوطنية في الشمال لمحمد داود — كتب قصة في الموضوع نفسه سنة 1942 بعنوان «في لذيذ الحلم» (18)، انتقم فيها من كبرياء وعجرفة أكبر القادة الاستعماريين الفرنسيين، وجعل الغزو المغربي الذي تطلع إليه داود — يتحقق في قلوب الفرنسيين لا في أراضيهم؛ فتخيل أن أحد المؤرخين كتب سنة 1960 سيرة الجنرال نوجيس تعرض فيها إلى مواقفه المتشددة، وإخلاصه لحكومة (بيتان)، وتخيل أنه جمع الأعيان الفرنسيين المقيمين بالمغرب، في (مؤتمر الوطن الجديد) بقصر المقيمية العامة بالرباط، في يوم الذكرى التاسعة عشرة لإعلان الظهير البربري، ودعاهم إلى الترحم على فرنسا، واعتبارِها قد غُمرتْ بمياه المحيط، وهنأُهم بالإرث الاستعماري العظيم الذي تركته لهم في إفريقيا وآسيا، وأشاد بالجهود التمدينية التي بذلها الفرنسيون في المغرب، وأبرز تعلق الفرنسيين المهاجرين بالمغرب، وتفضيلهم له على الوطن الأصلي نفيسه.

ولما كان الجنرال نوجيس يعلم غيرةَ المغاربة على وطنهم، وحبَّهم له، وتفانيَهُم في الدفاع عنه. ولما كان التهافت الدوْلي على المغرب قد انجاه من السقوط في يد أية دولة من الدول الاستعمارية، فقد جعل الكاتبُ الجزالَ يدعوا المؤتمرين إلى الانضمام النهائي إلى المغرب، والتجنس بجنسيته، والتدين بدينه،

---

17. نحن والاستعمار : 2.
18. في لذيذ الحلم، التهامي الوزاني، الريف 1/319، 2 — 1952/9/15.

والإخلاص له لكسب عطف أهله، ونيل ثقتهم. وهوَّن الجنرالُ من الفرق بين المسيحية المعتدلة والإسلام، وأشار على المهاجرين الفرنسيين بالاندماج في الحياة المغربية عن طريق التزاوج، وذكر لهم موافقة السلطان على هذه الدعوة، وفرحَته بتعزيز الإسلام بهذه الجموع، وإمدادِ المغرب بعناصرَ مثقفةٍ وإدارية ومختصةُ في عدة ميادين للرفع به في مدارج التقدم والازدهار، وحذرهم من مغبة التردد في الاستجابة إلى دعواه، بإبداء تخوفه من احتمال سقوط فرنسا في أيدي أعدائها، فيَسُنُّون قانون باسم (الخطر على النظام الجديد)، فيكونُ الفرنسيون المهاجرون ضحاياه، خاصة حين تُعْرِب البلاد التي يعيشون فيها عن رغبتها في طردهم، انتقاماً منهم، وتخلصا من مسؤولياتهم.

وعند هذا الحد من الترجمة المتخيلة، دق جرس الهاتف، فأيقظ الكاتب، وحرمه من إتمام حمله اللذيذ.

لقد كانت (في لذيذ الحلم) فرصةً متخيلة نادرة، وإبداعاً فنيا طريفاً، أتاحا للكاتب تفجيرَ ردود فعله الوطنيةَ الانتقاميةَ المكبوتة، تجاه السياسة الفرنسية الاستعمارية المختلفةِ الأسباب والاستراتيجيات، والمتعددةِ الأساليب والأهداف. ومكنته. بنيتُها المتوسطةُ بين القصة والترجمة من تسخير الخيال في التعبير عن الواقع، وتجريده من إطاره الزماني، وتخليصه من إساره المكاني، ليصير واقعا إنسانيا يستوجب التغيير [19].

وإن التجاوب الروحي والفكري الذي كان بين التهامي الوزاني ومحمد داود يوحي بأن قصة (في لذيذ الحلم) كانت إحياء لدعوة محمد داود إلى الفتح والاستعمار، أو كانت تطويراً وتكييفها لها مع المتغيرات التي أفرزتها الحرب العالمية الثانية والمستجدات السياسية الوطنية والدولية التي ظهرت في أعقابها.

2) التجنيـد فـي صفـوف الجيـوش الغازيـة :

يبدو من خلال رسالة ابن الوطن، أن محمد داود رد انخراط المغاربة في الجندية إلى الجهل والجوع، لكن ابن الوطن رأى أن هذين السببين لا يعدّان شيئاً إذا ما قيسا بأسباب أخرى هي الغرور والطمع والإكراه واستبدادُ ذوات الحكومة الأهلية.

والحق أن محمد داود تناول الظاهرة من وجهة نظر وطنية؛ فاستحضر أسبابها الحقيقية الثانية لا العارضة، والعامة لا الاستثنائية، وكأنه ينبه الشبيبة الوطنية إلى وجوب القيام بدورها الإصلاحي في الميدان التعليمي والاجتماعي للحد من التجنيد.

وظل موقف الشبيبة الوطنية من التجنيد في الجيوش الاستعمارية، في العشرينيات، واضحا وموحداً، وهو الرفض، ومحاولةُ معرفة الأسباب الداعية إلى إقبال المواطنين عليه، والعملُ على صدهم عنه، وتنفيرهم منه.

19. الوطنية في النشر المغربي الحديث، أحمد زيادي، رسالة جامعية مرقونة : 572 — 573.

ولم يتغير موقفهم هذا في الثلاثينيات والأربعينيات، ولكنه إصطبغ. بمواقف وأهدافٍ سياسية إلى حد الالتباس؛ ذلك لأن السياسة باعتبارها فنٌ إجادة رسم الخطط والاستراتيجيات ومعرفة ما يؤخذ بالقوة، وما يؤخذ باللين، شبيهةٌ بلعبة الشطرنج أو الورق، لا يُفسَّر فيها تحويل بيدق، أو كشفُ ورقة تفسيراً نهائيا أو منفصلاً عن عمليات اللعبة وأطوارها، وإنما يفسر في إطاره العام، وفي ظرفيته التاريخية؛ لأنه ليس إلا وسيلة عابرة لتحقيق غاية أو غايات أعم وأسمى.

فموقف الوطنيين الحقُّ إذن، لا يستفاد من المواقف الرسمية وما في حكمها، مثل تصريحات بعض السياسيين الطلقاء آنذاك؛ لأنهم كانوا ماسكين بأوراق اللعبة السياسية في الداخل، ولأن أول ما كان يعينهم هو استطلاع ما في يد العدو من أوراق، والتلويحُ بأوراقهم لإسقاط ما يعنيهم منها؛ وإنما يرجع إلى تصريحات ومواقف من كان منهم بعيداً عن شروط اللعبة، أو من كان منهم في مأمن من بطش قوات الاحتلال.

على ضوء هذه الحقيقة يمكننا فهم العديد من الكتابات المتناقضة في الموضوع، وقد كانت القصة من أهم الفنون النثرية التي جلّتِ الموقف الوطني الثابت من التجنيد خاصة في المنطقة السلطانية، فقد حرضت قصة (بحرية الأحلام) [20] على الامتناع عن التجنيد في الجيوش الاستعمارية، معتمدة وسائل إقناعية نفسية واجتماعية وفكرية وإنسانية، فالزوجة التي كانت تنعم بالسعادة والأمان في السنوات الأولى من الحب والزواج والأمومة، سرعان ما أصبحت تشقى بوحدتها، وثقل مسؤولياتها وذكرياتها ويأسها وملالتها، بعد استدعاء وزارة الحربية لزوجها، وتوجيهة القتال خارج الوطن.

وقد حاول الزوج التهرب مما طلب منه، لكن جميع أبواب الاعتذار سدت في وجهه، ولم يكن موقفه هنا نتيجة تخوفه من الموت، ولكن بسبب إيمانه بأن هذا النوع من الحروب ليس إلا وسيلة وحشية لقتل الإنسان بأخيه الإنسان، وغصبِ حقوقه، واستغلال خيرات بلاده.

وجاء نعي الزوج ذات يوم، فلم تقو الزوجة الشابة على تحمل الصدمة، ففكرت في الانتحار للتخلص من فجيعتها، ولكنها ما لبثت أن وجدت سبيلاً أفضل للعزاء، حينما «فكرت في أنها لست وحيدة في مثل هذا هذا المصاب، فكم من زوجات أصابهن ما أصابها. فاستسلمت للواقع، ورضيت به، ولكنها لا تفهم هذه الغريزة التي تدفع بالإنسان إلى قل الإنسان، وغصب حقوقه، والتي تجعل الشعوب تتطاحن لأتفه الأشياء، ولإشباع شهواتها الوحشية، فيؤدي ذلك إلى وقوع ضحايا برآي في الميادين» [21].

وإذا كان الكاتب لم يصرح في قصته بنوع هذا التجنيد، وَجِهَتِهِ، نظراً لظروف فقدان الحريات العامة، وتسلط سيف الرقابة على رقاب الصحف الوطنية، فإنه لمَّح إلى أن التجنيد المقصود هو التجنيد في الجيوش الاستعمارية، في إشارات عارضة مثل : «للدفاع عن حقوق بلاده في الخارج» و «الواجب المفروض»، كما ألمح إلى الحروب التي خاضتها فرنسا في الهند الصينية، وإلى شبح الحرب العالمية

---

20. «بحيرة الأحلام، أبو شفيق، العلم، 2/1375 — 1951/3/3.
21. 22. الوطنية في النثر المغربي الحديث : 838 — 839.

الثانية، ونفّر من هذا النوع من التجنيد باستبشاع نتائجه، وبشر بآثاره العكسية، حينما جعل الزوجة تنشّىء وحيدها من زوجها الضحية تنشئة قائمة على بغض مغتصبي شباب أبيه وحارميه منه ومن حنانه وحمايته (22).

3) مقاومـــة الطــرق :

تضمنت بعض الرسائل الجوابية إشاراتٍ تُشعر أن محمد داود أخذ على جماعة الرباط ــ وربما على جماعة فاس أيضا (23) ــ شدة اللهجة في مقاومة الطرقين، واقتراح عليها بعض الاقتراحات المتعلقة بوسائل مقاومة البدع. فقد جاء في رسالت (نحن والعلم) ما يلي :

«ومما يفيدكم، عكوفنا على نشر تلك المناشير التي خصصناها في أول الأمر بمحاربة البدع، ثم جهلناها عامة موافقةً منا لكم في ذلك الاقتراح، بل قبل ما نطلع على نظركم في هذا الموضع، نفذنا تعميم المنشورات كسائر أعمال الجماعة، ولا أذل ما ذكر من المنشور الأخير» (24).

وبالرغم من أن الناصري لم يجب عن الرسالة محمد داود إجابة مباشرة، فإنه وضع قضية مقاومة الطرق في إطارها الزماني والمكاني الظرفي، فقال في ديباجة رسالته (نحن والطرق) :

«كل منا يعلم ضرر الطرق، ويتيقن أنها من معاول هلاك الأمة ودواعي فسادها، ولكننا نختلف بعض الاختلاف في كمية هذا الضرر، ومقدارِ قوته، وهل القيام بمعالجته أمر ثانوي أو أساسي ؟» (25).

ففي المِنْطقة الخليفية كان المصلحون يسالمون الزوايا، وكانت الزوايا تسالمهم، وكان بعضها يحظى باحترام التطوانيين خاصة ويرتبط بهم ارتباطا روحيا حتى صار جزءً من حياتهم. بينما كان الأمر على خلاف ذلك في المنطقة السلطانية.

وقد عللت الشبيبة الرباطية حدة اللهجة وشدَّتها، وردتها إلى عدة أسباب نذكر منها :

1 ــ اتبـاع الشـرع مـن خـلال مـا جـاء فـي القـرآن والسنـة :

يقول أحمد الموذن في رسالته (نحن والعلم) :

«إننا طالما دعوناهم (يقصد شيوخ الطرق) برفق ولين، فلم يجيبوا، والإسلام يأمر بالشدة بعد اللين في النهي عن المنكر» (26).

وأكد المكي الناصري أن تنديد القَصص القرآني بالأمم الغابرة تنبيه للمسلمين حتى لا يقعوا في ما وقعت فيه، وقال :

«فهلا ستر الله عليهم ولم يذكرهم أصلاً لا بخير ولا بشر كما تريدون منا أن نستر على هؤلاء، وندع ذكرهم والخوضَ في أعراضهم. ألا ترون ــ كما نرى ــ أن في ذلك إشارة لنا من كتاب الله تعالى

---

23. نحن والطرق ترجح هذا الرأي.
24. نحن والعلم : 2.
25. نحن والطرق : 1.
26. نحن والعلم : 3.

إلى أن نتبع ذلك النهج، ونجري في ذلك السبيل حتى تتضح الخيالات من الحقائق، ويظهر المبطل من المحقق والمؤمن من المنافق ؟ اللهم إنك قد أقمت لنا الحجة وما اتبعنا من الطرق الا واضح المحجة» [27].

ووضح أن الاندماج في الطرقيين وتضحية المبادىء، من الأمور الصعبة والقليلة المردودية؛ لأن في تضحية المؤمن بمبدئه مروقاً من عقائد الشريعة الإسلامية، ورجوعاً إلى وثنية الجاهلية ــ وقال :

«نعم سنبقى كذلك محافظين على موقفنا الحالي لا نتزحزح عنه قيد شبر، فلا نضعُف في المقارعة والحجاج، ولا نُلين القول لأحد من زعماء الطرق، أولئك الذين طالما ودّوا ضعفنا وانحلالنا وخذلاننا أمامهم حتى يقوَوْا علينا جميعاً ويضربونا الضربة القاضية، أولئك الذين لا تقاومهم إلا الشدة في القول، ولا يقمعهم إلا الغلو في المبدإ كما تقولون. أما ما تنكرون علينا من الكلام في بعض مشايخ الطرق الذين عم فسادهم، وانتشرت جراثيم أدوائهم في جسم الأمة. بدعوى أنهم أموات يلزم ذكرهم بخير، تبعاً ــ في نظركم ــ للدعوة الإسلامية، وانتصاراً للحقيقة التي هي (الإسلام)، فذلك أمر ما كنا نظن أن مبلغكم من العلم يهديكم إليه. ولعل تلك الحرارة التي كانت متقدة في أدمغتكم ساعة البحث عن مبادئنا، أو تلك اللهجة الحادة التي ألفتموها طول تلك المذكرات في شأننا، هي التي حملتكم على أن تقولوا ذلك من غير تريث ولا تلبث، وعلى أن تطلقوا عنان القول لألسنتكم من دون مستَنَد ولا معتمد، فمهلاً مهلاً وخففوا عنا بعض غُلَوائِكم.

إن أئمة الإسلام أجمعوا بلسان العلم والدين على المبتدع الداعي إلى بدعته، ولو سراً من غير جهار، تجوز الغِيبَةُ فيه، بل تجب، ما دام القصد من ذلك هو تحذير المسلمين من الوقوع في بدعته. والنصيحةُ لهم حتى لا يسقطوا في شبكته» [28].

2 ــ الاستفادة من تجربة الوطنية في مصر واتخاذ العبرة من بلاد المشرق والمغرب:

فقد حذر أحمد الموذن من خلال الطرقيين وخطرِ أساليبهم في مواجهة خصومهم، وعدم إحجامهم عن قلتهم إذا يئسوا من إخراس ألسنتهم، وضرب أمثلة على ذلك بكيد الطريقة الرفاعية بجمال الدين الأفغاني ومحنة عبد الحميد باديس، وقال :

«ثم إننا إذا نظرنا بعين المعتبِر إلى نجاح المصريين وسرِّ تقدمهم أدبيا واقتصاديا وسياسيا نجدُهم ما أحرزوا على هذا التقدم الباهرة إلا بعد ما حاربوا المبتدعين بلهجة أقوى من لهجتنا (في اليوم الذي كانت قضيتهم لا زالت في طور التكوين)» [29].

وعلل الشدة على الطرقيين في مقاومة أضاليلهم بقوله :

«إنها أدعى للوفاق؛ لأن الخصم إذا كان لا حجة له تسلط عليه ضميره وجعله يؤنبه ويوبخه على إنكاره للحقيقة إلى أن يثوب إلى رشده، ويعترفَ بخطئه لصاحبه، وهذا فيما أظن هو السر في تضامن الطرقيين مع المصريين اليوم بعد أن حاربوهم خمسةً وعشرين سنة كاملة» [30].

---

27. 28. نحن والطرق : 4.
29. نحن والعلم : 2.
30. نفسه : 3.

وقد تضمنت رسالة (نحن والطرق) ما يفيد أن محمد داود دعا جماعتي فاس والرباط إلى ملاينة الطرقيين لتحقيق الامتزاج والاتحاد على غرار ما وقع في مصر، فوضح كاتبها خصوصية التجربة المصرية بقوله :

«وأما تلك المقابلة التي ذكرتموها ضمن أبحاثكم وأفضحتم فيها عن امتزاج المصريين متصوفيهم وملحدهم ومسلمهم وقبطيهم في ساعة حمل لواء مصر لواء مصر في الهلال والثلاث الأنجم، وفي وقت النداء بالاستقلال ورياسة سعد وامتلاك المصريين لمصر والسودان، فهي ــ أي تلك المقابلة المقصودة ــ خيال سام لطيف يدفع الإنسان إلى التعمق في الخيالات والخروج من ميدان الحقيقة وهي أمنية تصبو إليها نفوس الأحرار، وتعشقُ الوصول إليها بل تهيم بحبها وتتيه عند ذكرها. ولكن أليس ذلك من الخروج عن الموضوع والانتقال من الحقيقة إلى الخيال ؟ أليس هذا هو عين الطفرة التي يدعونا الأستاذ ــ من جديد ــ إلى تجنبها، ونسفه جميعاً رأي القائلين بها ؟

إن تلك الحالةَ التي صارت عليها مصر في العصرِ الأخير، هي نتيجة جهادٍ كثير من زعماء أبنائها الشهداء، وثمرةُ غَرْس دعاة الوحدة الوطنيةُ، أولئك الدعاةُ الذين ساعدتهم ظروفهم بعض المساعدة على نشر تلك الدعوة وترويج بضاعتها بين طبقات الأمة حتى انتجت لهم هذه الثمرة الطيبة. ولا يغب عن ذهنكم ــ خدمة للحقيقة ــ أن العامل الأكبر في ذلك والدافع لفقراء المتصوفة إلى الوقوف بجنب إخوانهم في الوطن متفقين على كلمة واحدة هو ذلك التأثر والانفعال الذي تثيره كلمات شيوخهم، وتنمي عاطفته في نفوسهم. أولئك الشيوخ الذين لا نعرف عنهم أنهم خدمة السياسة وخونة الدين والوطن، أولئك الشيوخ الذين يعتقدون أن رفاهيتهم وحياتهم في رفاهية مصر وحياتها. ومن أجل ذلك سعى زعيم مصر وأبوها في توحيد صفوف الأمة ــ ومن بينهم فقراء الصوفية ــ بعد أن مديده إلى شيوخهم فكانوا له خير معين [31].

3 ــ شدة الطرق نفسها وخطرُ انحرافها :

يقول المكي الناصري وهو يستعرض مظاهر تضليل الطرق للناس وإفسادِها المعتقداتهم :

«هذه حالة الطرق، وهذه حالة المسلم أمامها، فكيف لا نجعل القيام ضدها من مبادئنا الأساسية ؟ وكيف لا تكون لهجتنا في الدعوة لمحوها لهجة قاسية ؟؟ وهل في المعتقد أننا إذا تركنا كلا على حاله تتحد قلوبنا، وتجتمع كلمتنا، ونحملُ لواء الوطن كما حمله فقراء مصر !؟ وهل من المقبول في العقل أننا إذا ألنا في القول لهؤلاء المخالفين اجتمعوا حولنا وقدناهم إلى طريق الحق وصوبَ الحقيقة ؟ والحال أن في طليعتهم رؤوساً كبيرة للفتن لا زالت تتمرد على الحق وتطغى على الدين، ومن السهل عندها أن تقضي بنفوذها على الدعاة المستضعفين، مع أن تلك الرؤوس قد أينعت وحان حصادها. وجاءت الفرصة التي يمكن أن تُحْسَم فيها داؤها وينقطع فسادُها. أليس من الخور في العزيمة أن لا ننتهز الفرصة، ونتجرع بعد فواتها كل غصة ؟ وهل من الرأي أن نُحْجِمَ في موقف المدافعة، ونَدَعَ الحجة عند المرافعة ؟» [32].

---

31. نحن والطرق : 7.
32. نفسه : 2.

وقد أثار كتاب «إظهار الحقيقة في علاج الخليفة ردوداً عنيفة، لم تقف عند حدود المشادات الكلامية والمواجهات الشفوية، بل تعدتها إلى تآليف، فأصدر محمد الشرقاوي كتاباً هاجم فيه صاحب الإظهار وأنصاره من الشبيبة الوطنية بعنوان «غاية الانتصار في نهاية الانكسار»، وألف الغربي كتيبا تحت عنوان «تحفةُ المنصفين وتذكرةُ المخالفين»، مؤيدا فيه الشرقاوي ومن كان وراءه. وألف محمد بن الناصري كتابه «ضربُ نطاق الحصار على أصحاب نهاية الانكسار» انتصاراً لأخيه وللوطنيين الشباب وصدّره بتقاريظَ للعديد منهم.

وعن تلك التآليف المضادة يقول المكي الناصري :

«أليس في هذا أعظمُ داع يدعونا إلى هذه الوقفة الحاضرة ويبررُ لهجتنا الحادة ـــ إن كانت حادة حقيقة ـــ في هذا الموقف الحالي ؟ وما هو نظركم أنتم إزاء هذا الموقف ؟ أهو السكوت أم الكلام، أهو اللين أم الشدة، أهو التوسط أم الغلو؟؟؟..

نحن نرى أن سيل التآليف سيل مفعم وبحرها بحرٌ زاخر، ونعلم أن وراء الأكمة ما وراءها فلو جادَلْنا هؤلاء بالتي هي أحسن ـــ وهم مكابرون لا يتطلبون الحقيقة ـــ لخسرنا كل شيء، ولا نهالت علينا قنابل الطرق مما يجعل ميداننا قاعاً صفصفا، ويترُكُنا أخسر الناس صفقة، ويصيرُ مركزنا متضعضعا على الدوام. ولو جرينا في هذه الحالة الحاضرة على تلك الخطة التي خططتموها لنا لكنا أشد الناس إعانة للطرق، ولبذلنا للمبتدعين خدمة جُلى، ولفسحنا لهم المجال ليُلقوا شبهاتهم على بسطاء الأمة وضعاف العقول فيها بمرأى ومسمع من المصلحين. ونحن نسعى في أن نسد أمامهم باب التأليف والنشر، ونودُّ أن نقف لهم حجر عثرة في كل ما يؤدي إلى تعضير مشروعاتهم الباطلة وخدمةِ مبادئهم الضالة؛ لأنهم أباس جبلهم الله على الجمود والفزع، وطبع قلوبَهم على الخوف من كل قوة، والجزع من كل صيحة بمقتضى ما ألفوه من الاستكانة أمام المخلوق وعبادة الموتى، والسجودِ لهم والاستنجادِ بهم. ولقد قال تعالى : «لن يضروكم إلا أذى، وإن يُقاتلوكم الأدبار ثم لا يُنْصرون» [33]. ومن أصدق من الله حديثا ؟..» [34].

4 ـــ كـون المصلحيـــن شبـــانـــا :

قال محمد اليزيدي في رسالته «نحن والطفرة» :

«ولحدة لهجتنا أسباب أخرى، في مقدمتها كونُنا شباناً ـــ وما أدراك ما حمية الشباب ـــ فهي مفرقعاتٌ تقذفُ من فولاذ خالص صقيل» [35].

وبصفة عامة، إن محاربة الطرق لم تكن حربا دفاعاً عن مصالح شخصيةٍ خاصة، وإنما كانت تحريراً للنفوس من سيطرة الشيوخ، وتحريرها من شراك تعاليمه الضالة، واستخلاقها حرة نقية لبث المبادىء الوطنية فيها. يقول صاحب (نحن والطرق) :

---

33. آل عمران 111/3.
34. نحن والطرق : 2.
35. نحن والطفرة : 2 ـــ 3.

«هل ترون من الممكن لنا ـــ ونحن بين أولئك الذين تعرفونهم ـــ أن ندعو الناس إلى الوحدة الوطنية، أو نبث فيهم الشعور الوطنية جِهارا، أو نُفصح عن واجبات الوطن على بنيه باسم الوطن والوطنية ؟ تلك الكلمة التي ترتعد منها فرائض المستعمرين، وترتعش منها جلودُهم، ويحسبون لها ألف حساب. وهل ترون أن فكر الأمة قابل لهذه الدعوة وهو ملطخ بخرافات التفريق والعصبية للنسب، والأمة كلها أوزاع وأخلاط بين عرب وبربر تأصلت فيهم العداوات الجنسية فصاروا لا تجمعهم جامعة سوى جامعة الدين أي جامعة الشهادتين ؟ ولا تنسُوا هنا ما للطرق من آثار سيئة في هذا التفريق وإحداثِ الشقاق والبغضاء بين سائر أفراد الأمة ـــ الأمر الذي هو من الأسباب الرئيسية في محاربتنا للطرق والشدة على أصحابها حتى يرجع الناس إلى الصراط السوي، صراط الله العزيز الحميد» (36).

وقد ورد في رسالة (نحن والطفرة) ما يفيد أن محمد أخذ على جماعة الرباط، بالإضافة إلى الإغلاظ والغلو، العجلة في الإصلاح وعدم التدرج فيه، فقد جاء فيها :

«لعل شدة لهجتنا في الكلام وإغلاظنا في الانتقادهما اللذان أديا بكم إلى رمينا بما كان لا يخطر لنا ببال، ولقد أخذنا منا العجب غايته؛ لأننا كنا نستبعد صدور تلك الفكرة من مثلكم، أو ما علمتم أننا نسعى في محو السبل التي حذر منها نبينا عليه السلام أصحاب وفي قيادة الناس إلى الصراط المستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات والأراض ؟ وإنسان هذه هي الأمانة التي عرض على نفسه جدير به أن يحذو حذو صاحب السنة، ويقتدي بأساليبه، ولا يترك فرجة لليأس الذي يحبط الأعمال، ولا للعجلة التي هي من الشيطان» (37).

وقد كان من بين جماعة الرباط من يؤمن بأن خير وسيلة لتحقيق الاتحاد بين الشبان ورجال الطرق والزوايا هو دعوتهم إلى الاتكال على النفس بتعلم العلم، وتعاطي التجارة والحرف،،عبد الكبير الفاسي :

«فإذا قدّروا الحياة الاستقلالية حق قدرها، فإني أضمن لسعادة الأستاذ أن لا يعودوا لحياة المتطفلين. ودليلي على ذلك هو أن بعض رؤساء الزوايا والطوائف قد نفضوا أيديهم من غبارها، ونبذوها نبذ النواة، وأخذوا يتعاطون العلم والفلاحة والتجارة، واتحدوا معنا على مقاومة الطرق وإماتة مبادئها، وفهموا معنى الوطن ومعنى الوطنية، وصاروا يخدمون لصالح الأول وينشرون مبادىء الثانية» (38).

وتضمنت رسالة (اتحاد الكهول والشبان)، علاوة على ذلك عبارة تؤكد إيمان محمد داود بأن الاتحاد بين الكهول والشبان من الوسائل الفعالة في إصلاح الأمة، لكن عبد الكبير الفاسي رأى أنه بهذا يجعل الوسيلة مقام الغاية والغاية مقام الوسيلة، وأنه يضع الشباب والشيخ على قدم المساواة من المعلم والفهم والوعي والحماسة والغيرة الوطنية والحرص على خدمة الصالح العام، وأكد أن التفاهم بين جيل الأجداد وجيل الأبناء لن يتم أبداً إلا بواسطة جيل وسيط هو جيل الآباء.

---

36. نحن والطرق : 7.
37. نحن والطفرة : 1.
38. اتحاد الكهول والشبان : 2.

لقد كان محمد داود يرى أن الإصلاح لن يتم الابتصالح وطني بين مختلف الطوائف والطبقات والفئات وتوحيد الصفوف وجمع الطاقات وتوفير الجهود لمواجهة العدو الحقيقي والمشترك على غرار ما حدث في مصر أيام سعد زغلول ــ لذلك اعتبر الصراعات والخلافات بين عناصر الأمة حول أهم القضايا الوطنية وسائل ومناسباتٍ لتصفية الأجواء وتنقيتها لا غاياتٍ وأهدافا تطلب لذاتها. وانطلاقا من هذا الموقف نجده حينما يخطط لمقاومة المستعمر يدعو إلى الشدة والقوة والانتقام، وحينما يخطط لمقاومة الطرقيين يدعو إلى اللين والتدرج مصدقاً لقوله تعالى : «أشداءُ على الكفار، رحماءُ بينهم» [39].

والحق أن أساليب الشبيبة الوطنية في المنطقة السلطانية في مقاومة الطرق قد تعرضت لانتقادات عديدة من طرف بعض أعضاء جماعاتهم البارزين.

من ذلك انتقاد أحمد بناني سنة **1941**، على لسان أحد أبطال قصته (صراع) [40] وسائل مقاومة الطرق، وتشكيكه في نتائجها، وتأكيد أنه على الرغم من أن الشبيبة السلفية نجحت فعلاً في تطهير العقيدة من الخرافات، وتحرير العقول من سلطان الشعوذة والتدجيل، فإنها أثرت تأثيراً تسلبيا على العقيدة في مجال الممارسة الدينية والاجتماعية، فهي التي أغرت دعاتها وأتباعها بالنقد العنيف المتطرف، وزرعت في قلوبهم هاجس الشك في كل شيء في الدين نفسه، وعصفت بمُثُلِه وقيمه، وهدمت العلاقة الروحية المثالية القائمة بين المتصوفين، وفي هذا الشأن يقول عن المتصوفة :

«فتعاليمهم ربما تكسو العقيدة، في بعض الأحيان، حللاً كثيفة، ولكن أصول الدين تبقى ثابتة، ويبقى وازع الدين القوي قائما في النفوس، وقد تقضي تعاليمُهم على ملكة عقول أتباعهم فيعتقدون في أوهى الخرفات وأبعدها عن الصواب، ولكن هناك حقيقة لا جدال فيها ولا مراء، فكم من نفوس لا يأتيها الخير.ولا يستقيم أمرها، ولا تتبع طريق الرشاد إلا إذا كان قائدُها تلك النزاعات الصوفية وهب أن هذه النزعات خرافاتٌ وأباطيلُ كما تدعي، وأنها، حسب مذهبك، تفعل بالنفوس ما تفعله السموم بالأجساد، ألا تعلم أنه كم من أمراض لا علاج لها إلا السمُّ الفتاك ؟» [41].

وقوّم محمد المختار السوسي الحركة السلفية المغربية في المجال الديني فانتهى إلى أنها لم تقو على تحقيق مطامحها الدينية، وقال لعبد العزيز بن إدريس ــ أحدِ رفقائه الوطنيين في معتقل اغبالو وانكردوس بالصحراء :

«إلى متى نهدم الطرقيين والعلماء بحجة أنهم يعتسفون، ثم لا يبرز منا من يسدّ ذلك المَسَدّ ويكونُ خير مثال لما نريد عليه رؤساء الدين والعلماءَ المستقيمين. وإلى متى ونحن نلوك السلفية أقوالاً فارغة تحوم حول تنطعاتٍ ومهاجماتٍ، ثم لا نرى أثراً للسفلية الحق التي نتصورها في أمثال ابن القيم صلابة وعقيدة وتضحية وعلماً واسعاً من الحديث ومن الأذواق» [42].

---

39. الفتح 29/48.
40. صراع، أحمد بناني، فاسع في سبع قصص : 125 ــ 138.
41. الوطنية في النثر المغربي الحديث : 228.
42. معتقل الصحراء 187/1 ــ 188.

لقد استوعب الشاب محمد داود أسباب اختلاف الرؤى والاقتناعات بين عناصر الشبيبة المغربية الناتجة عن اختلاف المعطيات السياسية والاجتماعية والثقافية وتباين الظروف في المنطقتين، وصاغها في أسئلة جوهرية نابتة حددت مظاهر الاختلاف، وامتصت أسبابه، واستحضرت أبعاده، فكانت دعوة وطنية أصيلة وصادقة وعميقة وملحّق لتوحيد أفكار ومواقف الشبيبة الوطنية المغربية في الشمال والجنوب، تجاه أبرز القضايا التي كانت تشغل بالها، وتتجاذب خطاها في مرحلة التأسيس للحركة الوطنية، وكانت ترسيخاً الممارسة الحوار الديمقراطي المسؤول وتعقيلاً للحماسة الوطنية الرعناء وتثقيفاً للآراء الرائجة بيم أفراد الجماعات وترشيداً لها وتأكيداً لضرورة الجمع بين التكوين الثقافي والسياسي داخل الخلايا الوطنية، وكان من شأن ذلك أن يحدد السماتِ العامةَ المثاليّةَ لوجهة الشبيبة الوطنية في فترة مبكرة من مسيرة الوطنية المغربية.

الدار البيضاء
23 نونبر 1989

«ملاحظات حول مقدمة كتاب تاريخ تطوان للفقيه محمد داود»

امحمد بن عبود

لم يتطرق الفقيه محمد داود لموضوع تاريخ تطوان بالتفصيل في مقدمة كتابه «تاريخ تطوان» فهل يعود ذلك إلى رغبته في مُجانبة التكرار أم إلى عوامل أخرى ؟ لا يعود هذا الاختيار إلى إهمالٍ أو إغفالٍ أو تناقضٍ من طرف المؤلف بقدر ما يعود إلى وَعْيِهِ بضرورة تفسير الدوافع التي أدّت به إلى اختيارِ موضوع للبحث التاريخي استغرق جلَّ حياتِه وإلى رغبته في تحديد الإطار العام الذي أراد أن يدرس فيه هذا الموضوع، علاوة على اقتناعه بضرورة تحديد بعض عناصر المنهج الذي فضله لإنجاز مشروعه الضخم.

يمكن لنا من قراءة مقدمة الفقيه محمد داود «لتاريخ تطوان» أن نخرج بتصورٍ لهمومه الثقافية وللاهداف الرئيسية التي يجب على المؤرخ أن يحققها في إطار إنجاز مشروع كتابة تاريخ المغرب. لقد شكل مشروع كتابة «تاريخ تطوان» بالنسبة للفقيه محمد دواد مساهمة في إنجاز مشروع أضخم وهو كتابة تاريخ المغرب، لذلك خصص مقدمة كتابه لمناقشة أحكامه حول التأريخ عموما كما حاول أن «يبرر» أهمية مشروعه لكتابة تاريخ تطوان اعتماداً على مجموعَةٍ من الأفكار والحجج التي تَعْكِسُ الظروفَ التاريخيةَ التي شرع الفقيه محمد داود خلالَهَا في إنجاز مؤلَفِه. إن تلك الظروفَ التاريخية التي عاشها المغربُ في ظل الاستعمار الفرنسي والاسباني قبل الاعلانِ عن الاستقلال سنة 1956، هي التي نشأ فيها المؤرخُ محمد داود وهي التي ساهمت في تكوين شخصية مؤرخِنَا وتوجيهِهِ في الاتجاهِ الذي أدّى به إلى الشروع في إنجاز مشروع «تاريخ تطوان» بالطريقة التي نعرفها الآن.

وهكذا قدمت مدينةُ تطوان التي أرّخ لها الفقيه محمد داود مُؤَرِّخاً مغربيا متميزا أرخ لوطنه من خلال تأريخه لمدينته.

I. «تاريخ تطوان» وتاريخ المغرب

1. مساهمة مشروع كتاب «تاريخ تطوان» في مشروع كتابة تاريخ المغرب.

أ. ارتباط الفقيه محمد داود بالمدرسة التاريخية المغربية «التقليدية»

يعتبر «تاريخ تطوان» للفقيه محمد داود إحدى المساهمات الهامة في إطار الاتجاه الذي سلكه مجموعة من المؤرخين المغاربة الذين عاشوا في أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن

العشرين. وكان بعضُ هؤلاء المؤرخين مِثْلَ الناصري صاحب «الاستقصا» مَوْضِعَ النقد من طَرَفِ بعضِ المؤرخين المغاربة الذين تخصصوا في التاريخ المغربي خلال القرن التاسع عشر مثل الدكتور عبد الله العروي وخلال الستينات كان «تاريخ تطوان» للفقيه محمد داود موضوع نقد منهجي بلهجة قوية بقلم مثقف مغربي متخصِّص في الاقتصاد هو الدكتور فتح الله ولعلو وذلك على صفحات إحدى الجرائد اليومية المغربية. ومع ذلك فإن هذه المدرسة التاريخية «التقليدية» تتميز بإيجابيات كثيرة كما أنها سَاهمت في تكوين تصورِنا الحالي للتاريخ المغربي خصوصا خلال القرن التاسع عشر.

لقد أعلن الفقيه محمد داود عن انتمائه لهذه المدرسة في مقدمته وذلك عند تنويهه بالمؤرخين التاليين : الفقيه أحمد الرهوني مؤلف كتاب «عمدة الراوين في تاريخ تطاوين» والمؤرخ أحمد الناصري «صاحب الاستقصا...» والمؤرخ عبد الرحمن ابن زيدان صاحب كتاب «اتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس» والمؤرخ المراكشي القاضي العباس بن إبراهيم مؤلف كتاب «الأعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام».

كان للفقيه محمد داود اتصالٌ مباشرٌ بهؤلاءِ المؤرخين كما اطلع على مؤلفاتِهم ودرسها دراسة دقيقة، وكان لبعضِها، خصوصا كتاب «عمدة الراوين» للفقيه الرهوني تأثيرٌ مباشرٌ في (جعل) تاريخ تطوان موضوعاً لاهتمَاهِهِ. وينعكس انتماء الفقيه داود إلى هذه المدرسة في موضوع تخصصه وفي تشابه الاختيار المنهجي الذي سَلَكَهُ مع مناهج المؤرخين المذكورين أعلاه وفي الأهداف التي حاولوا جميعا تحقيقها.

ب. ربــط المدينــة بالاطــار الوطنــي

هناك قاسِمٌ مشتركٌ بين الفقيه محمد داود والمؤرخين الذين ذكرنا مُؤَلَّفَاتِهم أعلاه ضمن المدرسة التاريخية المغربية «التقليدية». إنه يتجلى في ربط المدينة التي وقع اختيارُ المؤرخ على **تأريخها في** إطارِها الوطني. وتتجلى الأهميةُ المنهجية لهذا الاختيار في نقطتين : أَوَّلُهُمَا الوعيُ بضرورة تحديدِ الخطوطِ العريضةِ للتاريخ الوطَنِي المغربي وتحديدِ بعضِ عناصِره الأساسيةِ وثانيهما الوعيُ بضرورَةِ التخصصِ في محورٍ أو موضوعٍ تاريخِيٍّ محددٍ من حيث المحتوى والمكانُ والزمانُ قصد تحديد المنهج الذي يمكن بواسطته السيطرةُ عليه. لقد خَصَّ كلٌّ من الفقيه محمد داود والفقيه أحمد الرهوني والفقيه القاضي ابن إبراهيم والمؤرخ ابن زيدان والمؤرخ الناصري مدينَتَهُ موضوعا للبحثِ، ولكنهم حاوَلُوا جميعاً بِطُرُقٍ مختلفةٍ وبدرجاتٍ متفاوتَةٍ الربط بين المدينة وإطارِها الوطنِي. فمثلا، بالنسبة لـ «تاريخ تطوان» و «الاستقصا» و «اتحاف اعلام الناس» يمكن تحديدُ مساهمتِها في التأريخ المغربي في النقط التالية :

أولا، لقد استطعنا بفضل هذه المؤلفات أن نخرج بتصورٍ أوضحٍ لتاريخ مدينة تطوان ومدينة مكناس ومدينة مراكش. مثلا، رغم الانتقادات التي يمكن توجيهُها لكتاب «تاريخ تطوان» لا يمكن لأحدٍ أن ينكر مساهمَتَه في إبرازِ البعدِ الاجتماعِي في تاريخ هذه المدينة. ومن المؤسف أن عدداً من المدن المغربية الأخرى، لم يُؤَرَّخ لتاريخِهَا الاجتمَاعِي كما فعل الفقيه محمد داود في «تاريخ تطوان».

• **ثانيا** لقد ساهم محمد داود ومجموعةُ المؤرخين الذين ذكرنا مُؤَلَّفَاتِهم حول مُدُنٍ مغربيةٍ مختلفةٍ في التاريخ لأهم الأحداث التاريخية المغربية خصوصا خِلال القرن التاسع عشرَ كمعركة إسلي ومعركة

تطوان. وتتجلى أهميةُ هذه المساهمةِ أيضاً في نقْلِ نصوصِ عددٍ من الوثائِقِ الهامَةِ خصوصاً المخزنية منها وهذا شيءٌ طبيعِيٌّ نظراً لارتباطِ جميعِ هؤلاءِ المؤرخين بالمخزن مِهْنَةً مثلاً، خِلَافاً للجزء الأول من «تاريخ تطوان» إن الجزء الرابعَ يَتَكَوَّنُ من قسمٍ عنوانه «من وثائق الهدنة والصلح» (ص. 263 — 365) كما أن الجزءين السادسِ والثامن عبارة عن مُخْتَارَاتٍ من الوثائق مُصَنَّفَةً حسب المواضيع. وَتَتَجَلَّى أهميةُ نقل هذه الوثائق في حُسْنِ أختيارِ المؤرخ من جهة وتوفيرِها للباحثِين من جهة ثانية.

ثالثا، إن اختيَارَ الفقيه محمد داود وغيرِهِ من المؤخين الذين ذكرناهم للتركيزِ على مدينةٍ معينةٍ مع ربطِها بإطارِها الوطني يكتسِي أهميتَهُ فِي كون هناك اتفاقاً شِبْهِ مُطْلَقٍ لدى المؤرخِينَ في الجامعات المغربية على ضرورَةِ اعادَةِ النظرِ في تَصوُّرِنَا الحالِي لسيرورة تاريخِنا الوطنِي وذلك بعد إنجازِ دارساتٍ متخصصةٍ في جوانبِ محددةٍ لتاريخ مناطِقَ مُعَيَّنَةٍ والتَّعَمُّقِ فِيهَا قبلَ الخروج بتصور شمولي للتاريخ المغربي. طبعا، إن الفرقَ بين هؤلاء المؤرخين والمدرسة التاريخية «التقليدية» يتجلى في اختيار مناهج حديثةٍ وتطبيقِها على مناطق محددةٍ، ولكن هناك قاسمٌ مشتركٌ بين الاتجاهين. إنه يتجلى في الأولويةِ التي يجب أن تخصصَّصَ للتوثيقِ كما يظهرُ في الاتفاقِ على ضرورةِ البدايةِ بالجزء أو بالأجزاءِ ودراسَتِهَا دراسةً عميقةً قبل الانتقالِ إلى وضعِ تصور للكل. لذلك أصاب الفقيهُ محمد داود عندما اختار دارسةَ تطوان والتعمقِ فيها بصفتِها جزءاً من الوطن المغربِي.

لقد عبر الفقيه محمد داود بوضوحٍ عن ضرورة التخصص في مناطق معينةٍ قبل محاولةِ الخروج بتاريخٍ وطني شمولي في الاقتباس التالي :

«أقول هذا وأنا أعلم أن قيام شخص واحد بكتابة تاريخ أمة كاملة في مختلف عصورها ومن جميع نواحيها، ان لم يكن مستحيلا عادة فانه على الأقل من الصعوبة بمكان، خصوصا إذا كان تاريخ أمة لعبت أيدي الأهمال بالكثير من وثائقها ومستنداتها، فلهذا أرى من الواجب الوطني الآن أن يَكْتُبَ كُلٌّ من يستطيعُ الكتابةَ، عن الناحيةِ التي يعرفها، وفي الموضوع الذي يحسنه، وبالأسلوب الذي يُتْقِنُهُ أو يستحسنه، ومن مختلف تلك الكتابات والأساليبِ التي قد تجمع بين الغثّ والسمينِ تُجْمَعُ المعلوماتُ الكافيةُ لكتابة التاريخ الوطني الجامِعِ للنواحي السياسيةِ والحربية، والعلمية والأدبية، والاقتصادية والاجتماعية» (1).

2. الروحُ الوطنيةُ دافعاً لمشروعِ «تاريخ تطوان»

أ. الحماس الوطني في مقدمة «تاريخ تطوان».

يَبْدُو الحماسُ الوطنيُّ واضحاً في مقدمة الفقيه محمد داود وفي أجزاءٍ مختلفةٍ لـ «تاريخ تطوان»، ويعود ذلك إلى ارتباطِ مؤرخِنا بالحركةِ الوطنيةِ المغربية في تطوان ومساهمتِه فيها على مستوى النضالِ السياسي والنشاطِ الصُّحُفِي والثقافِي والفكري. لَقَدْ تطرَّقَ غيرُنا لهذا الجانب في إطار هذه الندوة بالتفصيل ولكننا نريد فقط أن نشير هنا إلى التعبيرِ عن الروحِ الوطنية التي ناضل من أجلها ضمن مقدمته.

1 . محمد داود، «تاريخ تطوان»، الجزء الأول، تطوان، مطبعة كريماديس 1959، ص 25.

لقد عبر المؤلف عن حبه لوطنه واعتزازه به في قوله : «لقد قَضَى وطنُنَا المغربِيُّ العزيزُ حياتَه منذ وصول الاسلام والعروبة إليه إلى قرننا هذا الذي نعيش فيه، وطناً حُرّاً عزيزاً في نفسِه، مستقلا في إدارة شؤونه وسياسته»... [2].

يمكن تفسير تعبيرِ مؤلِفِنا عن حماسه الوطني في مقدمته بتداخلِ البعد السياسي والذاتي وجانبِ المؤرخ في شخصيةِ الفقيه محمد داود.

ب. تأثير الظروف السياسية التي ظهر فيها الجزء الأول من تاريخ تطوان.

ومما يفسِّرُ تعبيرَ مؤلفِنَا عن عواطِفِه الوطنية في مقدمة الظروفُ التي ظَهَرَ فيها الجزءُ الأوَّل من «تاريخ تطوان» والذي وضع فيه المؤلفُ مقدمتَه. يعتبَرُ هذَا الجزْءُ من الكتبِ التاريخية المغربية الأولى بعد الإعلانِ عن الاستقلال. لذلك لا يجبُ علينا أن نستغْربَ لكونِ هذه المقدمةِ لكتابٍ صدر سنة 1959 تَعْكِسُ الحماسَ الوطَني الذي شعر به المؤلف. لقد كانت النخبةُ المثقفةُ والشعبُ المغربِيُّ بأُكمَلِهِ متحمِّساً خلال تلك المرحلةِ الانتقاليةِ من عصرِ الحماية إلى عهد الاستقلالِ السياسي. كما أن الجزء الأوَلَ من «تاريخ تطوان» صدر ضمن منشوراتِ معهد مولاي الحسن بتطوان وهو معهدٌ ترأسَهُ الفقيهُ سيدي عبد الله كنون رحمه الله خلال عصر الحماية الاسبانية فَوجَّهَهُ اتجاهاً وطنياً سليما وشكل مؤسَّسَةً للبحثِ العلمي لم يعرف لها مثيلٌ آنذاك في مدينةٍ مغربيةٍ أخرى لا في الشمال ولا في الجنوب. لقد ظهر إذاً الجزءُ الأوَل من «تاريخ تطوان» في إطار مجموعةٍ من الابحاثِ الوطنيةِ، ضَمَّتْ أقلاماً من شَمَالِ المغربِ وجنوبه مثل الاستاذ محمد المنوني والفقيه التطواني وعبد العزيز ابن عبد الله، بل ومن المشرق. وهذا الجزء يَعْكِسُ استمراريَّةَ انتاجِ هذه المؤسسةِ أيضا خلالَ السنواتِ الأولى بعد الإعلانِ عن الاستقلال.

لقد كانت فكرة ضرورة محافظة المغرب على استقلاله حاضرة في مقدمة الفقيه محمد داود. عبر عنها مثلا عندما أشار إلى محافظة المغرب على استقلاله فِي وقت فشلت فيه عدد من الدول في تحقيق ذلك. جاء في حد تعبيره :

«وفي الوقت الذي كانت بلادٌ شرقيةٌ كثيرةٌ تَرزَح تحتَ أَثْقَالِ الاستعمارِ الأجنبِي، كان «المغرب» يتمتع بكاملِ حريته واستقلاَله. محفوظَ الكرامَةِ مَهِيبَ الجانِبِ في الشرقِ والغربِ، إلا أن دوامَ الحال مُحَالٌ، فالعَظَمَةُ ما دَامَتْ لدولةٍ ولن تدومَ، والتَأَخُرُ والانحطاطُ ما دَامَ أيضاً ولن يدومَ...» [3].

3. ربط الماضي بالمستقبل في إطار رؤية متفائلة

لقد عبر الفقيه محمد داود في مقدمته عن نظرته المتفائلة نحو مستقبل أفضل كما نرى في الاقتباس التالِي : «... إلاَّ أنَّ الذي يَسُرُّ ويَفْتَحُ أمامَنَا أبوابَ الأمل على مِصْرَاعَيْهَا، هو أن أمَّتَنا قد

---

2 . نفس المرجع، ص 24.

3 . نفس المرجع.

أصبحت الآن شاعرةً بالواجبِ عليها لوطنِها، عارِفَةً، لِحُقُوقِها وَوَاجِبَاتِهَا، وأَخَذَتْ تَعْمَلُ بالوَسائِلِ العَمَلِيَّةِ والعِلْمِيِّةِ لاسترجاع ماضِيها المجيدِ، أَخَذَ الله بِيَدِها حَتَّى تَبْلُغَ مُبْتَغَاهَا من الحياةِ السعيدَةِ...» [4].

لقد أَصَرَّ الفقيه محمد داود على ربط الماضي بالحَاضر والمستقبل وعبر عن تفاؤله في إطار واقعي. لقد طرح مشاكل لا تزال مطروحة على الساحة الوطنية إلى يومنا منها مسألة العُروبة والاسلام والاستقلال والحرية والاستيلاب الثقافي وضرورة القدوم على الاصلاح وكتابة تاريخ مناطق معينة وتايخ المغرب والمغرب العربي من جديد بطر يقة علمية علاوة على الاستفادة من هذا التاريخ قصد بناء مستقبل أفضل. إن الفقيه محمد داود يعبر عن هذه القضايا في الاقتباس التالي :

«لقد رأيتُ... أنْ أسُدَّ ثَغْرَةً فِي ناحيةٍ من نواحي تاريخِنا المغربي، بِجَمْعِ هذه المعلوماتِ عن مدينة «تطوان» مَسْقَطَ رأسِي ومَوْطِنَ آبائِي وأجدَادي منذُ الهجرة الأندلسيةِ الإسلاميةِ إلى المغرب. والمعلوماتُ عن مدينةِ «تطوان» المتواضعَةِ، معلوماتٌ عن مدينةٍ وعن سكانٍ مغربِيِّين، وتطوانَ وناحيتها ليستْ سوى قطعَةٍ من البلادِ المغربية الناهِضَةِ الآن وما البلادُ المغربيةُ وسكانُها، وأعني بلادَ المغربِ العربي بأقطارِهِ الثلاثةِ تُونسَ والجزائرَ والمغربَ، إلا الشِقُّ الأَيْسَرَ من جسمِ بلادِ العروبةِ المجيدَةِ، مَوْطِنِ النُّبلِ والشهامَةِ، والنَّجْدَةِ والمُرُوءَةِ. وما بلادُ العروبةِ إلا جزءٌ من العالمِ الاسلامي العظيمِ، هذا العالمُ النَّبِيلُ الناهِضُ النشيطُ الذي نفَضَ عَنْهُ غُبَارَ الخُمولِ، وكسَّرَ القيودَ، وحَطَّمَ السلاسِلَ والأَغلاَلَ، وأخَذَ يَسْعَى للتوحِيدِ والتقدُّمِ نحو الرُّقِيِّ والمجْدِ، لحمْلِ رايةِ العَظَمَةِ والسُّؤْدَدِ، فَحَيَّاهُ الله وسَدَّدَ خُطَاهُ وأَيَّدَهُ وَنَصَرَهُ» [5].

II. البعد التأريخي والمنهجي في كتاب «تاريخ تطوان».

1. الموضوعية والنقد التاريخي

كان الفقيه محمد داود واعياً كُلَّ الوعِي بِصِفَتِهِ مُؤَرِّخاً بضرورة الالتِزَام بالموضوعية في كتاباته التاريخية ولكنه كان في الوقت نفسه يعرف حدود تحقيق الموضوعية بكيفية مطلقة. يمكن تحديد موقفه من الموضوعية في القول بأن الموضوعية المطلقة لا يمكن تحقيقها في المجال التأريخي ومع ذلك يجب على المؤرخ أن يحاول الاقتراب من تحقيق هذا الهدف باقترابه من الواقع التاريخي الذي وقع اختياره على دراسته. يعبر مؤلفنا عن هذه الفكرة بقوله :

«والتاريخُ المغربي ــ كتاريخ بقية الأقطار والشعوب ــ ينبغي أن يُسجِّل الحوادثَ الماضية كما وقعتْ، ويُصَوِّرَ الحياةَ الحاضِرَةَ كما هِيَ، لِيَعْرِفَ المُجِدُّونَ المُخْلِصُون أنَّ جهودهم لم تَضِعْ، وأن أعمالهم الصالِحَةَ، ومشارِيعَهُم النافِعَةَ، سَتُدِرُّ لَهُمْ الإعجابَ بهم، والرَّحَمَاتِ عليهم، ويَعْلَمُ الجَبَابِرَةُ والظالِمُون، والمُقَصِّرُونَ والمُهْمِلُون أن أعمالَهم الضارَّةَ، وآثارَهُم السيئَةَ، سَتُخَلَّدُ في صفحاتٍ سَوْدَاءَ تَجْعَلُ أسمَاءَهُم مَقْرُونَةً بالاشمئزاز والاحتِقَارِ» [6].

---

4 . نفس المرجع.
5 . نفس المرجع، ص 26 ــ 27.
6 . نفس المرجع، ص 23.

إن نظرة مؤلفنا الأخلاقية إلى مفهوم الموضوعية لم تمنعه من تحديد حدود تناوله لتاريخ تطوان وذلك في قوله :

«لَقَدْ رأيتُ بالرَّغْمِ من اعترافِي بِقِصَرِ البَاعِ، وقِلةِ الاطلاعِ، وشُغْلِ البالِ، واضطرابِ الأحوالِ، أن أسُدَّ ثَغْرَةً صغيرةً في ناحيةٍ من نواحِي تاريخِنَا المغربي، بِجَمْعِ هذه المعلوماتِ عن مدينةِ «تطوان» مَسْقطَ رأسي...» (7).

كما أن مؤلفنا لم يبالغ في أهمية مدينته مما يزيد في مصداقية كلامه ويبدو ذلك واضحا في قوله :

«وبَعْدُ، فَهَذَا ما استطَعْتُ جَمعَهُ من أخبارِ «تطوان» وتاريخِها، وما تطوانُ إلا مدينةٌ مُتَوَسِّطَةٌ ليسَ لها تاريخٌ عظيمٌ كَكُبْرَيَاتِ المدنِ المغربيةِ، وليسَتْ بِهَا آثارٌ عَظِيمَةٌ ممتازَةٌ، وَسُكَّانُهَا أقربُ إلى التَّواضُعِ منهم إلى التعاظُمِ والتفَاخُرِ، إلاَّ أنَّ لتطوان طَابَعاً خَاصاً ومُمَيِّزَاتٍ اكتسبتها بمَوْقِعِهَا الطبيعِي، وبالعناصِرِ التي يَتَكَوَّنُ منها سُكَّانُها، وبالشَّخْصيَّةِ القَوِيَّةِ التي بها تَستَهْوِي كُلَّ مَنْ يَسْتَقِرُّ فيها، وبها تُسَيْطِرُ على ما عَدَاهَا» (8).

2. التحديد المنهجي في كتاب «تاريخ تطوان»

لقد خصص الفقيه قسماً هاماً من مقدمته للمنهج الذي وقع اختياره عليه لدراسة تاريخ تطوان ولقضايا منهجية بصفة عامة. ولقد وضع لهذا القسم العناوين التالية : «منهاج هذا الكتاب» و «كيف ينبغي أن يكتب التاريخ ؟» و «عن بعض مؤرخي المغرب في عصرنا» (9).

لقد حدد مُؤَلِفُنَا أهم صفات المؤرخ المؤهل لكتابة التاريخ بقوله :

«الشرف، والنزاهة، وعلُوُّ الهمة، والعلم الغزير، والعقل الراجح، والاتزان المعقول، ونَبْذ الخوف والطمع هذه صفات لا تسمح لصاحبها بغير الحق والعدل والانصاف» (10).

أ. التحديد المنهجي لموضوع تاريخ تطوان

وفيما يخص اختيار مؤلفنا لتاريخ تطوان موضوعا لبحثه نلاحظ ما يلي في إطار التحديد الدقيق :

أولا، حدد **المؤلف المكان** الذي خصصه للدراسة وهو مدينة تطوان، مع وضعها، كما قلنا سابقا، في إطارها الأوسع من حيث المكان. وقرر أن يدرس هذه المدينة في إطار زمني واسع منذ تأسيسها إلى العشرين. وهناك تحديد للمحور في اختيار المؤلف لتطوان موضوعا للدرس لأنها تشكل نقطة انطلاق بحثه والهدف الرئيسي لكتابه. وبحصره لموضوعه في محور محدد استطاع أن يسيطر عليه أكثر وأن يتعمق في دراسته أكثر، مساهما بذلك في إلقاء أضواء جديدة على تاريخ مدينة مغربية عريقة.

7 . نفس المرجع، ص 26.
8 . نفس المرجع، ص 22.
9 . نفس المرجع، الجزء الأول.
10. نفس المرجع، الجزء الأول، ص 31.

ثانيا، حصر المؤلف الابعاد التي أراد التركيز عليها في الجانب السياسي والجانب الاجتماعي لتاريخ تطوان. ولقد جاء اهتمامُهُ بالبعد الاجتماعي عن وعيه بأهميته كما جاء في قوله :

«والذي يُرِيدُ مَعْرِفَةَ حَقَائِقَ وَدَرْسَ الأُمَمِ والشعوبِ، يَنْبَغِي أَنْ لَا يَقْتَصِرَ على عَظَائِمِ الأشياءِ وجلائِلِ الأعمالِ وينبغِي أَن يَنْظُرَ في الجَلِيلِ والحقِيرِ، ويَتَّصِلَ بِالغَنِيِّ والفقير، ويُجَالِسَ العلماءَ والجُهَّالَ، ويَبْحَثَ في مُخْتَلَفِ الشؤونِ والأحوالِ» (11).

ولقد جاء اهتمام مؤلفنا بالبعدين السياسي والاجتماعي بعد وعيه بالأبعاد المتعددة للتاريخ وبضرورة اختيار كل مؤرخ الأبعاد التي يميل إليها أو تلك التي أُهِّل لتناولها. ولقد عبر عن ذلك في قوله : «والتاريخُ على العموم، فيهِ نواحٍ مختلفةٍ، وكُلُّ ناحيَّةٍ لَهَا، مُحِبُّون يبتهجون بها ويَتَحَمَّسُونَ لَهَا،...» (12).

ب. انتقاد المستعمر وانتقاد المستعمر

يبرز البعد النقدي في مقدمة «تاريخ تطوان» أساسا على مستويين، أولهما يتجلى في انتقاد الاستعمار الفرنسي والإسباني في المغرب من جهة وانتقاده للاوضاع الداخلية السياسية والاجتماعية التي مهدت طريق المستعمِر. يعبر مؤلفنا عن هذا النقد بوضوح تام في قوله :

«... ولَقَدْ تَسَلَّطَ على المغربِ في أواخِرِ القرن الماضِي وأوائِلِ هذا القرن عَامِلاَنِ قَوِيَّانِ قد استطَاعَا أن يَهُدَّا أَرْكَانَهُ ويَنْخَرَا عِظَامَه. ذلك العاملان هما الدَّسَائِسُ الأجنبيةُ من الخارِجِ، والجهلُ العامُ المُخْجِلُ من الدَاخِلِ، لافرقَ فِي ذلك بينَ رِجَالِ الدولَةِ وسَوَادِ الأُمَّةِ، و أَمَامَ هَذَيْنِ العَامِلَيْنِ الفَتَّاكَيْنِ، إِنْهَدَّتْ قُوَّى المغربِ الذي كان عَظيماً فأَصْبَحَ هَيْكَلاً بلا روحٍ، ثم آل بِهِ الأمْرُ إلى أنْ صَارَ في عِدادِ البِلَادِ الفَاقِدَةِ لِحُرِّيَتِهَا واستقلالِها...» (13).

أما المستوى الثاني الذي يظهر فيه البعد النقدي في مقدمة «تاريخ تطوان»، فيكمن في انتقاد أولائل الذي انتقدوا المؤرخين المعاصرين له يقول مثلا في انتقاد نقاد كتاب «الاستقصا» للناصري بعد عرض أرائهم : «فكنتُ أَسْتَغْرِبُ كيفَ يَسُوغُ لمُوَاطِنٍ مغربي أنْ يَنْكُرَ فَضْلَ أَعْظَمَ وأَحْسَنَ وأَجْمَعَ كِتَابٍ أُلِّفَ فِي تاريخ وَطَنِهِ، ذلك الكتاب الذي لم يَعْرِفْ جُلُّ علماء هذا القرن في العالم تاريخَ المغرب إلا مِنْهُ» (14).

إن تَعْلِيقَ مؤلفنا على الذين انتقدوا الناصري يعود إلى تعاطفه مع المدرسة التاريخية المغربية التي كان الفقيه محمد داود يعتبر نفسه من بين روادها. لذلك يمكن اعتبار ردّه على الذين انتقدوا الناصري دفاعا عن مشروعه لكتابة تاريخ تطوان. صحيح، لقد انفرد الفقيه محمد دواد باتصالاته مع أبرز المثقفين في المشرق وعلى رأسهم الأمير شكيب أرسلان وكان له اتصال بالصحافة المصرية كما نرى في مقالاته

11. نفس المرجع، ص 23.
12. نفس المرجع.
13. نفس المرجع، ص 24.
14. نفس المرجع، ص 32.

المنشورة في جريدة «الأهرام» خلال حرب الريف ويمكن اعتبار مجلته «السلام» تعبيرا عن اتجاهه الثقافي الإصلاحي العربي والاسلامي. وعلاوة على كل هذا، كان مؤلفنا يطلع على الوثائق والمؤلفات الاسبانية ويبدو ذلك واضحا في نقله للوثائق الاسبانية المترجمة إلى العربية والمرتبطة بحرب تطوان. لقد تميز مؤلفنا باكتسابه ثقافة عربية وإسلامية إضافة إلى تكوينه التقليدي ومما يشهد على ذلك دوره الرائد في تأسيس المدرسة الأهلية بتطون. إن مقدمة مؤلفنا تعكس تفتحه على الثقافة العربية الحديثة وعلى الثقافة الأوربية، ومع ذلك كان يقدر المؤرخين المغاربة المعاصرين له كما نرى في الاقتباس التالي :

«الحق أن الناصري السلوى مُؤَلِّف «الاستقصا» والرهوني التطواني مؤلَف «عمدة الراوين» وابن زيدان المكناسي مؤلَف «الاتحاف» وابنَ إبراهيم المراكشي مؤلف «الإعلام» كُلُّهُم من أفذاذ علماء الامة المغربية الذين يستحقون كلَّ اجلالٍ واعظامٍ، إن بَقِيّ في الدنيا فضلٌ وانصافٌ» [15].

وختاما، نتساءل، هل طبق الفقيه محمد داود ما ورد في مقدمته على كتابه «تاريخ تطوان» ؟ يمكن لنا أن ننتقد عدة أشياء في «تاريخ تطوان» إلا أن تخصيص محور لهذا المؤلف ضمن الندوة التي نشارك فيها الآن يعد اعترافا بالجوانب الايجابية التي يتصف بها هذا الكتاب ومؤلفه. ولقد توقع مؤلفنا نفسه توجيه انتقادات لكتابه وقدم لنا بعض عناصر الجواب ننقل منها الاقتباس التالي لنختم به تدخلنا : «وقديما حاوَل المؤرخُ الكبيرُ العلامةَ ابن خلدون، وضعَ قواعدا وأصولا لكتابَةِ التاريخ ولكن هل وقَفَ هُوَ نَفْسُهُ مَعَ تِلْكَ القواعدِ والاصولِ حينَما اتَخِذَ في كتابةِ تاريخ «العبر» إنه إن كان قدْ ذَكَرَهَا فإنه نَسيها أو تَنَاسَاها أحياناً ـــ والحال هو الحالُ فِيمَنْ أتى بعدَ ابنِ خلدون، ولعل الحالَ هو نفسُ الحالِ في مُؤرِّخي عصرنا هذا وفِيمَا يأتي بَعْدَهُ من عصورٍ إلى ما شاءَ الله» [16].

---

15. نفس المرجع، ص 32 ـــ 33.
16. نفس المرجع، ص 34.

الكتابة التاريخية عند الفقيه داود :
كتاباته حول القضية الأندلسية نموذجا

محمد رزوق

سنحاول أن نتطرق في عرضنا إلى مجموعة من القضايا التي تهم الكتابة التاريخية عند الشيخ داود، خاصة كتاباته حول القضية الأندلسية، وذلك كمحاولة أولية لاستجلاء معالم هذه الكتابات.

أولا : بعض الملاحظات الأولية حول الكتابات التاريخية عند الشيخ داود

1. إن البعد التاريخي حاضر دائما في كتابات الشيخ داود، إذ ان أصله الأندلسي يجعله يستحضر ماآلت إليه الثقافة العربية الاسلامية بالأندلس اثر سقوط غرناطة واحراق مآت المخطوطات العربية.

2. تعتبر كتابات الشيخ داود بمثابة ورقة دفاع عن الثقافة الأندلسية بالمغرب، وذلك من خلال محورين :
   - إبراز دور الأندلسيين العلمي على الساحة الفكرية بالمغرب
   - إبراز دورهم الجهادي في الدفاع المستميت عن الثغور المغربية سواء ضد الاسبان أو البرتغال.

3. يحاول الشيخ داود في كتاباته ان يرد على ادعاءات الاجانب حول الأندلسيين خاصة ما كتبه الراهب الإنجليزي هارسون حول هذا الموضوع، إذ يقول : «... الأندلسيون هنا بتطوان بعثوا إلى أصدقائهم في سلا وفي أماكن أخرى يحرضونهم، وقد ترك أحدهم هذه الخطوط معي والمرفقة بالكتاب...»، أما الخطوط فهي : «بفضل الله، المورسكيون والانجليز يسيطرون على إسبانيا، وبفضل الفرنسيين والصلبان، يقومون بطهي الأطعمة ويحطمون إسبانيا فيصبحون جميعا أخوة متعاونين...» [1].

وقد تصدى له الشيخ قائلا : «... ان هذا السياسي الراهب الجاسوس، كثيرا ما يتهم اندلسيي المغرب بالحنين إل المسيحية والعطف عليها وتمنى دخولهم فيها... وعمله هذا لا يخرج عن كونه صادرا عن بلادة وغباوة في نفسه أو تدجيل وتضليل لحكومته، والذي نرى انه ان كان قد وقع شيء من ذلك ظاهريا، فإنما هو ناشيء عن السياسة التي كان أولئك السياسون المسلمون الأندلسيون يعاملون بها هذا الراهب الذي يظهر انه كان يسرّه ان يسمع الثناء على الدين الذي يعمل لنشره والعقيدة التي يدعو إليها...

---

1. **المصادر الغير المنشورة لتاريخ المغرب**، السلسلة الأولى، انجلترا، 2 : 573 — 582.

وذلك عسى أن يتمكنوا من حمل دولته على تأييدهم فيما كانوا يرغبون فيه من محاربة اعدائهم الذين حاربوهم في دينهم وطردوهم من وطنهم...» [2].

وانتقل بعد ذلك إلى ذكر الهدف من هذه السياسة قائلا : «... لقد كان أولئك الأندلسيون يعملون بكل ما في وسعهم لاضعاف قوة الاسبانيين، واخراجهم من المراكز التي كانوا قد احتلوها بالمغرب... وإذا كان لديهم حنين فهو للوطن وليس للديانة المسيحية...» [3].

بل وتصدى للشيخ الناصري نفسه قائلا : «... وليت شعري كيف يتفق مع هذا ما جاء في كتاب **الاستقصا** من أن أندلسيي سلا... كانوا ناصحين للكفر وأهله... حاشا ثم حاشا ومعاذ الله أن ينصح للكفر وأهله من ترك وطنه ووطن آبائه واجداده، وجميع ما يملك لا لشيء سوى ان يتمكن من المحافظة على دينه الاسلامي الحنيف، والعيش في وسط اسلامي يؤدي فيه شعائره الدينية بحرية ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين...» [4].

4. تسجيل الحدث بالنسبة للشيخ ليس مجرد نزوة فكرية بل هو واجب وطني، وذلك لأنه هنا أيضا يستحضر ما ضاع من وثائق الأندلس، فيقارن بين هذا الحدث وبين ما وقع ابان حرب تطوان سنة 1860.

5. سجل ترجمته بنفسه، وهذا يذكرنا بما يقوم به العلماء الأندلسيون بالمغرب من خلال فهارسهم. وهو يؤكد على شيئين :
أولا : ثقافته العربية الاسلامية، إذ يذكر بحفظه للقرآن الكريم، والمتون اللغوية والعلمية.
ثانيا : نضاله لمواجهة المستعمر، وذلك من خلال الصحف، والمطبعة المهدية، وإنشاء المدرسة الأهلية.

ثانيا خصائص الكتابة التاريخية عند الشيخ داود :

يجب أن نضع كتابات الشيخ داود في إطارها الذي وضعه لها مؤلفها، فهو يقول مثلا بالنسبة لكتابة تاريخ تطوان : «... لم اقيد فيه نفسي بأي أسلوب من أساليب المؤرخين، لا المتقدمين ولا المتأخرين، فلم اتقيد فيه لا بالتطويل والاطناب ولا بالاخبار، بما خطر ببالي عند جمعها وتأليفها، وكتبته بالأسلوب الذي حضر، فلا التزام لما لا يلزم، ولا تقييد، ولا تقيد، ولا تكلف ولا تكليف...» [5].

فواضح، إذن، ان الشيخ يريد أن يقدم للباحثين مادة أولية تمكن الباحثين من إعادة صياغة تاريخ المنطقة، لأن هذه الكتابات غنية بالفعل بالوثائق.

ولكن رغم هذه الملاحظة نسجل عدة عناصر إيجابية في كتابة الشيخ :

ـــ الأمانة العلمية : وهذا شيء أساسي في كتاباته، إذا بقول : «... من يريد أن يعرف حقائق

---

2. **تاريخ تطوان**، 1 : 226 ـــ 227.
3. المصدر السابق، ص 227.
4. نفس المصدر والصفحة.
5. تاريخ تطوان، المقدمة.

الأمور ويدرس تاريخ الأمم والشعوب ينبغي الا يقتصر على الاطلاع على عظائم الأشياء وجلائل الأعمال، بل ينبغي أن ينظر في الجليل والحقير، ويتصل بالغني والفقير، ويجالس العلماء والجهال، ويبحث في مختلف الشؤون والأحوال، والتاريخ المغربي يجب أن يسجل الحوادث الماضية، كما وقعت، ويصور الحياة الحاضرة كما هي...» [6].

وهو يترك للقاريء أن يستفيد ويستنبط على حسب ذوقه ومذهبه واستعداده.

وهو يرى بذلك بأن الحدث مقدس، يجب أن يسجل كما وقع، لكن قراءة هذا الحدث تختلف باختلاف القاريء، حسب نزعته ومذهبه.

وهو بذلك يقسم المؤرخين إلى قسمين :

— مؤرخ نزيه لا يطمع في شيء ويضع الحقيقة العلمية فوق كل شيء.
— مؤرخ منحاز يخدم مصالحه الشخصية أو مصالح غيره.

ويعطي بعض الأمثلة فيما يتعلق بالأمانة العلمية، فهو لا يتفق مع الرأي القائل بأن المؤرخ عبد الرحمان بن زيدان كشف الأسرار وفضح العورات، وليته حذف، أو ليته أثبت، فيرى ان ابن زيدان لم يسء إلى المغرب ولا إلى التاريخ وإنما قام بواجب يشكر عليه.

ونفس الشيء قاله بالنسبة للشيخ الرهوني، إذ صرح بأنه لا يتفق مع الرأي القائل بأن هذا الأخير اثبت في كتابه **عمدة الراوين** خرافات لا تناسب العصر، فهذه الخرافات، في اعتقاده — هي معتقدات اناس معينين يعتقدون انها الحقيقة، وبالتالي يجب تسجيلها.

— اهتمامه بالنواحي الاجتماعية : خاصة في كتابه ذيل تاريخ تطوان، إذ درس الاخلاق والعوائد، والصنائع، والأعياد والمواسم، والمنازل، واللهجات، والحكم والأمثال، والمرأة ومركزها، والزراعة والحيوانات. وهذا شيء ايجابي جدا لأن كتب التاريخ التقليدية غالبا ما تغفل هذا الجانب، وبالتالي يجد المؤرخ صعوبة كبرى في التأريخ للحياة الاجتماعية.

— استفاد الشيخ من وثائق متعددة من رسائل، وكنانيش، ورسوم عدلية، وحوالات حبسية وعقود الانكحة... إلى غير ذلك. وهذا شيء أساسي، لأن الكتابات التاريخية التقليدية غالبا لا تهتم بمثل هذه الوثائق خاصة ان استغلالها بدأ مؤخرا فقط من طرف بعض الباحثين المغاربة.

— يذكرنا بالصعوبات التي تعرض لها فيقول : «هناك أشياء لا أعرف من حقائقها الا القليل، لأن في الدنيا كراما نبلاء، وفيها أيضا كسالى ونجلاء، لم يسمحوا لي بالاطلاع على الوثائق والمستندات، بل لم يعطوني أية معلومات...» [7].

— يرى الشيخ أن تسجيل الحدث واجب وطني ولا عبرة بالأسلوب الذي سجل به الحدث، فهو لهذا لا يتفق مثلا مع من ينتقد العباس بن إبراهيم في كتابه **الأعلام**، لكونه كتاب تراجم فقط، ويحيل

6. **تاريخ تطوان**، المقدمة.
7. **تاريخ نطوان**، المقدمة.

القاريء على عدد من التراجم التي تحتوي على آثار أدبية وشعرية وتاريخية تهم المغرب بأجمعه.

كما يرد على منتقدي الناصري في كتابه **الاستقصا** من انه كتاب جمع من مصادر معينة، وإنه ـــ كما يدعي ذلك بعض الأجانب ـــ إن أرجع كل نص إلى مصدره لم يبق في الكتاب المذكور شيئا. فيرد على هذا الادعاء بأن علماء هذا القرن كانو يعرفون تاريخ المغرب عن طريق **الاستقصا**.

ثالثا : الشيخ داود والأزمة :

يرى الشيخ أن سبب دخول المغرب تحت نير الاستعمار يرجع إلى سببين :

ـــ الدسائس الأجنبية

ـــ الجهل العام المخجل في الداخل.

وأمام هذين العاملين الفتاكين، قهرت قوة المغرب، الذي كان عظيما فأصبح هيكلا بدون روح.

وهكذا فهو يرى أن المغرب لم يأخذ ولم يدرك طبيعة التقدم العلمي الحاصل آنذاك، وظلت تسود به عقلية القرون الوسطى، وهو يرى بأنه يجب أن نسترشد من تاريخنا لندرك بالفعل نقط ضعفنا في الماضي وعوامل تقدمنا في المستقبل، فيقول في هذا الصدد : «إننا معشر المشتغلين بالعلم والأدب والتاريخ يجب علينا الآن أكثر من أي وقت آخر، أن نتقدم إلى الميدان مصلحين، وان نكتب من جديد تاريخ امتنا لما فيه من نواحي القوة والكمال والضعف والانحلال... إذ في هذا التاريخ دروس وعبر...».

الصحافــة الدوريــة المغربيــة ودورهــا فــي الثلاثينــات

محمــد زنيبــر

موضوع تاريخ الصحافة الوطنية ما زال في مسيس الحاجة إلى مزيد من البحث لأنه ضحية للوهم الشائع بأنه من المواضيع المعروفة. صحيح أن هناك جهودا بذلت في سبيل دراسته؛ ولكنها إما تمثل محاولات قام بها مثقفون لا اختصاص لهم في الموضوع، وإما أعمال صادرة عن بعض الباحثين في نطاق ما يسمى «المونوغرافية»، أي في مجال ضيق يسمح بتركيز النظر في جزء من كل أو في جانب من الجوانب، مما يحول دون الخروج بنظرة شاملة تستند إلى الاستيعاب والتمحيص.

هذه حقيقة يجب الصدع بها حتى يدرك بعض الباحثين أن هنا لك ميدانا ما زال قابلا لصولاتهم وجولاتهم وأعني به الصحافة التي كانت تواكب الحركة الوطنية وتسير في ركابها. وليس المراد من البحث هنا الاقتصار على إحصاء تلك الصحافة وإثبات اسمائها في قائمة وتحديد السنة التي صدرت فيها كل صحيفة. فلئن كان مثل هذا العمل ضروريا، فهو لا يخرج بنا عن نطاق الاطلاع الأولي الذي سيظل أبتر اذا وقفنا عند حدوده. نعم، إنه من السهل علينا أن نضع قوائم للصحف التي صدرت بالمغرب منذ أن بدأت الصحافة تروج فيه، لكن هنالك عمل أشق وأفيد في آن واحد وهو أن ندرس تلك الصحافة في إطار المجتمع المغربي وفي إطار تقلبها بين ثوابته ومتغيراته أي، بعبارة أخرى، «سوسيولوجية» الصحافة المغربية.

وهذا يعني أن لا نقتصر على النظر إلى تلك الصحف كمجموعات من النصوص الأدبية ينصب اهتمامنا بها في الدرجة الأولى على أسلوبها ومعانيها. بل إن هذا الجانب يأتي في الدرجة الثانية بالنسبة إلى إقامة العلاقة أو العلاقات بينها وبين البيئة التي صدرت فيها، فنرى الرابطة القائمة بين تلك الصحافة المكتوبة بالمغرب طوال جيلين، على الأقل، وبين المجتمع الذي كان يتقبلها وكان من المفروض أن يكون هو المعني بها والمستهلك لها. وكل هذا يتطلب، بالطبع منهاجية أخرى لا تقف كما قلنا عند حد الإحصاء وجمع العناوين وتسجيل وقت الصدور بالنسبة لكل صحيفة منها. وهي منهاجية استقصائية تؤدي بنا إلى عدة تساؤلات مثل : كيف كان رد فعل المجتمع المغربي إزاء الصحافة ذات النزعة الوطنية ؟ إلى أي حدّ كانت تلك الصحافة تعكس حقيقته وتعبر عن تطلعاته ؟ ما هو مدى تأثيرها عليه ؟ الخ... الخ...

لست أدعي أنني سأحاول الجواب على تلك التساؤلات؛ وإنما طرحتها لاجتذاب اهتمام الباحثين إليها وإشعارهم بأن الميدان ما يزال نوعا ما بكرا، خصوصا إذا نظرنا إليه من زاوية التحليل التاريخي المستند إلى النظرة السوسيولوجية. ولنذكر هنا بكل اختصار أن مجتمعنا كان آنئذ تحت تأثير عاملين قويين :

1 ــ عامل **سياسي** : وجود الاستعمار الاجنبي ووجوب مكافحته.

2 ــ عامل **حضاري** : الاحتكاك بالحضارة الغربية عن كثب، سواء على المستوى الفكري أو المادي.

فكان من الطبيعي أن تعكس الصحافة الوطنية ضروب التفاعل مع تلك الظواهر المختلفة، فتخرج عن موقف التجاهل والجمود الذي درج عليه المجتمع المغربي طوال قرون الانحطاط وهذا التحول في حد ذاته له أهميته القصوى. لكن لا أريد أن أفيض من الاستنتاجات التي يجب أن تكون ثمرة البحث الجاد والمركز. بل إن مشروعي الآني أشد تواضعا من ذلك. فأنا أترك دراسة الموضوع ككل لمن يستطيع أن يتفرغ له ويحشر كل ما ينبغي من الوثائق والشهادات ويبذل له المجهود الكافي. وإنما أقصر اهتمامي هنا على نوع من الصحافة الوطنية التي كانت تصدر بالمغرب، وأعنى الصحافة **الدورية** التي هي غير الصحافة اليومية.

ويجب، بأدئ بدء، أن أبرز الفرق بينهما :

1 ــ إن سياسة الاستعمار المعادية للحريات والمناهضة لكل التحركات الشعبية ذات المنزع الوطني عملت بدءا على إبطال الصحافة اليومية الحرّة وأقامت مكانها جريدة حكومية، وحين لم تجد بدا من فتح الباب لظهور صحف وطنية يومية فإنها عملت على عرقلة صدورها بالوسائل الادارية والتقنية والمضايقة. بحيث إننا إذا أردنا أن نأخذ فكرة عن الصحافة المغربية الصميمة من خلال الجرائد اليومية، فإننا سنجد منها نماذج؛ ولكنها نماذج لم تطل حتى تأخذ نفسها الكامل وترسخ في صبغتها، وظهرت في فترات متقطعة ومتباعدة مما يجعل دراستها تطرح مشاكل أخرى تأتي على هامش الصحافة من حيث هي الصحافة، وهذا لا يعني بتاتا أننا يجب أن نتخلى عن مثل تلك الدراسة وأن نهمل تلك الصحافة ولو كانت متقطعة الظهور، ولو كانت تخضع لألوان من الرقابة والتعسف. ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للصحافة الدورية التي عرفت استقرارا أطول واستمتعت بتسامح أكبر من لدن السلطات الاستعمارية لأنها لم تكن تعمل في نطاق النضال اليومي ولأن لهجتها في الغالب كانت أكثر اعتدالا.

2 ــ الصحافة اليومية تمثل، فيما يتراءى لي شخصيا، الصحافة في مفهومها الحقيقي وفي مستواها الأعلى. فهي تتبع متواصل للأخبار وتعليق عليها، مما يتطلب قدرة خاصة على التحرير وعلى سرعة التفكير والانجاز واستخراج التحليلات والتركيبات الضرورية في أوقات محددة بحيث تكون مواعد الصدور محترمة.وبعبارة أوجز، إنها تتطلب الجمع بين جهازين في منتهى الفعالية : **جهاز الفكر والجهاز التقني**. وما أظن أن **الحركة الوطنية** فيما بين الثلاثينات والأربعينات كانت قادرة على توفير مثل تلك الوسائل بالدرجة التي تجعل تلك الصحافة اليومية في المستوى الذي كان يطمح إليه أصحابها أنفسهم. نعم، إنها ظهرت بوسائل نستطيع أن ننعتها بأنها كانت بطولية واستطاعت أن تؤدي مهمتها لأنها كانت

قبل كل شيء دلالة ورمزا في أعين المغاربة الواعين ولم تكن العبرة بمضمونها فقط في حين كانت الصحافة الدورية تستطيع نوعاما أن تجتهد في أن توفر لنفسها بعض الشروط، لأن عامل الزمان — وهو أقوى العوامل — لم يكن يضغط عليها بنفس الالحاح، ولأنها لم تكن تحتاج إلى صحافيين بكل معنى الكلمة.

هنالك فوارق أخرى لا أعرض لذكرها اجتنابا للتطويل، ويكفي أننا أدركنا الآن أن الصحافة الدورية لها مميزاتها في تاريخ الصحافة المغربية وأن دراستها قمينة بأن تكشف لنا جوانب من تاريخنا الثقافي والمجتمعي في فترة حاسمة من تطور المغرب المعاصر.

هاته الصحافة الدورية كانت تختلف، طبعا، من حيث موعد صدورها. فمنها الأسبوعية والشهرية ومنها التي كانت تأخذ وقتا أطول. ونظرا لتحررها النسبي من ضغط الزمان، فقد كانت الصبغة الأدبية والثقافية أبرز فيها، وربما غطت على صبغتها الصحافية. ومن دون شك أنها تأثرت بعدد من المجلات التي كانت ترد من الشرق العربي. وكان الوطنيون المغاربة معجبين آنذاك بما ينشره محب الدين الخطيب من دوريات، نذكر من بينها «الحديقة» مثلا، التي كانت تعمل على تغذية العاطفة بأسلوب أدبي، وتربط بين الماضي والحاضر. وهنالك مجلات أخرى كان لها شهرتها بالمغرب مثل «الهلال» و «المتقطف» و «الرسالة» الخ... وكلها كانت تعمل على إحياء الثقافة العربية واجتذاب الأجيال الصاعدة إليها، تلك الأجيال التي أخذت تفتتن بالثقافة الغربية وتنظر إلى العربية وتراثها بشيء من التشكك كمكاسب لم يبق لها وزن في هذا العصر.

على كل، إذا تساء لنا عم كان يقرأه المغاربة في العشرينات والثلاثينات، فسنجد لتلك المجلات المشبعة بالثقافة العربية والروح القومية والعقيدة السلفية حصة الأسد في مطالعاتهم المعتادة، بحيث يمكننا أن نقول إنها ساهمت بأوفر نصيب في تكوين طوائف من المثقفين المغاربة وبخاصة أولئك الذين لم يكونوا يعرفون الا العربية. فلا بدع إذا وجدنا صحافتنا الدورية، التي أخذت تصدر في الثلاثينات بصورة ملحوظة، تتأثر بتلك النماذج التي وردت علينا من الشرق وتنسج على منوالها.

هنالك سبب آخر في الاقبال الذي صادفته هاته الصحافة من لدن جمهور المثقفين المغاربة وهو أنها كانت، في الواقع، هي الوسيلة الوحيدة الموضوعة رهن إشارتهم لنشر آرائهم وأفكارهم وتبليغ منتجاتهم الفكرية والأدبية لجمهور القراء. فالمثقفون الذين كانوا يكتبون آنذاك لم يكونوا يؤلفون الكتب الطويلة، وإنما كانوا في الغالب يتجهون إلى كتابة البحث القصير والمقالة التي لا تتجاوز بضع صفحات. فكان من الطبيعي أن يلتجئوا إلى تلك الصحافة الدورية ويشجعوا صدورها ويغذوها ببنات فكرهم. ولعل انعدام الناشرين في المجتمع المغربي يفسر لنا جانبا كبيرا من هذه الظاهرة. فالصحافة الدورية بهذا المعنى حلت محل الناشر الذي لم يكن له وجود وكان لها دور في الحفاظ على نشاط فكري وأدبي وعمل إبداعي. وهو ليس بالدور الهين كما سنرى فيما بعد.

وكنتيجة لما تقدم، فإن تلك الصحافة كانت تعكس الاهتمامات الأساسية في الحقل الثقافي لدى المجتمع المغربي : ما هي المواضيع التي تهمه أكثر من غيرها ؟ ما هي المفاهيم الجديدة التي كثر استعمالها لديه مثل **وطنية، رقي، ثقافة** الخ...؟ ما هي المشاكل المطروحة عليه باستمرار ؟ ما هي

الاتجاهات الغالبة على حياته الفكرية ؟ ما هي الايديولوجية التي تفسر العديد من مواقفه. فهي مرجع، وأي مرجع لكل من أراد أن يجس نبض الحياة الفكرية بالمغرب في طور من أخطر أطواره المعاصرة، إذ كانت تعكس الاهتمامات الأساسية لدى المجتمع المغربي المثقف.

فإذا نظرنا إلى هاته الصحافة الدورية وتساءلنا عن عملها في الحقل الوطني آنذاك، وجدنا أنها كانت تناضل في جبهتين : جبهة **داخلية**، ذاتية إذا شئنا، تعني المغاربة، وجبهة **خارجية**، وتعني الاحتكاك بكل ما هو غير مغربي، سواء أتى من جهة التعاطف أو من جهة العداء :

1 ــ **النضال في الجبهة الداخلية** : نضال كان ينبني على النقد الذاتي، ولو في صورة محدودة، لأنه لم يكن من الممكن الثورة على الماضي بكل مخلفاته، ولا التنكر للتراث والأجداد على مرأى ومسمع من المستعمر الذي بات يحتل البلاد ويطمح إلى القضاء على شعبها معنويا. بل كان العكس هو المنتظر. ولذلك كان النقد الذاتي الذي تقوم به تلك الصحافة معتدلا لا يتضمن الا ملاحظات تنسجم مع التقاليد والمقدسات وتسعى بالأساس إلى تحرير العقول من أغلال الجمود والتزمت.

كانت تعمل، مثلا، على تحويل الانسان المغربي إلى مواطن وطني له شعور بوطنه وأمته، فتنقذه من اللامبالاة والسلبية التي كانت هي ديدن المواطن العادي في سالف الأيام، حيث كان يترك شؤون السياسة للمخزن ولا يحمل همها. ولكي تخلق تلك الصحافة هذا المواطن الجديد، المواطن العصري، دأبت على تخصيص بعض صفحاتها لأخبار معينة، ذات طاقة في تحريك شعور الناس وتوعيتهم وتوجيههم توجيها وطنيا.

لكن، هل نستطيع أن نقول إنها كانت صحافة أخبارية بكل معنى الكلمة ؟ الواقع أن اضطلاعها بهاته المهمة لم يكن كافيا. فمهمة تقديم الأخبار في الصحافة المحترفة عملية تتطلب تكوينا خاصا وتنبني على حسن الاختيار والتصنيف والتبويب والإخراج الخ... وتلك صفات لم تكن آنذاك متوفرة في «الصحافيين» المغاربة، إذ كانوا، في الغالب، صحافيين مرتجلين أو، بالأحرى، وطنيين تجندوا للصحافة. لكن، إذا كانت تنقصهم المواصفات التي تجعل منهم صحافيين قادرين على تناول الأخبار بالأسلوب التقني المعتمد في الصحافة الراقية، فإنهم وفقوا إلى تقديمها بأسلوب يصل إلى قلوب المغاربة.

ومع نشر الأخبار، كانوا يقومون في الجبهة الداخلية بدور أساسي في التوعية، لأن المغاربة آنذاك في الثلاثينات وحتى في الأربعينات كانوا ما يزالون يحملون إرث الماضي، إرث عصور الجمود والانغلاق الفكري. فكان من الضروري أن يحارب أولئك الصحافيون الرواد الانغلاق الفكري والانطواء الذاتي وأن يفتحوا عيون الناس على ما يجري في العالم وما يجري في المغرب، أيضا، ويجعلون المواطن قادرا على إدراك ما يريد به الاستعمار إلى غير ذلك من أنواع الخطاب التي تدخل في مجال التوعية.

إلى جانب التوعية، كانت تقوم الصحافة الدورية بمهمة أخرى تدخل في باب التربية الوطنية أن التعريف بالوطن جغرافية وتاريخا وبمقومات الأمة المغربية من عقيدة ولغة وثقافة وتقاليد الخ... والتطرق إلى الوضع الحاضر في البلاد المتسم بالتسلط الاستعماري وما يقتضيه من كفاح من لدن المواطنين لمجابهة السياسة الاستعمارية.

ولربما كان الموضوع يتطلب مني أن أتوسع أكثر في تحليل مهام تلك الصحافة، ولكني أقتصر على هاته الاشارات الكافية، في نظري، للتعريف بها. وكان من الطبيعي أن تكون هاته الصحافة العاملة في الجبهة الداخلية مكتوبة باللغة العربية التي هي أكثر نفاذا إلى نفس المواطن العادي.

2 ــ **النضال في الجبهة الخارجية** : نضال متعدد الحلقات والاساليب ويتجه، قبل كل شيء إلى الخصم الذي هو الاستعمار. والمجابهة التي يبنى عليها تحرُّكه تسير حسب تكتيك يتقلب بين التعايش والاصطدام والدفاع والهجوم، تبعا للظروف. وكانت تسعى دائما لفتح حوار مع المستعمر، خصوصا في فترة المطالبة بالاصلاحات. والذي كان يهمها بالدرجة الأولى هو أن تبلغ صوت المغرب الذي ظل خافتا في الطور الأول من عهد الحماية، لأسباب لاداعى لتحليلها لأنها متشعبة. فهي، على أي حال، كانت تسعى لاسماع صوت المغرب في الخارج للرأي العام الفرنسي، أولا، وللرأي العام الدولي، ثانيا حتى يقتنع الجميع بأن هنالك شعبا مغربيا له شخصيته، وبأن هنالك وطنيين مغاربة يستنكرون الاستعمار ويرفضون الحماية ويطالبون بنظام آخر يضمن لهم الحرية والاستقلال.

كان من الضروري أن تكون هاته الصحافة العاملة في الجبهة الخارجية مكتوبة باللغة الأجنبية التي كانت أساسا هي اللغة الفرنسية.

نمـاذج وأمثلـة

بعد هاته النظرة العامة التي لمسنا فيها نوعية الصحافة الدورية في الثلاثينات واتجاهاتها الفكرية، يكون من الأفيد أن ننظر إليها من قريب عن طريق بعض النماذج. ومن المقارنة فيما بينها، ويمكن أن نخرج بعدد من الاستنتاجات، وأبادر فأقول إن هاته النماذج لم أخترها بصورة مقصودة، بل إني وضعت يدي على أي صحيفة من صحف ذلك الوقت، وكأني مغمض العينين. وأنا موقن أنني لوغيرت النماذج التي سأقدم لكم لوصلت إلى نفس النتيجة.

أ ــ **مجلة «السلام»** : فمن بين هاته الصحف الدورية، أذكر مجلة «السلام» التي كانت تصدر بشمال المغرب. مديرها هو المرحوم «محمد داود» الذي نحيي اليوم ذكراه. والعدد الذي سنركز فيه النظر، هو العدد الأول من السنة الأولى. لقد صدر هذا العدد الأول في أكتوبر 1933. فإذا تصفحناه، نجده بشتمل على مقال افتتاحي مطول بعنوان «مبدأنا وغايتنا» لمحمد داود الذي كان ما يزال آنذاك في طور الشباب، بحيث لم يكن ينطبق عليه لقب «الشيخ داود» الذي عرف به من بعد، ثم يأتي بعد ذلك مقال بعنوان «حاجتنا إلى الصحافة» بقلم المرحوم علال الفاسي الذي كان يدعى آنذاك «شاعر الشباب» ثم مقال بعنوان «ظاهرة اجتماعية مغربية» بقلم أبو الفداء، يتناول فيه صاحبه روح التعاون في المجتمع المغربي، ثم مقال بعنوان «يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد» للمرحوم عبد الله كنون، ثم مقال قصير بعنوان «27 أبريل 1912 : من بوانكارى إلى رئيس الجمهورية الفرنسية»، وتحت كتوضيح : «الحكم المباشر في المغرب مخالف للمعاهدات الدولية». ثم مقال آخر بعنوان «دستور الجمهورية الاسبانية» وقد اكتفت المجلة بتعريب ديباجة الدستور. ثم يأتي ركن بعنوان «معرض الأفكار» قدم فيه صاحب المجلة أجوبة عدد من أعلام الفكر في العالم العربي الذي أمكنه أن يكاتبهم ومن بينهم نجد أسماء شكيب أرسلان ورشيد رضا والأمير عمر طوسون ومحمد كرد على وعبد الرحمان شهبندر

ومحب الدين الخطيب وعباس محمود العقاد والشيخ مصطفى الغلاييني وأحمد أمين، ومحمد علي دروزة. ثم يأتي ركن «القسم الأدبي»، وفيه يتناول الكاتب موضوعات مختلفة مثل : اللغة العامية، القصص بمصر، بلاسكو ايبانيز (الكاتب الاسباني بمناسبة وفاته)، حفلات سبتة الزهرية، تاريخ الأدب المغربي، أبو الطيب المتنبي، ثم يأتي باب الشعر وفيه نقرأ ثلاث قصائد لعلال الفاسي في موضوعات وطنية ثم قصيدة لعبد الله كنون بعنوان «نشيد الكشاف المغربي» ثم «سبع مثاني» وهي مقتطفات شعرية لمجموعة من شعراء المغرب العربي، ثم يأتي باب الإرشاد ويشتمل على الفقرتين : بين الشيخ علي الشاب مصطفى — بين الآباء والابناء. وأخيرا يختم العدد بـ «أيها الأخ المغربي» وقسم الشمال الأفريقي : حديث إلى القطرين الشقيقين الجزائر وتونس. هذا تقديم لفهرس العدد قد يكون فيه بعض التطويل. ولكن لا بد من أن ندخل هكذا في التفصيل والتدقيق لنستنتج من ذلك ما نستنتج.

ب — **المغرب الجديد** : مجلة كانت تصدر هي أيضا بشمال المغرب، والعدد الذي بين أيدي الآن هو الجزء السادس من السنة الأولى، وكما هو الشأن بالنسبة لمجلة الحياة، يبدأ العدد بمجموعة من الصور التاريخية أو الوقتية ثم يأتي المقال الأول بعنوان «الدستور المغربي»، والثاني بعنوان «الحركة السلفية والصفات العامة لوجهتها الحاضرة» لهنري لاووست. وثالث بعنوان «ترف الشباب»، ورابع عنوانه «الأدب العربي بالمغرب»، وخامس «المتنبي بعد ألف عام» وسادس يعني الحركة الاصلاحية بمصر، عنوانه «مشروعات عبده وسعد» : مثال يحتذى في النهضة المغربية، ثم يأتي باب «معرض الكتب»، وفيه يجري التعريف بالكتب التالية : الشرق الاسلامي لحسين مؤنس؛ آسفي وما إليه لمحمد الكانوني؛ الاسلام الصحيح لمحمد إسعاف النشاشيبي؛ التبصر بالتجارة للجاحظ؛ روض الشقيق في الجزل الرقيق للامير شكيب أرسلان. وهذا العدد من المغرب الجديد صدر في نوفمبر 1935.

ج — **ملحق جريدة المغرب** : جريدة «المغرب» من الجرائد الوطنية التي كانت تصدر يوميا في الثلاثينات وصاحبها هو المرحوم سعيد حجي، الذي كان من وجوه الحركة الوطنية بسلا. وإلى جانب الجريدة اليومية التي كانت تصدر بالرباط، تولى صاحبها اصدار ملحق لها في حجم مجلة يضم مقالات وأبحاثا للكتاب والباحثين والعلماء. من عناوين مقالاته نذكر : «الرياضة البدنية» بقلم هاو للرياضة؛ «كلمة أولى» بقلم سعيد حجي : «مطبوعات حديثة»؛ «جزء مخطوط نادر للاحاطة» بقلم محمد الفاسي؛ أبو القاسم الشريف بقلم عبد الله كنون؛ «كلمة عن الرافعي» لعبد الكبير الفاسي؛ «من ذكرى إلى ذكرى» لعبد الله ابراهيم؛ «الطامة الكبرى» قصيدة لابن المرحل السبتي؛ «العمل في أحكام الفقهاء» لمفت سلاوي؛ «القوى الروحية في اليابان» لكلود فارير؛ «وجوب الاهتمام بالرياضيات» للطالب عبد الكبير الفاسي؛ «عطلة الربيع لتلميذ»؛ تهافت الفتيات على الليسى بقلم باحثة الحاضرة؛ «بين ملحق المغرب وقرائه»، «سير الفكر والحياة»؛ «الإنشادات والافادات» بقلم م. ف؛ «في أفق السياسة الدولية : خمود العاصفة»؛ «من أنباء الشرق العربي»؛ «اليوميات». والعدد الذي بين أيدينا هو العدد الأول من الملحق وتاريخه 7 أبريل 1938.

تلك ثلاثة نماذج من الصحافة الدورية في الثلاثينات فبماذا يمكننا أن نعلق عليها، بعد أن تعرفنا على عناوين الموضوعات المعالجة فيها ؟

أول ما نلاحظ هو أن اهتمامات هاته الصحف الدورية هي، قبل كل شيء، اهتمامات ثقافية أكثر

منها سياسية. فالثقافة، بمعناها الواسع تكون أهم ركن فيها. وهنا أعود إلى ما سبقت الإشارة إليه، وهو الربط بين الصحافة والمجتمع المغربي، وكل مجتمع لا بد له في وجوده الطبيعي من بعد ثقافي إلى جانب البعد الاقتصادي. وكل مجتمع، حسب مستواه من التطور، لا بد له من حياة ثقافية بدائية أو وسطى أو راقية. والمهم هو أن تكون له ثقافة يعيش بها وجدانيا ويتصور بها الحياة وتكون هي منفتحه على العالم الذي يعيش فيه.

هذه الحياة الثقافية بالنسبة للمجتمعات الناضجة والمتوازنة تكون في حالة استقرار وتسير سيراً طبيعيا ومطردا. لكن، حينما يكون المجتمع في طور تمزق وتأزم كما هو شأن المجتمع المغربي سواء اعتبرنا الوضع الذي كان فيه تجاه الاستعمار أو الارث السلبي الذي تسلمه من الماضي، فإنه يشعر بنوع من الفراغ الثقافي، وهذا الفراغ لا بد له من أن يحاول ملأه بصورة أو بأخرى. ولهذا فإن تلك الصحافة الدورية المكتوبة بالعربية تمارس، في الواقع، نضالا وطنيا، إلا أنه نضال من نوع خاص، إذ يحاول إعادة نوع من التوازن الثقافي داخل المجتمع المتأزم.

هذا التوازن كانت تلك الصحافة تحاول إيجاده من خلال اهتمام مزدوج : اهتمام بالحاضر واهتمام بالماضي.

أ ــ **الاهتمام بالحاضر** : والحاضر لا يعني الوقت الراهن كما يفهمها الصحافيون، وإنما يعني الحاضر الذي يمتد على عشرات السنين أي الزمان المعاصر. وهذا يتجلى من إلقاء نظرة على المقالات المذكورة. فمن الموضوعات المعتبرة الدعوة إلى العلم والتنديد بالجهل والتطرق إلى فكرة الإصلاح والتجديد. ولنقتطف ، على سبيل المثال، هاته الفقرة من مجلة «الحياة» (ص 23)، حيث يتحدث الكاتب عن ظاهرة «الاجتماع» وحب التعاون بالمغرب قائلا :

«نعم، لو وجدت هاته الظاهرة تشريعا ينظمها وينميها، ونظاما «ديموقراطيا» يشجعها ويحميها، لكان الشعب المغربي، اليوم، شعبا سعيدا، متمتعا بجميع ثمرات العلم والمعرفة والمدنية، ولأضاف إلى مجده القديم مجدا جديدا في هذا القرن العشرين. فمتى يتمتع هذا الشعب بنعمة الديموقراطية التي هو أشد الشعوب شوقا إليها ؟ ومتى يذوق لذة «المعرفة» الكاملة التي هو أشد الناس تلهفا عليها ؟.»

في هاته الفقرة نجد وعيا قويا بالحاضر وشعورا بالنقص والتخلف واتجاها إلى المستقبل وحلما بالديموقراطية. والأمثلة التي تتعرض لهاته النقط الحساسة كثيرة يطول إيرادها.

ونجد هاته الصحافة الدورية تعرض لبعض المقومات الثقافية التي ما زالت تنقص الشعب المغربي في الثلاثينات. ويكفي أن ننظر إلى عنوان المقال الذي شارك به علال الفاسي في نفس المجلة وهو «حاجتنا إلى الصحافة» فهو يضع اليد على نقصان كان المجتمع المغربي يعاني منه آنذاك وهو انعدام صحافة في المستوى اللائق بشعب يتطلع إلى الرقي والتقدم. فهو يمس هنا مسألة حيوية كانت تثير اهتمام الرأي العام يومئذ.

ومن المواضيع التي تدخل في الاهتمام بالحاضر «السلفية» التي شكلت ايديولوجية دينية وسياسية في آن واحد. وكان لها مكانها في تاريخ الحركة الوطنية، وما زالت تعرف بعض الاستمرار إلا أنها لم تحتفظ بقوة الاشعاع والتأثير الذي كان لها في الثلاثينات. ويدخل في الاهتمام بالحاضر التطرق إلى

الحديث عن التطورات الجارية في العالم العربي. ولنذكر على سبيل المثال، مقال «مشروعات عبده وسعد مثال يحتذى في النهضة المغربية» وأول فقرة فيه هي :

«منذ نحو من ثلاثين سنة، كان قادة الفكر في مصر تتمخض رؤوسهم بمشروعات خطيرة الأثر، جليلة النفع، في العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه. وقبل أن يفارق الدنيا أستاذ مصر الجديدة وإمامها الشيخ محمد عبده، بث في أدمغة تلامذته وأشياعه فكرتين عظيمتين : الأولى إنشاء صحيفة يومية تعنى بمسائل الأخلاق والشريعة والاجتماع والسياسة والاقتصاد والزراعة والتجارة والآداب والقوانين. فلم يأت شهر جمادى الثانية 1324 (يوليو 1906) حتى انعقد اجتماع كبير من أعضاء مجلس شورى القوانين ووجهاء الأغنياء. وفي نفس الجلسة بلغ اكتتابهم لهذا المشروع ما يزيد على عشرة آلاف جنيه. وأطلقوا على هذه الصحيفة اسم «الجريدة» وكونوا لها مجلس إدارة مؤلفا من 25 عضوا...» الخ أما المشروع الثاني فكان هو، حسب المجلة، الاكتتاب لانشاء الجامعية المصرية التي فتحت أبوابها في 1908.

هذا مثال من عدة أمثلة يعكس المنزلة الخاصة التي أصبحت للشرق العربي، ولمصر بالخصوص، في نفوس المثقفين المغاربة في الثلاثينات فهو ارتباط عاطفي، مثالي لم يستطع الاستعمار بكل ما أوتي من مكر ودهاء أن ينال منه.

ومن باب الاهتمام الحاضر ما نجده في تلك الصحف من مقالات موضوعها التعريف بالنشاط الثقافي بالمغرب، الذي كان في خطواته الأولى من حيث التجديد. وكلما ظهر شيء جديد، كانت تلك الصحافة تنبئ به وربما توسعت في الحديث عنه.

يتضح من الأمثلة السابقة ـــ وهي قليل من كثير ـــ أن الحاضر وفي ضمنه المستقبل بدأ يشغل أذهان الكتاب والصحافيين ويدفع بهم إلى التفكير. وهو اتجاه جديد بالقياس إلى العقلية التي كانت سائدة من قبل.

ب ـــ **الاهتمام بالماضي** : كذلك كانت تلك الصحافة تخصص قسطا مهما من صفحاتها للماضي، برغم كونها لم تكن متخصصة في التاريخ، بل كانت ذات طابع ثقافي عام. فلما ذا الالحاح على الماضي والاهتمام به دوما ؟

الواقع أن أولئك الصحافيين الوطنيين، حينما كانوا يتحدثون باستمرار عن الماضي، فإنهم لم يكونوا يتعاملون معه كماض بالمفهوم المعتاد، بل يشحنونه بمعان ومشاعر مختلفة. فالماضي بالنسبة إليهم لم يكن ماضيا فقط، أي شيئا حدث في الزمان الغابر، شيئا استهلك وانقضى. ولكنهم كانوا ينظرون إليه كشيء حي، وكدم منعش ما زال يسري في عروق الوطن وشرايينه. فبعد ضياع كل شيء من السيادة الوطنية، أصبح الماضي بذكرياته وأمجاده هو المقوم الأساسي للوطن المغربي الذي كان في قبضة الاستعمار.

أصبح الماضي، إذن، عنصرا من عناصر الحاضر يدخل في تشكيل الروح الوطنية. وهكذا، لم يكن أولئك الصحافيون يعاملون الماضي كما يعامله المؤرخون الذين يدرسونه بالمجهر العلمي ويتجردون عن كل صلة عاطفية به ويتحرون في الكتابة عنه ما يسمونه «الموضوعية». بل إنهم كانوا يتغذون به غذاء روحيا ويحاولون أن يبثوا شعورهم في الشعب متخذين من التاريخ أداة للتوعية والحفز. ومجلة السلام التي

نعرف مدى اهتمام صاحبها محمد داود بالتاريخ تضرب المثل في الاهتمام بالماضي. ففي العدد الذي اخترنا نجد، مثلا، المقال المعنون «يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد أمام حكم التاريخ العدل»، بقلم عبد الله كنون الذي كان آنذاك من الشباب العاملين في حقل الوطنية. وفي المقال يتصدى للدفاع عن شخصية يوسف بن تاشفين، لأن بعض المستشرقين وبعض الكتاب العرب المشارقة قالوا إن المعتمد بن عباد الذي هو ملك أندلسي يمثل الحضارة الأندلسية والرقة الأندلسية جاء إليه ذلك الصحرواي المسمى يوسف بن تاشفين وأسره وسجنه في أغمات حتى مات أسيرا. وهكذا كان يوسف بن تاشفين سببا في تخريب دولة رفعت لواء الحضارة والعلم والفن عاليا الخ... تلك، باختصار، الأطروحة التي يتناقلها أولئك المستشرقون والكتاب العرب.

فجاء عبد الله كنون ليدافع في مقاله عن يوسف بن تاشفين، ذاكرا الدور الحاسم الذي قام به هذا الأخير في الابقاء على الوجود العربي بالأندلس، ومشيرا إلى التدهور الذي عرفته الأندلس في عهد ملوك الطوائف.

وفي هذا السياق نجد مقالات أخرى مثل «الأدب العربي بالمغرب». الذي يكشف عن الماضي الثقافي الذي كان مجهولا عند الكثير؛ أو «الدستور المغربي» الذي يعود بنا إلى الأمس القريب؛ أو «أبو القاسم الشريف» الذي يكشف لنا عن أحد الأعلام المغاربة الخ...

يتضح مما تقدم أن الماضي المقصود في تلك المقالات لم يكن بالضبط هو الماضي الذي ينحني عليه المؤرخ المحترف، وإنما هو الماضي المثالي، الماضي الملون بروعة الخيال والذي لا يخلو من اسقاطات الحاضر. فالأستاذ عبد الله كنون، حينما يتحدث عن يوسف بن تاشفين يقوم بدور المحامي الذي يدافع عن شخص يعتقد بأنه بطل من أبطال التاريخ الوطني.

2 ــ النضال في الجبهة الخارجية

لن أدخل في تفاصيل الموضوع. أذكر فقط أن الوطنيين أصدروا بعض الصحف مثل «عمل الشعب» و «إرادة الشعب» ولعل أهم صحيفة رأت النور على يدهم هي مجلة «Maghreb» لنأخذ كمثال العدد رقم 2 من السنة الأولى بتاريخ غشت 1932. أهم المقالات الواردة في فهرسه هي.

On applique la bastounade à un notable J. Longuet : — أحد الأعيان يجلد بالعصا
En 1935, le Maroc ne couptera plus un seul rebelle Kadour — في 1935، لن يبقى بالمغرب متمرد واحد
Offensive contre le Traité d'Aldgésèras — حملة على عقد الجزيرة
Notre ami le Cherif Djebli Elaydouni obtient enfin un non - lieu H.J. Lougnet — وأخيرا يحصل صديقنا الشريف الجبلي العيدوني على البراءة.
La politique Berbére de M. Saint A.B — سياسة المسيوسان البربرية
Sur la colonisation N.B — عن الاستعمار
Le Maroc en face de l'emprunt M.O — المغرب تجاه القرض
L'unité Syrienne — الوحدة السورية

La politique marocainne et islamique de l'espagne — سياسة إسبانيا المغربية والاسلاميه
L'impérialisme français au Maroc — الامبريالية الفرنسية بالمغرب.

هذا الفهرس يبين لنا نوع المجلة التي نحن بصددها. إنها مجلة سياسية مائة بالمائة وأداة نضالية لحركة ذات نشاط وطموح. فموضوعاتها تدخل في الأبواب التالية :

- سياسة القمع الاستعماري
- المقاومة المسلحة المغربية
- العقود الدولية الخاصة بالمغرب
- السياسة البربرية
- خطط التملك الاستعماري
- الوضع السياسي في سوريا

فهذا النوع من الدوريات الموجهة للخارج والمكتوبة بلغة أجنبية يختلف كليا عن نوع الدوريات المساهمة في النضال الداخلي. إن هاته الأخيرة، الناطقة بالعربية، تضع كأحد أهدافها الأساسية خلق ثقافة جديدة من أجل إبراز الشخصية الوطنية وإعادة تكوينها. أما الصحافة المكتوبة بالفرنسية فكانت تهدف للدفاع عن تلك الشخصية من الاعتداء الخارجي فتركز وسائلها في العمل السياسي.

بعد مرور أزيد من خمسين سنة على تلك الحقبة التي نتحدث عنها اليوم، ندرك أهمية تلك الصحافة الدورية، إلى جانب الصحافة اليومية. لقد كان عدد المثقفين محدودا بالبلاد وفقدت الثقافة التقليدية مصداقيتها أمام ثقافة العصر المبنية على الحداثة وعلى العالمية. فكان لا بد لها من أن تدافع عن نفسها، فتغير من مظهرها وزيها. وفي هذا التحول الذي لم يكن منه مناص، اضطرت أن تتخلى عن دوغمائيتها، وأن تلج ميدان الحوار والنقاش. ولكنها، في الحقيقة فتحت على نفسها بابا لم يعد من السهل إغلاقه فيما بعد. إنه باب حرية الفكر وحرية النقد وطرح التراث مطرح المراجعة والتقويم على أساس مقاييس تقترب أكثر فأكثر مع مبادىء العقلانية.

وساهمت المدرسة العصرية في تلك الأثناء في تخريج أفواج من المثقفين المشبعين بروح الحداثة والطامحين إلى التجديد. وهكذا، ففي الوقت الذي كانت تدافع تلك الصحافة عن الماضي وتشيد بمخلفات التراث، كانت تهيىء من حيث تريد أولا تريد، لمرحلة آتية ستكون فيها محاسبة الماضي وإعادة النظر في التراث. إنها في الحقيقة جدلية تعكس كل المتناقضات التي دخل إليها المغرب وهو يلج عالم الحداثة، ويتطلب تتبعها المرور من منعرجات دقيقة وتحليلات واسعة، اكتفينا هنا بإعطاء صورة عنها.

الاصلاح، النهضة، السلام : قراءة في مجلة «السلام»

عثمان أشقرى

ــ صدر العدد الأول من مجلة «السلام» في أكتوبر 1933.
وهذه سنة متميزة في تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب عموماً وهذا ــ على ما قيل ــ لاعتبارين :

الاعتبار الأول : فقبلها بقليل قام الوطنيون في الشمال بإعداد وثيقة « مطالب الأمة المغربية» وتقديمها في 8 يونيو 1931 إلى السلطات الإسبانية الجديدة (الجمهورية الإسبانية) كما أن نفس الفعل كان يستعد للقيام به في المنطقة السلطانية ليتحقق في 1934 مع اعداد وتقديم دفتر مطالب الشعب المغربي.

الاعتبار الثاني : الاقتناع التام من طرف الوطنيين في كلتا المنطقتين بضرورة وأهمية توفير إعلام وطني بل والشروع الفعلي في إيجاده. وهكذا وبعد تجربة مجلة «مغرب» بباريس والتي لن تعمر طويلا تبرز إلى الوجود مجلة «السلام» مدشنة بداية التأسيس الفعلي للصحافة الوطنية بالمغرب حيث تتبعها الصحف والمجلات التالية : «عمل الشعب» انطلاقا من 4 غشت 1933 ــ «الحياة» انطلاقا من 1 مارس 1934 ــ «ارادة الشعب» انطلاقا من 15 مارس 1934.

وفي تقديري فخلاصة واحدة أساسية يمكن ابرازها وتأكيدها بالاستناد إلى هذين الاعتبارين وتتمثل في شعور الحركة الوطنية بالمغرب ــ ككل ــ بضرورة تحديد هويتها والتعبير عنها.

لقد افتتحت مجلة «السلام» عددها الأول ببيان تحت هذا العنوان البالغ الدلالة : «مبدؤنا وغايتنا» ويشتمل هذا «البيان» بعد «التقديم» على 11 فقرة وخاتمة والفقرات هي التالية :

ــ التربية والتعليم.
ــ الأخلاق والتهذيب.
ــ الأدب.
ــ تعميم الثقافة وتوحيدها.
ــ الاقتصاد والاجتماع.
ــ الرياضة والصحة.
ــ التجديد.
ــ بيننا وبين بعض الأقطار الشرقية.
ــ الأقطار المتطرفة.

ـــ ما ينشر عن بلادنا.

ـــ مبدأنا السياسي.

وأعتقد أن قراءة متأنية تحليلية لهذا البيان تكشف عن معطيات أساسية يمكن تحديدها كالتالي :

1. يكشف «البيان» عن وعي متأصل بالذات أو هو، أي الوعي، يطمح لأن يكون كذلك.
2. يتمحور هذا الوعي بالذات حول مفهوم مركزي هو «النهضة» نهضة عامة شاملة.
3. سبيل انجاز النهضة المنشودة هو «الاصلاح» في كافة المجالات في أفق إعداد الأمة لأن تحكم نفسها بنفسها.
4. لا سبيل إلى إنجاز «الاصلاح» المنشود بدون توفر عنصر «السلام، الذي هو ـــ **أولا** ـــ **داخلي** (= تكافل وتضامن جميع الطبقات الاجتماعية في منظور وحدة الأمة) **وخارجي** (= تطبيق بنود الحماية روحاً ونصا).

واستنادا إلى هذين المعطيين يمكن تقرير النتائج العامة التالية :

أولا : طرح منظور «النهضة» كإطار أوسع أو مشروع طويل النفس لمسيرة المجلة.

ثانيا : وهذا الأمر أعلاه مرتبط بإنجاز خطة الإصلاح في كافة الميادين.

ثالثا : وهذا غير ممكن بدون توفر عنصر «السلام».

وعليه، نجد أنفسنا، ولدى قراءة أول «مادة» في أول عدد من أعداد المجلة ازاء وحدة ثلاثية أساسها الارتباط البنيوي ما بين 3 مفاهيم : النهضة، الإصلاح، السلام.

وهذه، بالقطع، هي المفاهيم الثلاثة التي تحدد مجال قراءة ممكنة لمواد الأعداد العشرة للمجلة. بل أن هذا وقع التنصيص عليه صراحة من طرف محرر «البيان»، (= محمد داود) الذي كتب في «الخاتمة» مايلي : «لنختم هذه المقدمة بكلمة نعبر بها عما نأمل أن تقوم به صحيفتنا على وجه العموم وهي أننا نريد ان نقوم من ناحية بخدمة أمتنا في نهضتنا العامة وخصوصاً من ناحية العلم والثقافة، ومن ناحية أخرى نريد أن تكون مرآة يشاهد فيها العالم حقيقة تفكيرنا، ويجد فيها من المقالات العلمية والأدبية والتاريخية من الشعر القومي ما يصح جعله مستنداً قويا لمعرفة درجة الأمة من الرقي والتقدم».

ويبقى السؤال التالي : بأي معنى سنربط ما بين الإعلان عن هذا المشروع العام وانطلاق الحركة الوطنية في الشمال والجنوب وزيادة وعيها بذاتها ؟

على امتداد ثلاثة اعداد (الثاني والثالث والرابع) نشرت مجلة «السلام» مادة سياسية / فكرية هامة تحت عنوان : «مجلة مغرب» أو حقيقة الوطنية المغربية».

وبالأصل فهذه خطبة ألقاها الأستاذ محمد حسن الوزاني في حفل تخليد مرور سنة على صدور مجلة «مغرب» بباريس والحفل نظم بسلا وحضرته «نخبة من مفكري جميع الأنحاء المغربية» (من تقديم مجلة السلام» للخطبة المنشورة).

وخطبة الأستاذ الوزاني اشتملت بالخصوص على عرض مسهب حول الدور الذي كانت تلعبه مجلة «مغرب» في الدفاع عن المصالح الوطنية المغربية والدعاية للقضية المغربية داخل الأوساط الفرنسية

المتنورة والعرض يطفح بعبارات المدح والتنويه والشكر الخ... ولكن خلاله سيقع استطراد يتطرق لمسألة «حقيقة الوطنية المغربية».

فما هي هذه الحقيقة ؟

إنها ــ **أولا** ــ الوطنية المنفتحة على الإنسانية ــ أي وطنية غير منغلقة ولا متعصبة.

وهي ــ **ثانيا** ــ وطنية اصلاحية «ترمي إلى إصلاح شؤون الأمة المغربية إصلاحا يفي بحاجاتها ويخطو بها خطوات سريعة في نهج التطور والتقدم».

وحقيقة الوطنية في منظور الوطنية المغربية ــ **ثالثا** ــ هي ذات طابع شمولي وجذري وهذا ــ بالأساس ــ على مستوى الاعتقاد وتربية الفرد وإصلاح المجتمع ككل : «وإذا قلنا الإصلاح فلسنا نعني ما هو من قبل ذر الرماد في العيون أو ما ينال القشور وسطوح الأشياء المحتاجة إلى الترميم بل نقصد بإصلاح في الشكل والأصل معا لأن ما ننعته بالفساد فاسد شكلا وأصلا» وعليه فالخطيب الوزاني يستعرض عمل مجلة «مغرب» ويثمن إنجازها كما أنه يستعرض «حقيقة الوطنية المغربية» ويفعل كل هذا من داخل محددات فكرية هي ما عبرنا عنه سابقا بالوحدة الثلاثية التي أساسها الارتباط البنيوي ما بين مفاهيم ثلاثة : النهضة، الإصلاح السلام. لذا لاغرابة ان تتحمس مجلة «السلام» للخطبة وتنشرها كاملة ــ على حلقات ــ، يكتب صاحب المجلة ومحررها في الخطبة ما يلي : «وكان خطيب الحفلة الشاب المغربي النابغة الأستاذ محمد بن الحسن الوزاني صاحب جريدة «عمل الشعب» فقد ألقى خطبة رنانة عبر فيها عن عواطف جميع المغربيين نحو مجلة «مغرب» وبين بأوضح عبارة ما هي المبادئ الوطنية في المغرب وما هي الخطط التي يراها الوطنيون صالحة للسير عليها في المعاملات الشعبية».

فهل هذا يعنى ان مجلة السلام كانت هي اللسان الناطق باسم «حقيقة الوطنية المغربية».؟

«إن مجلة السلام لسان مفكري المغرب ولا أرضى أن تخرج مطلقا عن الموقف الذي يناسب سمو التفكير المهذب في اختيار الموضوع ودقة البحث وابتكار المنحي، كما لا أرضى مطلقا نزولها إلى سفطسطة المناوشات وسخافة التضارب السياسي السافل فهي منبر الباحثين في مختلف نواحي البحث العلمي وهي مدرسة للناشئين تتغذي منها أرواحهم وعقولهم بخير ما تنتجه القرائح المغربية. واعتبارا لهذا الاتجاه الذي يجب ان تنهجه مجلتنا الغراء، أرى ان ما يخصص منها للمباحث السياسية ينبغي ان تراعي فيه الروح العلمية مراعاة تترك المجلة بمعزل عن هراء القول وهذر المعارضة».

بهذه العبارات القاطعة استهل الأستاذ عبد الخالق الطريس مقاله المنشور بالعدد الثاني من مجلة السلام تحت عنوان «مطالبنا».

وفي نفس المقال يضيف الأستاذ الطريس : «هذه مقدمة بسيطة أردت تقديم هذا المقال بها حتى أفهم حضرات القراء ان كتابتي عن المطالب التي قدمها أهالي المنطقة الخليفية إلى حكومة الجمهورية الاسبانية ليست كتابة سياسية يقصد بها التهريج أو إثارة العاطفة كما قد تتخيل بعض الأذهان بل ان القصد الأساسي هو تسجيل قضية المطالب تسجيلا ثقافيا وتاريخيا وسياسيا بالمعنى العلمي لاعتبار قضية المطالب أهم مسائل منطقتنا الحيوية وأساس نهضتها»

ثم ينطلق الأستاذ الطريس، في مقاله هذا، مستعرضاً، ومحللا ظروف شعور الأمة ــ ككل ــ بحاجتها إلى تحقيق النهضة، ومعزى هذه الأخيرة، وشروط تقديم الأمة المغربية في الشمال، لمطالبها المعروفة في 1931 والمراحل التي قطعتها مسيرة تحقيق هذه المطالب الخ...

وما يلزم استنتاجه وتسجيله هنا ــ في تقديري ــ هو التالي :

1. اعتبار مجلة «السلام» أكثر من مجرد منبر سياسي عادي ومباشر.
2. اعتبار «مطالب الأمة المغربية» أكثر من مجرد مطالب سياسية عادية ومباشرة.

وبالتالي فسنكون ازاء طرح لموضوع «المطالب» يعتبر فعل تقديمها فعلا نهضويا بالأساس ــ وهو ــ أي الكاتب ــ يحلل هذا الفعل من فوق منبر صحفي لا يمكن ان يكون إلا بحجم هذا الطرح : أي مجلة نهضوية عامة وليس مجرد صوت سياسي عادي مباشر.

وأكثر من هذا، فابتداءاً من العدد الثاني سيصبح عبد الخالق الطريس عضواً مسؤولا في تحرير مجلة «السلام» كمسؤول عن قسمها الأدبي.

ومواد هذا القسم، سواء المحررة من طرف عبد الخالق الطريس أو بالخصوص، من طرف المرحومين عبد الله كنون وسعيد حجي هي مَعْلَمة بارزة ودالة في هذا الصدد.

وهذا على مستويين :

الأول : ن هؤلاء هم جميعاً من الرموز الأساسية والطلائعية في الحركة الوطنية بالمغرب سواء في الشمال أو الجنوب.

الثاني : مضمون ودلالة ما كتبوه ونشروه في مجلة «السلام» وهذا من جهتين :

الجهة الأولى : ابراز الجانب الإبداعي المغربي الأصيل في مجال الأدب خصوصاً كتابات الأستاذ المرحوم عبدا الله كنون التي ستنشر فيما بعد تحت عنوان : «النبوغ المغربي».

الجهة الثانية : طرح مسائل النهضة عموماً. وهنا تبرز كتابات سعيد حجي بالإضافة إلى نص متميز نشر في العدد الرابع تحت عنوان : «النهضة الحديثة بالمغرب» بتوقيع «أبو بكر». وهذا النص طرح مسألة النهضة المغربية التي شعت بعض بوارقها الأولى في العهد الحسني ثم خبت... وبعد الحرب العالمية الأولى، وعلى أثر الاتصال المكثف والمتزايد مع المشرق خصوصاً لتشع هذه البوارق مجددا. لكن هل يمكن أن تتقوى وتستمر ؟

كتب صاحب هذا النص ما يلي : «فنهضتنا تعوزها المعاهد المنظمة الراقية التي تساير روح العصر (...). يعوزها الاتصال بماضي المغرب الزاهر (...) يعوزها الاستمداد من المشاهد الحاضرة (...). فنهضتنا، بعدم هذا الاتصال لم تتخذ صبغة خاصة مغربية منتزعة من روح المغرب وعبقريته (...) يعوزها الاتصال الكامل مع نهضة الشرق [كما أن المغاربة] لم يتصلوا بنهضة الغرب ولم يعرفوا عنها قليلا ولا كثيرا (...) فهل مجلة «السلام» ستسد هذا الفراغ ؟...»

هذا هو السؤوال الذى اعتقد، من خلال هذا القراءة أن الجواب عنه هو بالايجاب.

علاقـــة الثقافـــي بالسياســـي
عنـــد محمـــد داود
مـــن خـــلال مجلـــة الســـلام

إدريـــس كـــرم

مدخـل :

قد يرى البعض أن الثنائية المعنون بها قد يكون فيها بعض التجاوز بالنسبة لمرحلة مطلع الثلاثينات، حيث كانت ندرة المطبوعات، وخاصة الجرائد والمجلات، لدرجة أن هم الشباب المثقف في تلك الفترة كان هو العمل على إيجاد منابر أو منبر لإسماع صوت المغرب والدفاع عن قضاياه المختلفة، الأمر الذي جعل من يوم صدور مجلة أو جريدة ولو في باريز يوم احتفال عظيم (1) كما وقع بالنسبة لمجلة «مغرب» التي صدرت بباريز سنة 1932 حيث كلف بها الأستاذ أحمد بلافريج، وكذا جريدة «عمل الشعب» الصادر بفاس بالفرنسية «لأن الصحافة العربية لم يؤذن بإصدارها حتى ذلك الحين ولاة الحماية» (2).

وتحت تأثير منع المغاربة من إصدار الجرائد والمجلات كانت هناك محاولات لإصدار جرائد ومنشورات بخط اليد كما وقع في فاس وسلا، ففي الأولى ظهرت مجلة شهرية سرية باسم «أم البنين» أسسها علال الفاسي مع ثلة من إخوانه كما يقول في كتابه «الحركات الاستقلالية» كانت تصدر بانتظام في أربعين صفحة، وتكرر على «البولي كوبي» ثم توزع على الجماعات السرية بفاس والرباط ومراكش وتطوان (3).

كما كانت تصدر جماعة بسلا صحيفة «الوداد» في أواخر العشرينات وكذلك صحيفة «المدرسة» اللتين كانتا تكتبان بخط اليد وتوزعان على القراء مقابل خمسين سنتيما وقد صدرت بعض أعدادها من نابلس بفلسطين على يد سعيد حجي لما كان هناك يتابع دراسته، ونفس التضييق كان يمارس على منطقة الحماية الاسبانية حيث لم يستطيع منشئوا المطبعة المهدية بتطوان سنة 1925

---

1 . انظر كلمة الأستاذ محمد بلحسن الوزاني في الحفل الذي أقيم بعد صدور مجلة «مغرب» بباريز والذي أوردت نصه مجلة «السلام» في العددين الثالث والرابع/1933، تحت عنوان مجلة «مغرب» أو حقيقة الوطنية المغربية.

2 . علال الفاسي : «الحركات الاستقلالية في المغرب العربي» مطبعة الرسالة ط 4 ص : 154.

3 . علال الفاسي : مصدر سابق ص : 139.

إصدار صحيفة أو مجلة إلا بعد مضي سنوات حيث تمكن الأستاذ محمد داود من إصدار مجلة «السلام» سنة 1933. وبعدها أصدر جريدة «الأخبار» [4].

فصدور أية جريدة أو مجلة كان مكسبا للحركة الوطنية التي بدأ يشتد عودها، ويزداد تطلعها لمنابر تعبر منها عما يقع في البلاد، خاصة بعد صدور الظهير البربري، وبذلك يمكن القول بأن علاقة الثقافي بالسياسي كانت علاقة تمفصلية، بحيث لا يمكن فصل البحث عن دفائن المخطوطات وإبراز ما تحتويه من إبداعات عن المطالبة بتحقيق ما جاء في بنود الحماية من العمل على تجهيز البلاد وترقيتها عن طريق خلق المشاريع وإطلاق الحريات، وهو ما سنجده متجليا في أعمال الأستاذ محمد داود الذي ينسب إلى الثقافة أكثر مما ينسب إلى السياسة ومع ذلك نجده يطرد من طنجة والرباط، وتوقف مجلته، وتصادر، بل إن هذا التمفصل يظهر حتى في الانتاج الذي كانت تنشره منابرة الإقامة العامة ك «مجلة المغرب» الصادرة بالرباط والمزامنة لمجلة «السلام».

وعليه يمكن القول بأن البحث في علاقة الثقافي بالسياسي عند الأستاذ محمد داود يطال الفترة بكاملها التي تصل إلى ما بعد استقلال البلاد باعتبار القوانين المتشابهة التي تصدق على تلك الفترة سواء على مستوى الأهداف أو الأدوات أو القدرات المعرفية، مما يجعلنا نقول بأن مجلة «السلام» نموذج لما صدر بعدها من مجلات وجرائد، وعليه فالبحث في محتواها وشكلها يطلعنا على القواعد التي انبنى عليها العمل الثقافي والاعلام السياسي في المغرب الحديث، ويلغي معه أي احتراز على بحث مثل الذي نود القيام به عند مثقف بارز ورائد من روائد النهضة بالمغرب وأعني به الأستاذ محمد داود. وهكذا سنحاول البحث في :

1 ــ دواعي تأسيس مجلة «السلام».
2 ــ التمويل والتأطير.
3 ــ المادة المنشورة ومصدرها.
4 ــ حصيلة سنة من ظهور مجلة «السلام».
5 ــ خلاصة عامة.

داوعــي التأسيــس

جاء في افتتاحية العدد الأول من مجلة «السلام» تحديد أهداف المجلة بقلم محررها الأستاذ محمد داود ملخصة في أحدى عشر نقطة مرتبة كالتالي :

1 ــ التربية والتعليم.
2 ــ الأخلاق والتهذيب.
3 ــ الأب.
4 ــ تعميم الثقافة وتوحيدها.
5 ــ الاقتصاد والاجتماع.

4 . المهدي بنونة : المغرب.. «السنوات الحرجة» كتاب الشرق الأوسط، ص 51 و 52.

6 ــ الرياضة والصحة.
7 ــ التجديد.
8 ــ بيننا وبين بقية الأقطار الشرقية.
9 ــ الأفكار المتطرفة.
10 ــ ما ينشر عن بلادنا.
11 ــ مبدأنا السياسي.

وقد جاءت هذه المقدمة تحت عنوان : مبدأنا وغايتنا» في اثنى عشر ــ 12 صفحة بأسطر تصل إلى اثنين وعشرين سطرا، وزعت كالتالي :

المبـــدأ	عدد الصفحات	عدد السطور
الديباجة	3	00
التربية والتعليم		11
الأخلاق والتهذيب الأب		5
تعميم الثقافة وتوحيدها	نصف صفحة	6
الاقتصاد والاجتماع		11
الرياضة والصحة	01	00
التجديد		5
بيننا وبين بقية الأقطار الشرقية		8
الأفكار المتطرفة		6
ما ينشر عن بلادنا		7
مبدأنا السياسي	4	

فالملاحظة الأولى عن هذه المقدمة تقول بأن الطابع السياسي هو المهيمن لا على مستوى العنونة، فحسب ولكن أيضا على مستوى الأهمية المعطاة للمبدأ السياسي بالقياس إلى المبادىء الأخرى خاصة الأدب والثقافة بيد أن هذا الفهم الذي يعطي الأولوية للسياسي لا يلبث أن يقيد بالحرص على استقلالية المجلة من خلال تعدد التعاريف المعطاة لها، ففي العدد الأول وقبل المقدمة السابقة، نجد تعريفا في ص 4 يقول : «بأنها صحيفة الشباب والكهول والشيوخ والعلماء الذين يربطهم هدف إنهاض البلاد والإخلاص لله والوطن والدولة المغربية» [5].

وتحت نفس التعريف بنفس الصفحة، وجه المحرر نداء إلى الكتاب حدد لهم فيه طبيعة المواد

5 . لاحظ أن شعار المملكة هو : الله الوطن الملك، وشعار المجلة كان هو : الاسلام، المغرب، وكان يطبع على شكل دائرة غير مغلقة من الأعلى وداخلها اسم المجلة «السلام» في وجه المجلة من الأعلى.

التي تحتاجها المجلة والقابلة للنشر على أعمدتها كالتالي : «المقالات العلمية والأدبية والتاريخية، والقصائد الشعرية، والنقد والمناظرة، وكل ما لا يمس بالأخلاق أو الدين، أو مصادمة القوانين العامة والخاصة».

وفي تعريف آخر كان يثبت غالبا تحت العنوان في الصفحة الثانية من الغلاف يقول : «مجلة إسلامية عربية مصورة جامعة، انشئت لخدمة الأقطار الإسلامية على العموم، والشمال الأفريقي على الخصوص، وتعمل لنشر الثقافة العربية، وتنشيط النهضة المغربية وتصدر مرة في الشهر صاحبها ورئيس تحريرها محمد بن أحمد داود».

وإذا كانت دواعي التأسيس واضحة فالسؤال الذي يتبادر إلى الذهن من كان وراء محمد داود للقيام بهذه المهمة الخطيرة ؟ وهل بإمكانه وحده أن يقوم بتحقيق هذه الأهداف التي تلتقي مع ما ينادي به الشباب في باقي أنحاء المغرب ؟

يقول الأستاذ المهدي بنونة «في عام 1925 أنشئت أول مطبعة في تطوان بجهد ذاتي، فقد أنشأ والدي مع السيد محمد محمد داود ومجموعة من أصدقائهم في تلك السنة مطبعة «تبادرت إلى ذهنهم مسألة إصدار صحيفة وطنية.. وتقدم والدي بعدة طلبات لإصدار تلك الصحيفة دون جدوى..» [6] وكما أسلفنا فقد طبعت هذه المطبعة مجلة «السلام» أي أن مسألة الطبع كانت محلولة لأن صاحب المجلة يملك حقا في مطبعة المهدية بقي التوجيه الأدبي حيث نجد الأستاذ علال الفاسي يقول في كتابه : «الحركات الاستقلالية» بأن الكتلة بعد إصدار مجلة «مغرب» بباريز «اتفقنا مع إخواننا بشمال البلاد على إصدار صحف باللغة العربية، فأخرج الأستاذ داود مجلة «السلام» الغراء التي كانت مجلة جامعة مليئة بالروح الوثابة والوعي الصحيح، وقررت كتلة الشمال أن تصدر جريدة «الحياة» لتكون لسانها الناطق باللغة العربية» [7].

فالمجلة كما يظهر مستقلة عن الكتلة الوطنية وإن كانت تختلف معها في الأهداف العامة لكن من أين جاءت بالتمويل ومن كان يؤطرها ؟

2 ـــ التمويـــل والتأطيـــر

يقول الأستاذ داود في كلمة «ختام السنة الأولى» لم نقبض من أي فرد قريب أو بعيد، أو أية هيئة وطنية أو حكومية درهما واحدا زيادة على بدل الاشتراك المنشور على غلاف المجلة (..) إن صندوق «السلام» لم يدخل إليه سنتيم واحد..» [8].

وقد بلغت الاشتراكات في المجلة مئة وواحد أخذ منها شخصان باسم محمد عشر نسخ لكل واحد، أما الباعة فقد كانوا يمتنعون عن دفع ثمن المبيعات كلما منعت المجلة من الدخول إلى منطقة نفوذ الحماية الفرنسية [9].

6 . المهدي بنونة : مصدر سابق ص : 51.
7 . علال الفاسي : مصدر سابق ص : 140.
8 . محمد داود : ختام السنة الأولى : السلام (مجلة) ع 1934/.10 السنة 1 ص 66 و 67.
9 . محمد داود : ختام السنة الأولى مصدر سابق ص 67.

كما أن المجلات والصحف المشرقية التي كانت ترسل لها المجلة للمبادلة، كانت تنقل منها المواد دون الاشارة إليها، ناهيك بعدم موافاتها بنسخ بديلة مما جعل المجلة تستنكر هذا العمل في عددها السادس قائلة «فهل هذا جميل بإخواننا الشرقيين ؟ وهل يرضيكم با زملائنا أن تشتري إدارتنا صحفكم من الباعة في حين أن إدارتكم الغنية تتسلم مجلتنا بانتظام من يوم صدورها إلى الآن» (10).

وكما كان محمد داود يمول المجلة كان هو الذي يؤطرها ويشرف على بيعها والاتصال بالكتاب، وهو ما يظهر في تعليقه على الطرد الذي لحقه في كل من الرباط وطنجة على يد السلطات الاستعمارية وقد أوردت المجلة في عددها العاشر نص قراري الطرد والمنع تحت عنوان : ليسجل التاريخ : «براذين الاستعمال أو كيف تعاملنا فرنسا»، بين فيه الأسباب الحقيقية التي جعلت المستعمرين يتخذون قرارهم ضده، لأنه ليس إلا واحدا من الشباب الأحرار المتشبثين بدينهم وملكهم ويرومون العزة لبلادهم، ويقول قرار النفي المنقول من الجريدة الرسمية لمنطقة طنجة عدد 10 ص 461.

«الايالة الشريفة ـــ مندوب الجلالة الشريفة بمنطقة طنجة ـــ قرار ـــ إن مندوب الجلالة الشريفة بطنجة، نظرا للفصل الرابع من ظهير 10 رجب 1342 (16فبراير 1924) الصادر بتنظيم إدارة منطقة طنجة، ونظرا لتقرير رئيس إدارة البوليس المؤرخ 2 يوليو سنة 1934 المتعلق بحوادث فاتح يوليو، ونظرا لنتائج البحث الذي أجراه خليفنا المندوبية في الحوادث المذكورة ولما أثبته من أن المسمى محمد داود المغربي الجنسية الساكن بتطوان مدير مجلة السلام الذي يتردد مرارا إلى طنجة الذي ثبت عليه يوم فاتح يوليو أثناء مرور الهدايا لسيدي محمد الحاج بوعراقية أنه أظهر بأقواله وإشاراته وخطته ما له من العواطف الشديدة البغضاء نحو الأجانب الأمر الذي كان في الإمكان أن يثير اضطرابات ذات خطر كبير في يوم هذا الموسم الديني، وأن يخل بأمن طنجة العام بسبب هيجان الأفكار ووجود جمهور متعصب، وحيث أن في وجود المذكور بطنجة خطرا على الأمن العام قرر :

الفصل الأول : ينفى المسمى محمد داود المغربي الجنسية المذكور من منطقة طنجة.

الفصل الثاني : لمدير منطقة طنجة أن ينفذ هذا القرار. وحرر بطنجة في 26 ربيع الأول سنة 1353 موافق 9 يوليو سنة 1934.

محمد التازي لطف الله به».

فأسباب المنع حسب هذا القرار تتعلق ب :

1 ـــ بغضه للأجانب

2 ـــ وجود توتر في مناسبة تقتضي ألا يكون.

3 ـــ الخوف من وجوده بين جمهور متعصب من غير أن يذكر التقريرالسبب.

3 ـــ التأكيد على أنه مدير مجلة وأنه دائم التردد على المدينة والملاحظة أن هذا المنع جاء بعد منع سابق تعرضت له المجلة في منطقة الحماية الفرنسية نقلته مجلة «السلام» مع القرار السابق الذكر

10. إلى الصحافة العربية : السلام (مجلة) ع 6 سنة 1 مارس 1934 ص : 2.

عن الجريدة الرسمية للدولة الشريفة المحمدية الصادر بتاريخ 18 مايو سنة 1934 عدد 1125 ونصفه :

أمر — في منع المجلة المسماة «السلام» من الدخول إلى المنطقة الفرنسوية بالأيالة الشريفة من الجنرال دوك ماك كارتي القائد الأعلى للجيوش المغربية مؤقتا، بناء على الأمر المؤرخ في 2 غشت سنة 1914 المتعلق بجعل البلاد تحت النظام العسكري المغير بالأمر المؤرخ في 7 يبراير 1920. وبناء على الأمر المؤرخ في 25 يوليه 1924 المتعلق بالتفويضات الممنوحة للولاة العسكريين فيما يتعلق بالنظام العام المغير بالأمر المؤرخ في 19 فبراير سنة 1929.

نظرا للمطلب عدد 189 الموجه في 13 ماي 1934 من طرف الوزير المفوض المعتمد بالاقامة العامة، وحيث أن المجلة التي عنوانها «السلام» الصادرة بتطوان باللغة العربية من شأنها أن تشوش على النظام العام وتضر بالأمان المتعلق بجيوش الاحتلال نأمر بما يأتي :

إن المجلة التي عنوانها «السلام يمنع إدخالها إلى المنطقة الفرنسوية بالأيالة الشريفة، وكذلك عرضها في المحلات العمومية وتعليقها وبيعها وعرضها للبيع وتوزيعها وكذلك تمنع أي جريدة تسلك مسلكها السياسي صادرة تحت عنوان آخر بمساعدة جميع أو بعض العاملين لجريدة «السلام» ويتابع المخالفون طبقا للفصول 4/3/2 من الأمر المؤرخ في 2 غشت سنة 1914 المغير بالأوامر المؤرخة في 7 فبراير سنة 1920 و 25 يوليه سنة 1924 و 19 يبراير سنة 1929 والسلام، وحرر بالرباط في 16 ماي 1934 [11]. فالمجلة ممنوعة لأنها تضر بالأمان المتعلق بجيوش الاحتلال، وإن العاملين بها إذا ما عملوا في مجلة أخرى أو جريدة، فإنه يجب منعها أيضا أي أن المنع في الواقع موجه إلى أصحاب المجلة، وكتابها وهو ما يعني بأن الثقافي ليس بعيدا عن السياسي.

والمثير للانتباه أن قرار المنع هذا صادر في يوم ليس كالأيام ذلك أن يوم 16 ماي يوافق تاريخ صدور الظهير البربري الذي كان يطلق عليه «ظهير 16 ماي» كما تعرض الأستاذ داود للطرد من الرباط بعد أن استجوبه البوليس مدة ست ساعات أركباه بعدها سيارة للشرطة أو صلته إلى حدود المنطقة الشمالية، بعد أن سحب منه جواز سفره، والذي أعيد له عن طريق القنصلية الفرنسية بتطوان بعد أن كتب عليه : أخرج صاحب هذا الجواز من منطقة الحماية الفرنسية بالمغرب لأنه منفي منها، كما طرد أخوه من فاس. ومنعا من الدخول إلى الجزائر وتونس [12].

والجدير بالذكر أن مدير «السلام» كان في الرباط لجمع مبيعات المجلة التي كانت قد أصدرت عددها التاسع والذي كان يحمل بحثين هامين هما :

السياسة البربرية والتعليم في عشر صفحات.

البربر بين الشريعة والعرف في عشر صفحات.

فهل كانت المجلة مستقلة ماديا، مؤطرة من منظمة سياسية مما جعل المستعمرين يتبرمون بها وبصاحبها ؟ للإجابة عن ذلك سنحاول البحث في المواد المنشورة وكيفية استكتاب الكتاب.

11. برادين الاستعمار : السلام (مجلة) ع 10 السنة 1 نوفمبر 1934 ص 63 و 64.
12. برادين الاستعمار : مصدر سابق ص : 65.

المـادة المنشورة ومصـدرهـا

يتكون هيكل المجلة من :

1 ــ قسم خاص بالصور يضم حوالي ثمان صفحات في البداية.
2 ــ قسم أدبي يضم الدراسات والأبحاث والترجمات.
3 ــ ركن معرض الأفكار ويضم آراء لأقطاب العالم الإسلامي ومفكري الأمة العربية يدلون بآرائهم في الأدب والسياسة والاجتماع.
4 ــ ركن في رياض الشعر.
5 ــ معرض الكتب.
6 ــ إعلانات.

فكيف كانت تغطي هذه الأركان ؟ ومن هم كتاب المجلة ؟ يلاحظ ان كتاب المجلة أغلبهم من منطقة الحماية الفرنسية وأبرز الذين لم يخل منهم عدد أو جل الأعداد هم : عبد الله كنون الذي كان يساهم في العدد الواحد بالدراسة والشعر وكذلك الأمر بالنسبة لعلال الفاسي ثم يأتي عبد السلام بنونة وأصحاب التوقيعات المرموزة مثل : «م.م.ن» و «أم» وفي الأعداد الأخيرة بدأت كتابات أحمد بلافريج وعبد الخالق الطريس، زترجمات الحسن بوعياد، وأبحاث سعيد حجي، وعبد السلام الفاسي.

أما أصحاب الآراء فكانوا من المشرق والمغرب العربي وطريقة استكتابهم يوضحها الأستاذ داود كالتالي : «منذ بضع سنوات فكرت في تأليف مجموعة لإمضاءات العظماء وكلمات المفكرين، وطبعت لذلك أوراقا خاصة وزعت قدرا منها بنفسي إما مباشرة أو بواسطة البريد، ودفعت قدرا آخر لعدد من أصدقائي لتوزيعها على من يتصلون بهم في مختلف الأنحاء من مشاهير أمتنا العربية الماجدة ليكتب كل واحد أية فكرة تظهر له.

وها أنا الآن وجدت سانحة للشروع في نشر ما يمكن نشره من تلك الكلمات التي احتفظ بأصولها» [13].

وهكذا قدم في العدد الأول آراء كل من :

شكيب أرسلان، محمد رشيد رضا، عمر طوسون، محمد علي كرد، عبد الرحمان شهبندار، محي الدين الخطيب، عباس محمود العقاد، مصطفى الغلاييني، أحمد أمين، محمد علي دروزة.

وفي رياض الشعر كان يقدم الأناشيد منوطة كما كان يقدم مختارات لشعراء مغاربيين أو عرب أحياء تحت عنوان «سبع مثاني لشعراء أحياء بالأقطار المغاربية» مرة ومرة بالأقطار العربية».

وإذا كانت الأعداد الأولى قد التزمت بهذا التبويب فإن الأعداد الأخيرة وخاصة ثمانية وتسعة وعشرة فقد خصصت حيزا كبيرا للدراسات النقدية المتعلقة بالممارسات الاستعمارية، وخاصة فيما يتعلق بالتعليم والظهير البربري، والمحاكم العرفية التابعة للإقامة، وهي الأعداد التي تسببت في إصدار أمر الإقامة العامة بطرد الأستاذ داود من منطقة النفوذ الفرنسي، ومصادرة مجلة «السلام»، كما أدت بهذا الأخير إلى إعادة

13. السلام (مجلة) ع 1 السنة 1 أكتوبر 1933 ص 31.

طبع العدد التاسع في كتاب تحت عنوان «كتاب العزيمة» (14) مما يجعلنا نجزم بأن الرجل مناضل من أجل قضية المغرب في المجال السياسي بالرغم من عدم انتمائه إلى تنظيم معين، وهذا يظهر حتى في المواضيع المختارة سواء على مستوى البحث والدراسات، أو على مستوى الأشعار والآراء، فمن بين عناوين الدراسات المقدمة على صفحات المجلة مثلا :

ـــ مطلبنا لعبد الخالق الطريس.
ـــ مجلة «مغرب» أو حقيقة الوطنية المغربية لمحمد بلحسن الوزاني.
ـــ النهضة الأدبية العربية سعيد حجي.
ـــ صورة من تاريخنا الوطني الحاج محمد بنونة.
ـــ الاستعمار الفرنسوي بالمغرب سياسة التناقض بوعزة الزموري.
ـــ شعراء البربر وسياسة فرنسا بالمغرب شاعر بربري.
ـــ الهند تناضل في سبيل الحرية والاستقلال،
ـــ ثلاثة قرون على عرش الدولة المغربية، أبو الفداء.
ـــ الشباب الأفريقي حالته وكيف يجب أن يكون. علال الفاسي.

ومن الأشعار المختارة لشعراء أحياء نقدم النماذج التالية من العدد الثالث الصادر في ديسمبر 1933، والمخصصة لأقطار المغرب العربي :

شباب الأمة اطرحوا المناما وسيروا بين قومكم أماما
فليس يضربكم ما قد لقيتم إذا كنتم لأمتكم قواما
(رباط الفتح ـــ المكي الناصري)

وما لي من أبناء قومي لا أرى فتى قام للاصلاح يستنهض الشعبا
ألم يان أن نسعى لاصلاح شأننا فقد مر حين لم تدع شمسنا الغربا
(«فاس» الحسن الداودي)

بني وطني أحيو علوما دوارسا فكل بلايا الشعب جاءت من الجهل
بني وطني هيا ارفعوا شأن قومكم فقد جرعوا كأس المهانة والذل
(«تطوان» محمد عزيمان).

ما بال قومي لم ينهض بهم عمل والناس كلهم بالعلم قد عملوا
تقاعدوا عن فنون نال غيرهم تحصيلها ورأى قومي لها غفلوا
(«سطات» عبد الكريم سكيرج)

---

14. كتاب العزيمة، جامعه م. أبو سليمان صدر بالمغرب في صفر 1353 يونيو 1934. وقد جاء في تقديمه بعد البسملة والتسليم «وبعد فهذا كتاب «العزيمة» وهو عبارة عن مجموعة علم وأدب وتاريخ، تقدمه إلى أبناء وطننا العزيز حفظهم الله ووفقنا وإياهم لما في صلاح البلاد والعباد ص : 1

بني وطني إن شئتم سبل الرشد وذكرا مكينا في الحياة وفي اللحد
فضلوا نفوسا في سبيل تقدم يشيد أوطانا تداعن بلا حد
(«مراكش» أحمد بن اليزيد الادريسي)
لا تبلغ العلياء دون ثبات هيضات دون المجد كل أذات
والمرء يدرك بالثبات على العلا ما عزمن غرض ومن غايات
(«الجزائر» سعيد الزاهري)
هيا، نفتوا نظرا إلى الشوق الذي إلى على تحطيم الاستبداد
هبت عليه نسائم الحرية الفيحاء فهزت منه كل فؤاد
(«تونس» الهادي المدني).

أما السلام المصور والتي كانت تبدأ به المجلة صفحاتها، فقد كانت تخصص للمآثر والشخصيات الوطنية والجمعيات الخيرية والعلمية وكمثال نقدم صور العددين الأول والثامن فبالنسبة للعدد الأول نجد الصور التالية : صورة عامة لقسم من مدينة تطوان، صورة لساحة الفدان. نموذج لفراش البيوت في تطوان، نموذج لهندسة الدور بتطوان، صورة لتلاميذ وأساتذة المدرسة الأهلية بتطوان. صورة للمسجد الأقصى. صورة لباب منصور بمكناس، الهيئة الادارية لجمعية الطالب المغربية بتطوان.

أما العدد الثامن فنجد به الصور التالية :

المجلس الاداري الجديد لجمعية الطالب المغربية بتطوان :

هدية العيد إلى سمو الخليفة السلطاني. صورة أعضاء الوفد القرآني برباط الفتح. صورة في مصلى العيد الكبير بفاس. صورة الوفد المراكشي. عريضة مراكش. عريضة مراكش إلى جلالة السلطان، صورة الزعيم العربي موسى كاضم الحسيني، مرفوقة بمضاهر تواجه الجندي البريطاني، صورة لوفد السلام بين الملك عبد العزيز ابن سعود والامام يحيى حميد الدين، صور لأبطال رياضيين مغاربة.

حصيلة سنة من ظهور مجلة «السلام»

يقول الأستاذ داود عن مجلة السلام في عددها العاشر «هذه المجلة التي وإن كانت في نفسها صغيرة ومحدودة في دائرة ضيقة، إلا أننا إذا استثنينا مصر ونظرنا إلى بقية القارة الأفريقية كلها لن نجد لها مثيلا في عدد صفحاتها وتنوع موضوعاتها، وعدد صورها، وإن كانت هناك مجلات أخرى لا تقل عنها وطنية وإخلاصا وسمو مبدأ وعزة نفس» [15].

وإذا كانت المقدمة قد أفاضت في تحديد المبدأ السياسي فإن التركيز في تقييم على الجانب السياسي يجد ما يبرره في المواضيع المنشورة في المجلة، والتي لا تفرق بين الثقافي والسياسي على اعتبار أن الهدف هو النهوض بالبلاد وتوعية الشباب المتعلم، وتقوية الهوية الوطنية والشخصية المغربية بمقوماتها الوطنية وهويتها الدينية.

15. محمد داود : ختام السنة الأولى : السلام، ع 10 ص : 66، مرجع سابق.

فمجلة «السلام» جاءت لتحقيق هدف نهضوي كانت تنشده الفئة المثقفة في مغرب الثلاثينات، متخدة من الكلمة سلاحها، وهذه الكلمة لكي تمر إلى العموم لا بد أن تطبع في مجلة أو جريدة أو نشرة، وهذا ما يفسر لنا تواجد النشيد مع المختارات الشعرية والقصائد الطويلة والأبحاث والمترجمات جنبا إلى جنب جوازها أنها إما تحريضية أو انتقادية أو وصفية، كما يفسر لنا سكوت المجلة عن المعارك التي كانت ما تزال دائرة في جبال الأطلس ضد التغلغل الفرنسي، مما يجعلنا نقول بأن الرهان تحول إلى الميدان المعرفي عوض العسكري، وهذا التحول لن يترك مجالا للثقافي إلا وسيس على أساس أن الكلمة المكتوبة صارت أداة نضال ومواجهة.

يقول الأستاذ علي الفاسي في العدد الأول من مجلة «السلام» إن الأمة التي لا تملك من الصحافة ما يسد حاجتها ولا من حرية القول ما يكفل لها الدفاع عن نفسها والنضال عن شؤونها، وبث روح العلمية والثقافية فيها لأمة عديمة لكل وسائل الرقي والتقدم فاقدة لجميع الدوافع والمنهضات (..) هناك مهمتان أساسيتان للصحافة الدفاع والتنوير (...) وعسى أن يكون صدور مجلة «السلام» في المنطقة الخليفية، فاتحة عصر جديد تتحقق فيه رغبات الوطن، ويساعد على تكوين صحافة قومية راقية تتناول كل نواحي الحياة العامة، حتى يظهر للعالم ما هو كامن في شعبنا من ذكاء ومقدرة، وما هو خاف من أحوال وشؤون» (16).

وهذا الهدف هو ما جاءت مجلة «المغرب» المدعومة من طرف الإقامة العامة تدعو إليه حيث نجد في مقدمتها «وبعد فقد نرى بادىء ذي بدء من الواجب المحتم علينا شكر أولى الأمر من المخزن الشريف وإدارة الحماية عن قبول طلبنا في إبراز هذه المجلة التي أردناها أن تكون مرآة يتراءى فيها الشعب المغربي النبيل مفكرا حيا، ناطقا بلسانه كاتبا بقلمه، لا خبرا على ورق، ومجرد سواد على بياض، فهي ولا شك خطوة جديدة في حياة هذا البلد السعيد، ووسيلة من وسائل الرقي التي لا يستغني عليها، ولا بد له منها (...) يسلط عليها الشعب أنظاره، ويبث فيها مطالبه وأفكاره» (17).

فالتوجه الصحافي وما يتطلبه من إنتاج ثقافي كان سمة هذه المرحلة المتقدمة من مراحل تحديث البلاد والدعوة إلى استقلالها، وهذا لن يتسنى إلا إذا وجدت أقلام مؤمنة بالفكر النهضوي المؤمن بالقيم الوطنية والمتشبث بالحرية والهوية الوطنية وهو ما قامت به مجلة «السلام» على أكمل وجه مما عرضها لمصادمة القوانين التي نبهت الكتاب في عددها الأول إلى عدم التصدام معها، بيد أن منتوج المجلة انطلاقا من شعارها الاسلام، المغرب، العروبة إلى العدد العاشر كان صداميا إذا ما نظر إليه من طرف المستعمر، وإصلاحيا إذا ما نظر إليه من توجيهات عقد الحماية، خاصة الفصل الأول منها الذي يقول :

«حكومة الجمهورية الفرنسية وجلالة السلطان توافقا على إنشاء نظام جديد في المغرب، قابل للاصلاحات الادارية والقضائية والمدرسية والاقتصادية والمالية والعسكرية التي ترى الحكومة الفرنسية في إدخالها للمغرب فائدة» (18).

---

16. علال الفاسي : حاجتنا إلى الصحافة، هل في المغرب قراءة السلام،عدد 1 ص 16 و 19، مصدر سابق.
17. مجلة «المغرب» تثقيفية عمرانية أدبية ع 1932/1 ص 1 و 2 المطبعة الجديدة الرباط.
18. أبو الفداء : معاهدة الحماية كما يرويها الأجانب، السلام (مجلة) ع 14 يناير 1934 ص : 10.

لذلك نجد الاستاذ داود يقول في افتتاحية العدد الأول من «السلام» نحن نعتبر إسبانيا وفرنسا في بلادنا كدولتين مرشدتين تمدان إلينا يد المساعدة مؤقتا وتتبادلان معنا المصالح حتى إذا ما وصل الزمان الذي نصير فيه قادرين على إدراة شؤوننا بأنفسنا مددنا يدنا مصافحين شاكرين لإخواننا الاسبانيين والفرنساويين ما قدموه لنا من الخدمات، وما مهدوا لنا من طريق الرقي والتقدم، وإذا ذاك يصير وطننا المغربي العزيز حرا مستقلا لا تربطه بغيره من البلاد غير روابط الصداقة والوداد وتبادل المصالح بين الطرفين مع تمتع كل منهما بجميع حقوقه ومعاملة الطرف الآخر معاملة الند للند لا معاملة التابع للمتبوع» (19).

خلاصـــة عـامـــة

إذا كانت كلمة الأستاذ داود المعنوية بـ «ختام السنة الأولى» تركز في مجملها على الجانب التقني للمجلة من تمويل وتوجيه وإعداد، فإن العدد العاشر برمته الذي جاءت هذه الكلمة = في آخره يعتبر خلاصة ما وصلت إليه قناعة المثقفين الذين هم كانوا يقومون بأدوار سياسية، سواء عن طريق ما يكتب، أو ما يختار من الصور والتعاليق وكمثال لذلك العناوين التالية :

ــ حول نهوض الأمة الاسلامية، معالي محمد على علوية باشا.
ــ صور من تاريخ أمتنا الوطني، الحاج محمد بنونة.
ــ الاستعمار الفرنسوي سياسة التناقض، بوعزة الزموري.
ــ شعراء البربر وسياسة فرنسا بالمغرب، شاعر بربري.
ــ برادين الاستعمار (20).

والتعاليق على الصور كالتالي :

1 ــ منذ مدة غير قصيرة تألفت من نخبة مفكري تطوان لجنة حرة جعلت مهمتها النظر في التعليم الخاص، أي إنشاء المدارس الأهلية وبتعميمها وتنشيط الموجود منها والبحث عما يضمن حياتها مع وضع البرامج المناسبة لها الخ (21).

2 ــ صور بعض الشبان الأحرار الذين وقع نفيهم من مدينة طنجة ظلما وعدوانا لأنهم مسلمون يحبون دينهم ووطنهم ويبغضون الظلم والاستبداد (22).

3 ــ «في سبيل الوطن أيها الأحرار» ذلك هو العنوان الذي خصص لصور الوطنيين التونسيين المنفيين إلى جنوب تونس من طرف فرنسا، ومما جاء في التعليق على الحادث « لا ندري والحالة هذه تقصد فرنسا بهذا الضغط الشديد على الأقطار المنكوبة بحكمها، بدلا من مصافحة الأيدي التي طالما مدت للتعاون على ما فيه مصلحة الجميع فهذا المغرب يشكو وهذه الجزائر تئن، وهذه سوريا بجميع أقسامها تناضل، وأخيرا هذه تونس «الشهيدة» تونس المحبوبة ينفى أحرارها، وتغلق نواديها وتحل أحزابها،

---

19. محمد داود : مبدأنا وغايتنا، السلام (مجلة) ع 1 ص 14، مصدر سابق.
20. فهرس مجلة السلام عد 10/نوفمبر 1934 ص 1.
21. السلام المصور مجلة السلام ع 10 ص 2.
22. السلام المصور : ص 3 مصدر سابق.

وتعطل صحفها وتسن القوانين الزجرية لشعبها الطاهر القلب، المخلص لدينه ووطنه، وأمته فإلى أين يا قادة فرنسا المغرورين ؟» [23].

4 ــ «حفلات عيد المولد النبوي» عنوان لثلاث صور من المركب الاحتفالي بتطوان الذي عوض العادات القديمة بأخرى تحتوي على مناظر ذات مغزى إصلاحي كما جاء في التعليق وهذه الصور هي :

«جماعة من شبان يمثلون غاندي وحوله اتباعه يدعون الناس إلى الاقبال على المصنوعات الوطنية، ونظن أنهم لا يقصدون أي مغزى آخر بتمثيل غاندي الذي كانوا ينادونه بغاندي الوطني».

«جماعة تمثل المركب السلطاني وحوله شبان يحملون السلام إشارة إلى تعلقهم بالعرش الشريف».

«جماعة تمثل المدفعية المغربية» [24].

5 ــ صورة أعضاء جمعية أبناء القرويين وهي جمعية علمية دينية أدبية أراد تلاميذ كلية القرويين تأسيسها ولكن يظهر أن رحابة صدر فرنسا الحريصة على تمدين المغرب ! وترقيته إلى أسفل !! لا تتسع لمثل هذه الجمعيات...» [25].

وعليه نقول بأن علاقة الثقافي بالسياسي كانت كما أسلفنا علاقة تمفصل باعتبار الأوضاع.

الاقتصادية والاجتماعية والسياسية حيث كانت الفئات المثقفة ما زالت من القلة بحيث لا يتسنى لها ممارسة الاختصاص في فن من الفنون أو شكل من أشكال المعرفة.

كما أن المرحلة كانت تتطلب من المتعلم أن يمارس الاصلاح على غرار نماذج معينة في المشرق أو أوربا ولذلك كنا نجد الاهتمام بما كان يجري في الهند وأندونيسيا بلاد المشرق عامة من مناهضة الاستعمار، وما يجري في فرنسا من مظاهر التمدن والحداثة أي أن المتعلم كان مطلوبا منه أن يقوم بدور سياسي إنطلاقا من موقعه الثقافي وهو ما يفسر لنا سكوت المجلة على الجانب العلمي الذي كان يعتمد مقاومة المستعمر بالسلاح، حيث لا نجد في المجلة أية إشارة إلى ما وقع من مقاومة للجيوش الاستعمارية، ولا لما ارتكبته من مذابح في طول البلاد وعرضها. والتي كانت ما تزال قائمة في جبال الأطلس الكبير، سواء إبان الاحتلال أو بعده.

لذلك يمكن القول بأن الاتجاه إلى العمل الصحافي كان يحركه الهاجس السياسي، وأن العمل الثقافي لم يكن إلا طريقا لتنفيذ ذلك الهاجس وإخراجه من دائرة القوة إلى دائرة الفعل.

وعليه فإن مواجهة المستعمر أصبحت تقتضي التسلح بالقلم عوض البندقية، والقلم لا بد له من ممتهنين، تنجبهم المدارس والجمعيات والمنظمات التي هي بدورها يجب أن يهتم بأمرها سواء على مستوى الأحداث أو توفير لوازم العمل من مقررات ومدرسين ومعدين مما يجعل المثقف صاحب رسالة يختلط فيها الثقافي بالسياسي، بل يجعل السياسي أساس كل عمل ثقافي، إن لم يكن مسيم المثقف

23. السلام المصور : ص 9 مصدر سابق.
24. السلام المصور ص : 13 مصدر سابق.
25. السلام المصور : ص 15، مصدر سابق.

نفسه وهويته، حتى ولو لم يمارس الفعل السياسي إذ يكفي أنه مثقف، أو قارىء لنوع معين من المجلات والجرائد والكتب، وهي صفة بقيت متداولة إلى ما بعد الاستقلال.

لذلك لا غرابة إذا قلنا بأن مجلة «السلام» ومديرها نموذج للذي يريد أن يدرس علاقة الثقافي بالسياسي قبل الستينات.

الفقيه محمد داود ومجلة «السلام»
1933 ـ 1934

محمد مرجان

تقديم

ليس الغرض من هذا العمل ــ المتواضع ــ إثبات العلاقة بين الحياة الفكرية والثقافية للأستاذ وبين مضامين المجلة التي تعتبر في الحقيقة منبرا لكل الأقلام، ولا تعكس بالضرورة سيرة شخص معين ولكنه يسعى إلى استخلاص الاهتمامات الأساسية المحورية للأستاذ والتي عكستها هذه المجلة على صفحاتها، كاختيارات ثقافية وفكرية تطبع مشروعا متكاملا عمل الفقيه خلال حياته على إسناده بشتى الوسائل، ومعلوم أن منهجية وتحليل المحتوى لعشرة أعداد من مجلة «السلام» الصادرة بين سنة 1933 ــ 1934، تشكل وسيلة علمية دقيقة في تحقيق مثل هذا المطلب. وقد قسمنا هذا المبحث إلى ثلاثة أقسام :

1 ــ مجلة السلام والمسألة الثقافية والتعليمية.

2 ــ مجلة السلام والصحافة الوطنية.

3 ــ استراتيجية الكتابة.

1) مجلة السلام والمسألة الثقافية والتعليمية :

يبدو من خلال الاستعداد الأولي لحياة الأستاذ داود، أن المسألة الثقافية لديه، تتداخل بشكل كثيف مع المسألة التعليمية، لتصبح هذه الأخيرة منطلقا للتحرير الاقتصادي والاجتماعي وهي قضية ترتبط بالتصورات الأولى للحركة الوطنية بمنطقة الشمال، والتي جعلت من الحقل التربوي والتعليمي أساسا لتحركاتها السياسية [1] وقد حملت مجلة «الإصلاح» منذ سنة 1917. والتي كان يشرف عليها. «المجمع العلمي المغربي» وتقريبا في جل أعدادها باكورة تفكير عميق حول الإصلاح في مجال التعليم، والذي يرتبط حسب الأستاذ داود بمقومات حضارية وثقافية، تجعل إمكانية الاستمرار في الوجود رهينة بقابلية تعطشنا لاكتساب هذا المجال الحيوي من حياتنا الإنسانية [2] وبناء على الاقتراح الذي تقدم به الحاج عبد السلام بنونة إلى الحكيم العام الإسباني، والذي تأسست بمقتضاه يوم 20 يوليوز 1930 لجنة لدراسة قضية التعليم بالمنطقة، حيث كانت تتألف من السادة : أحمد الرهوني ــ ومحمد داود

1 . محمد بن عزوز حكيم.. (1980) ص 14.

2 . عبد القادر الخراز.. (1917) ص 29.

والتهامي الوزاني ومحمد طنانة... وغيرهم [3] نفهم جيدا أن النخبة الحضرية كانت تسعى في الغالب إلى تأسيس مشروع مدرسي متلاحم يحافظ في حدود الإمكان على الاندماج الثقافي (المدارس العربية الاسبانية) دون أن يستلزم ذلك أي انقطاع بالنسبة للثقافة العربية الإسلامية. وقد استغلت الحركة الوطنية الفراغ السياسي والإداري المنتشر داخل مختلف الأطر العسكرية والسياسية والإسبانية، التي تعاقبت على قيادة المنطقة خلال الثلاثينات لتطرح المسألة التعليمية، كوسيلة لخلق الظروف السياسية والاقتصادية، لتطوير المسألة الثقافية كواجهة مستقلة، تتحدى المشروع الإدماجي للاستعمار في محاولتها تركيز القيم الثقافية. ذلك ما أدركه الاستعمار الإسباني في أواخر سنة 1938 عندما أصدر بيكبيدير الظهير الرسمي المؤرخ ب 29 يناير 1938 والذي يقضي بتبعية التعليم المغربي والإسرائيلي للإدارة الاستعمارية [4].

فليس غريبا أن نجد أيضا في العدد الأول من مجلة السلام (أكتوبر 1933) مقالا لمحمد داود تحت عنوان «مبدأنا وغايتنا» تأكيداً لهذا الجانب الحيوي (انظر مجلة السلام ــ الجزء الأول ــ السنة الأولى أكتوبر 1933) ومن خلال المطالب التي قدمتها النخبة الوطنية للحكومة الإسبانية ونشرتها مجلة السلام (الجزء الثاني ــ السنة الأولى 1933). نتوصل إلى استنتاج هام وهو أن الجزء الغالب من تلك المطالب خصص لمجال الثقافة والتعليم، ذلك ما لاحظناه من خلال المطلب الثالث والرابع، اللذين ارتبطا «بضمان حرية الصحافة والنشر والاجتماع لاعتبار هذه الحرية من مقدسات الإنسانية لا يمكنها السير بدونها، والاهتمام بالتعليم على اختلاف طبقاته، وجعل هذا التعليم على أساس اللغة العربية والإسبانية وإرسال البعثات إلى الخارج...» واعتبارا لكون فترة الثلاثينات كانت من أهم فترات التاريخ المغربي الحديث، حيث اشتد ــ تدريجيا ــ الحضور الفعلي للحركة الوطنية في المنطقتين (الجنوب والشمال)، وحيث اشتد كذلك الهجوم الاستعماري على المقومات الحضارية والثقافية والدينية للشخصية المغربية [5] دون أن ننسى أهمية الزيارة التاريخية للأمير شكيب أرسلان إلى منطقة تطوان، والتي أثرت بشكل أو بآخر على استراتيجية المواجهة بين الوطنيين والاسبان. اعتبارا لكل ذلك ركزت المجلة دعوتها في ثلاث نقط : والتي يمكن نعتها بالمسيرات الخفية أو بالأبعاد البنيوية والتي عينت مناطق المواجهة لدى الأستاذ داود :

1) تطهير الدين الإسلامي من البدع والخرافات دون التعرض للطرق والطرقيين.
2) نقد الموقف التجهيلي للسلطات الإسبانية والفرنسية على السواء.
3) الدعوة إلى استقلالية التعليم وتزكية المبادرات الحرة للوطنيين في هذا المجال.

ــ فإذا كان الدين الإسلامي بجانب العروبة والمغرب يشكل شعار المجلة، فقد نتج عن ذلك وجود 3 محاور عكست في نهاية الأمر مشروع محمد داود : الاسلام مع الاشارة إلى كون هذه المحاور مرتبطة بنزعات إصلاحية ترى أن التقدم الثقافي هو القادر على تجسيد وحدة الشعب الأمة القومية ــ التجديد الاقتصادي والاجتماعي. [6] وإذا كانت الدعوة إلى تحقيق الإسلام العقلاني المجرد عن

3 . Figueras Gercia (T).— Marruecos, la accion de Españа en el norte de Africa, 1950) Madrid. P. 97.

4 . الجريدة الرسمية لمنطقة الحماية الاسبانية.. يناير 1938 ص 52.

5 . الخراز عبد القادر.. (1987) ص 28.

6 . اشقرى عثمان.. (1985) ص 218 وهي استنتاج يحتاج إلى المزيد من التفصيل.

الخرافات والشعوذة، مرتبطة بالهجوم على الطرق والطرقيين مثل عبد الحي الكتاني والدرقاوي في بني زروال وعلي الوزاني وغيرهم، فقد كانت زيارة امير شكيب أرسلان كافية لوقف هذا الهجوم والتوجه إلى العدو الحقيقي المتمثل في الاستعمار [7] الاسباني والفرنسي.

ــ وقد استمرت المجلة في نقدها للموقف التجهيلي للسلطات الإسبانية والفرنسية على السواء، ومطالبتها بإصلاح تعليمي عاجل، يأخذ متطلبات ومستجدات المجتمعات المعاصرة بعين الاعتبار، وهو ما نجده واضحا في الجزء الثامن من السنة الأولى في مقال وقّعه أبو المعالي، تحت عنوان «شتان بين الأمس واليوم» حيث يقول : «لقد سدت دوننا الأبواب ومنعنا من مقومات الحياة وحيل بيننا وبين ما ننشده فإن المغرب على كبره وكثرة دخله وثروته الطبيعية لا نجد في منطقتيه الخليفية والسلطانية مدرسة تفي برغائب بنيه وتقضي حاجة البلاد وتعلم الناشئة بنصح وإخلاص وتكفي الفقير إذا لم يقدر على الرحلة إلى بلاد الغير...» ص 18.

ولسنا في حاجة إلى التأكيد على كون المسألة التعليمية كانت سبيلا نحو تعميم الثقافة وتوحيدها وبالتالي تركيز صلاحية واستمرارية الانتساب الثقافي والحضاري. وبذلك شكلت هذه المسألة تحديا للمشروع التعليمي الذي حملته اسبانيا منذ سنة 1913، والذي لم يكن مخالفا في شيء لما قامت به في أمريكا اللاتينية، وهو ما نفهمه من خلال التقدير الذي أصدرته المجلة الاستعمارية الاسبانية Africa سنة 1927 : «إن إسبانيا التي انشأت أول مطبعة بأمريكا، وفتحت أول مدرسة للهنود، قد أرسلت أيضا ــ مبشريها إلى إفريقيا، وفتحت المدارس العربية الإسبانية Hispano - Arabe..» [8] والتي كان الهدف منها واضحا، التسلل إلى قلب الحضارة عن طريق معرفة اللغة والعبادات. ولتوضيح أهمية الحقل التعليمي بالنسبة لمحمد داود وللحركة الوطنية بمنطقة الشمال ككل، لا بد من ذكر ــ ولو بإنجاز ــ المراحل التي قطعها المشروع التعليمي الإسباني ونجملها في ثلاث مراحل أساسية.

1) **المرحلة الأولى** ابتدأت من 1913 ــ 1924 ــ حيث أنشأت السلطات الإسبانية «لجنة التعليم المغربي» La Junta de Enseńanza de Marruecos، كان الهدف منها خلق مدرسة وطنية لأبناء الإسبانيين مع تجديد المدرسة المغربية الإسلامية والمدرسة الاسرائيلية [9]. في هذه الفترة التاريخية لم تكن مدينة تطوان تتوفر إلا على مدرستين : مدرسة الاسرائيلي لليهود التي أنشئت سنة 1862، وكان التعليم فيها بالفرنسية، ومدرسة اسبانية تابعة لقنصلية إسبانيا انشئت سنة 1908 لأبناء الاسبانيين وكان موقعها بزنقة الزاوية القادرية [10].

2) **المرحلة الثانية** وتقع ما بين 1924 ــ 1936 وهي مرحلة إنشاء المراكز التعليمية ذات الوظائف المزدوجة : توسيع الهوة الاجتماعية، تركيز مقولات التفوق الإسباني. ففي المنشور المنظم لوضعية التعليم، بالجريدة الرسمية للسلطة الاستعمارية الصادر 14 نوفبر 1930 نقرأ ما يلي : «تخضع أهمية إنشاء المراكز التعليمية إلى ضرورتين : المدرسة العمومية أو المدرسة الشعبية بفرعيها

7 . عبد الله كنون.. (1984) ص 144.

8 . Africa.. (1927) P. 16

9 . Figueras Garcia Tomas.. (19) P. 111

10. عزيمان محمد.. (19) ص 32.

(الحضري والقروي) ثم مدرسة أبناء الأعيان بالنسبة للأقسام المتوسطة والعالية [11].

وهي نفس السياسة التي اتبعتها السلطات الفرنسية في المنطقة الجنوبية [12] أما من جهة أخرى فقد كان الإحساس بخيبة الإتجاه العسكري القائم على الغزو الحربي، كفيلا بدفع الأنظار إلى مسألة السيطرة الروحية، تتحول خلالها المؤسسات التعليمية إلى مجالات للاستقطاب السياسي والثقافي والعلمي، ذلك ما نجده في انطباعات أحد المحللين الإسبان سنة **1924** : «إن مدرسة الفنون الجميلة، ومختلف المؤسسات التعليمية الأخرى، يمكن أن تكون قاعدة لإشعاع روح التفوق الإسباني [...] وبالتالي مركزا للانجذاب السياسي...» [13].

3) **أما المرحلة الثالثة** فتبدأ من **1936 — 1950** نسجل خلالها إنشاء المجلس الأعلى للتعليم الإسلامي» ومدرسة البنات المسلمات ثم بعد ذلك وبمقتضى ظهير **31** دجنبر **1940** «الادارة الرسمية للتعليم المتوسط» وهي مرحلة كان الهدف من ورائها البحث عن «خصوصية الإفريقي» [14] من جهة، ثم العمل على إشراكه في المشروع الاستعماري، حتى لا يبقى غريبا عنه، وعن دائرة فهمه من جهة أخرى. ومرة أخرى يشبه هذا الطموح إلى حد كبير السياسة التعليمية التي مارسها ليوطي في المنطقة الجنوبية، والتي كان يسعى من خلالها إلى إشراك النخبة المغربية في التسيير الإداري، ولكن عبر تحديد تطورها واختياراتها بشكل عام [15]. غير أن النخبة الحضرية الوطنية لن تعمل في هذا الاتجاه بل ناضلت من أجل استقلاليتها، وقد فطنت منذ البداية إلى أهمية استقلال التعليم كمجال لتحقيق التحرير السياسي والاقتصادي، خصوصا وأن الاستعمار الإسباني لم يكن متحمسا كثيرا لإصلاحات جذرية في ميدان التعليم، و «المجمع العلمي المغربي» الذي أسس سنة **1916** والذي ضم عن المسلمين الحاج أحمد الطريس، والفقيه الرهوني، والحاج أحمد راغون، كانت فعاليته قصيرة، بعد إصداره. كما أشرنا لجريدة الإصلاح التي سرعان ما أصبحت جريدة حكومية.

— وننتقل إلى النقطة الثالثة والمتمثلة في الدعوة إلى استقلالية التعليم وتزكية المبادرات الحرة للوطنيين في هذا المجال.

وهكذا نقرأ في مجلة «السلام» محاولة لبث روح المبادرة الفردية لتحقيق هذه الاستقلالية : «ولو كان فينا سخاء وكرم نفس ووجدنا راحة من الدسائس الهدامة لفتحنا لشعبنا مدارس وخففنا على الحكومة من هذه النقطة الطفيفة التي تَضِنُّ بها كما فعل السوريون وبنو الكنانة، والحر منا ينظر لمصلحته الذاتية دون مصلحة الهيئة الوطنية فيرسل ولده إلى الخارج، قاطعا نظره عن غيره وعن خدمة بلاده، بتأسيس مؤسسة علمية...» الجزء الثامن السنة الأولى **1933 —** ص **19**.

11. Figueras Garcia (T).. (ibid) P. 113
12. Adam Andre..(19) P. 456. 457.
13. Alberto Cambra.. (1924) P. 87.
14. Blanco imilio Iraga.. (1950) P. 70
15. Spillman (6).. (1967) P. 32

وضمن هذه المبادرات الحرة يمكن التمييز بين مرحلتين، كان الأستاذ الفقيه حاضرا في كليهما :

أ) **مرحلة التأسيس الفردي المحدود** : والذي تجلى في فتح الدروس الدينية والفقهية الجديدة ببعض الزاوايا (كالزاوية الفاسية حيث كان الأستاذ يلقي بعضا من دروسه أو المساجد كالجامع الكبير تكلف بإعطائها أشخاص لهم غيرة كبرى ويشعرون بما تعيش فيه البلاد من فراغ في ميدان التعليم. ثم إنشاء بعض المدارس الصغرى والتي غالبا ما تكون إما دكاكين أو بيوتا. نعثر على أول مدرسة من هذا النوع سنة 1922 أنشأها السيد محمد السلاوي كما يذكر الأستاذ محمد عزيمان [16] ولم يكن عمر هذه المدرسة طويلاً ، إلا أن الحاج محمد زيوزيو سيتفق مع المرحوم محمد داود على تعليم ولده عبد السلام في مكتب بدار سكناه، وقد انتقل جل تلاميذ المدرسة الأولى إلى دار زيوزيو، لتستمر هذه المحاولة في غرس حب العلم والمعرفة في استقلالية تامة عن التوجهات الاستعمارية آنذاك.

ب) **مرحلة التأسيس الجماعي المنتشر** : وهو المتجلي في خلق مؤسسة تعليمية يشرف عليها مغاربة وطنيون ففي أواخر سنة 1924، ظهرت فكرة إنشاء المدرسة الأهلية وهي فكرة دعا إليها الحاج عبد السلام بنونة وسانده في تنفيذها مصطفى أفيلال...» [17] حيث انتخب المرحوم محمد داود أستاذا ومديرا لشؤون التعليم بها، وقد عرفت هذه المدرسة إقبالا كبيرا جدا نظرا لكونها تعتبر أول مدرسة حديثة في ذلك الوقت، وأدخل الأستاذ إضافة إلى المواد التقليدية، مواد حديثة كالأدب والتاريخ والجغرافية والحساب ويمكننا القيام بمقارنة بين حدود هذا التاريخ الذي بدأت فيه المدرسة الأهلية بإمكانيات بسيطة، وبين سنة 1940 التي أصبحت فيها المدرسة تتوفر حسب تقرير صحيفة «الحرية» الصادرة بتطوان منذ سنة 1936 على «250 تلميذا و14 أستاذا وأستاذة للإسبانية والرسم وذخرها المالي يصل إلى 15.000 بسيطة...» [18] غير أن النضال الثقافي لدى الأستاذ محمد داود لم يقتصر على الجانب التعليمي فقط والذي عبر عنه سواء في صفحات مجلة «السلام» أو بمساهمته القيمة في المؤسسات التعليمية الوطنية بل هناك ميدان آخر اضطلع به الأستاذ داود كغيره من الوطنيين، وهو جانب الصحافة الوطنية.

2) مجلة «السلام» والصحافة الوطنية :

إذا كان وفد مطالب الأمة التي ينتمي الأستاذ داود إلى لجنتها الفرعية، قد أقر ضرورة الصحافة والنشر والاجتماع [19] وإذا كان هذا المطلب يشكل الاهتمام المشترك للنخبة الوطنية بمنطقة

---

16. محمد عزيمان.. مرجع سابق ص 39.
17. محمد عزيمان.. مرجع سابق ص 40.
وإذا كانت جل الدراسات في هذا الشأن ترى في المدارس الحرة مجالا مؤسسيا لانبثاق الوطنية، نظرا لكون الفقيه نفسه كان يلقن تلاميذته الأناشيد الحماسية والتي قيلت في بن عبد الكريم، فإن الهدف الثاني الذي يكمن وراء تأسيسها هو بالضبط محاربة التخلف الثقافي وتحقيق الاستقلالية في مجال التعليم.
18. عبد الخالق الطريس.. الحرية ع. 238 — 13 مارس 1940.
19. التهامي الوزاني.. 1980 — ص 124.

الشمال [20] فإن الأستاذ داود كان يتميز باهتمامه المبكر بهذا المجال. فقد خصصت له مجلة الإصلاح كما أشرنا التي صدرت بتاريخ 29 يناير 1917 حيزا واسعا لنشر أفكاره الإصلاحية مع باقي زملائه الوطنيين، كان أغلبها يهتم بالمسألة التعليمية أو ما يعرف في مجال علم الاجتماع الحديث «بالتخلف الثقافي» نذكر منها على الأخص مقال «هل يريد قومي الحياة» يعالج من خلاله موضوع المعرفة المتخلفة، أمام الأجنبي والاسرائيلي، ثم مقاله حول «التعليم الابتدائي» الاصلاح — العدد 203 — بتاريخ 4 — 12 — 1926 ثم مقال «العلم وإلا الموت، الاصلاح. ع. 206 — 27 — 12 — 1926 — ثم مقال «نحن والعلم الإسلامي» ع. 209. 17 — 1 — 1927. بل وقبل هذا التاريخ عمل الأستاذ محمد داود خلال حرب الريف شبه مراسل لصحيفة الأهرام المصرية، حيث كان يزودها وبصفة منتظمة. بكل المعلومات عن هذه الحرب [21].

وقد زاد جو الثلاثينات المتميزة على الأخص «بظهور الفكرة الوطنية كحركة سياسية، وبفعل الأساليب الحضارية العصرية التي أدخلتها الحماية من طرق معبدة وأنوار كهربائية ومواصلات كانت تحمل إلى المغرب صحف الشرق والغرب [22] في تعطش الناس لصحافة وطنية، وهكذا ظهرت مجلة «مغرب» التي كانت تصدر في باريس باللغة الفرنسية، ثم نشأت بفاس جريدة «عمل الشعب» والتي كان يصدرها الحسن الوزاني يوم 4 — 8 — 1933.

وفي نفس السنة أسس الأستاذ داود مجلة «السلام» بتطوان يوم فاتح أكتوبر 1933 وكانت هي المجلة العربية الوطنية الأولى التي صدرت بالمغرب في عهد الحماية [23] وعلى صفحاتها واصل الأستاذ نضاله من أجل تأسيس صحافة و طنية في جميع ربوع المغرب.

وهكذا وفي فاتح مارس من سنة 1934 وجه الأستاذ محمد داود على صفحات مجلته «السلام» خطابا مفتوحاً إلى جلالة الملك يلتمس فيه اصدار ظهير يقضي بحرية الصحافة والنشر في المنطقة السلطانية على غرار ما كانت تتوفر عليه المنطقة الخليفية في هذا الصدد : ونقتطف بعضا من هذا الخطاب : «أمتكم يامولاي تشكو من عدم وجود صحافة عربية حرة وطنية تعبر عن آرائها وتنطق بلسانها [...] فمن المخجل أن تكون المنطقة السلطانية وسكانها يعدون بالملايين، ليست فيها جريدة عربية حرة يدير شؤونها مغربي حر من رعاياكم المخلصين...» مجلة السلام — الجزء السادس — السنة الأولى مارس 1934 — ومن نفس المنبر سوف تدافع المجلة عن زميلتها مجلة «مغرب» في مقال بعنوان : «مجلة مغرب» أو حقيقة الوطنية المغربية بعد قرارا السلطات الفرنسية بمنعها للدخول إلى المغرب [24] (مجلة السلام — الجزء الثاني — السنة الأولى نوفمبر 1933) ولذلك كان رد فعل الاستعمار الفرنسي عنيفا، حيث أصدرت الإقامة العامة بالرباط أمرا يقضي بمنع الجرائد الوطنية من الدخول إلى منطقة نفوذها، وعلى رأسها جريدة «الحياة» ومجلة «السلام» [25].

---

20. عزوز حكيم.. و. ج. و. ج I. 1980 — ص.

21. BENJELLOUN (Abd).. (1988) P. 95

22. التهامي الوزاني.. مصدر سابق — ص 119.
23. التهامي الوزاني.. نفس المصدر — تعليق عزوز حكيم — ص 131.
24. علال الفاسي.. الحركات الاستقلالية في المغرب العربي —.طنجة — 154.
25. حميد بن عزوز حكيم .. (1980) ص 30.

إن اختيار الأستاذ داود لمجالين حيوين من مجالات تطور وتنمية المجتمعات يخضع في الحقيقة إلى استراتيجية وطنية أصيلة، تنبع من التفاعلات الدولية من جهة أو من الخصوصيات الاجتماعية والإقليمية من جهة أخرى. ذلك أن إدراك حقيقة التخلف الثقافي بالمجتمع المغربي هو إدراك في نفس الوقت لفراغ المضامين التعليمية التقليدية، ومحاولة لتجاوزها وبالتالي البحث عن المنافذ الحقيقية لتأسيس سلطة العلم بمعناه الحديث، ذلك ما ترجمه محرر أحاديث مجلة «السلام» حول عوامل نهوض الأمة الإسلامية : «فلا أمل للناس في النهوض من كبواتهم السابقة إلا بالانكباب على العلوم الحديثة، وأخصها العلوم الميكانيكية والكيماوية والكهرابائية فإنها في الحاضر صارت أساس القوة» (محمد علي علوية، مجلة السلام ــ ج 10 ــ السنةالأولى نوفمبر 1934)، لذلك التقت دعوة «التأصيل» بروح السعي نحو الحداثة. وهو ما نجده أيضا في مقال لسعيد حجي على صفحات المجلة حول النهضة الأدبية العربية والتي يجملها في أربعة عوامل : أدب عربي قديم. فكر أو ربي حديث، ومحافظة على كياننا ورغبتنا في تجديد حيويتنا المادية والمعنوية. «مجلة السلام» الجزء الثاني السنة الأولى نوفمبر 1933 ص 41 ــ أما الميدان الصحفي فقد كانت المراهنة عليه مزدوجة : فمن جهة اعتباره عاملا من عوامل الاندماج داخل المجتمع المحلي، وبالتالي يتحقق كقناة للتفاهم والتواصل بين الأفراد، وقد عبر المرحوم التهامي الوزاني عن ذلك بقوله : «فأخذنا نجمع هذه الأمة ونبحث عن أبنائها فوجدنا رجالا لايفهموننا ولا نفهمهم ولا تربطنا بهم لغة مشتركة للتفاهم فبحثنا عن المفتاح لفك الرموز فوجدناه في المدافعة عنهم واعلان التكبير على ظالميهم وبذلك أصبحت لغة التخاطب معروفة بيننا وزالت الأقفال عن هذه الهيروغليفت بحجر رشيد الصحافة الحرة...» (التهامي الوزاني .. وصول طور الثقافة ــ جريدة الريف ــ ع 208. فبراير 1940.

ومن جهة ثانية فقد اعتبرت الصحافة كبعد من أبعاد الوطنية ــ بمعناها المطلق ــ لأنها استطاعت التعبير عن الشعور الوطني الكامن في اعماق قصب الجبلي والريفي والسوسي ورجل الصحراء وساكن البلادة عن طريق القلم. وقد عكست مجلة «السلام» هذا العمق العاطفي والوجداني للوطنية، القائم على التفاني والتضحية والأخلاق، في مقال لعبد الهادي الشرايبي تحت عنوان «جاذبية الوطن» (مجلة السلام الجزء السادس السنة الأولى 1933 ص 49 ــ 50).

ــ هل استطاع الأستاذ محمد داود التوفيق بين المعركة السياسية التي كانت تقوم لديه على أساس الركيزتين المشار إليهما سابقا (الإصلاح الاجتماعي والتعليمي والنضال الوطني) وبين المعركة الثقافية التي تقتضي العمل عل إيجاد صيغة متكاملة لتفكير علمي أصيل وحديث.

أعتقد أننا عثرنا **على شبه استراتيجية عكستها مجلة** «السلام» والتي يمكن حصرها في نقطتين :

1) الابتعاد عن التطرف
2) تأسيس الثقافة الحضرية أو المدينية.

1) بالنسبة للنقطة الأولى تمثلت في الابتعاد عن المجالات السياسية المباشرة وعن النقد السياسي بكل أنواعه وأشكاله وهو ما عبر عنه الأستاذ داود بهذا القول : «إن مجلة السلام تنبه السادة الكتاب إلى أنها تقبل المناظرة والنقد في حدود الأدب والقانون، والحق غني بنفسه، والنصر النهائي له دائما، ونرجو أن لا يتعب ذووا الأغراض أنفسهم بإرسال ما يعارض مبادىء ديننا الحنيف أو يكون فيه ترلف الأشخاص أو

وقوع في الأغراض أو مصادمة للقوانين العامة أو الخاصة، فإن تلك بضاعة لانقبلها...» مجلة السلام — الجزء الرابع — السنة الأولى 1933.

وهو ما سيؤكده الأستاذ المرحوم عبد الخالق الطريس على صفحات نفس المجلة : «إن مجلة السلام لسان مفكري المغرب، ولا أرضى أن تخرج مطلقا عن الموقف الذي يناسب سمو التفكير المهذب في اختيار الموضوع ودقة البحث وابتكار المنحى، كما لا أرضى مطلقا نزولها إلى سفسفة المناوشات وسخافة التضارب السياسي السافل. فهي منبر للباحثين في مختلف نواحي البحث العلمي [...] واعتبارا لهذا الاتجاه الذي يجب أن تتجه مجلتنا الغراء، أرى أن ما يخصص منها للمباحث السياسية ينبغي أن تراعي فيه الروح العلمية مراعاة تترك المجلة بمعزل عن هراء القول وهذر المعارضة ...» (مجلة السلام — الجزء الثاني السنة الأولى 1933 — ص 17) بدون شك كان هذا التوجه يخضع إلى ظروف سياسية، ونشير هنا على وجه الافتراض إلى الاتفاقية المبرمة بين المقيم العام لوبيس فيرير — المعروف بعدائه الشديد للوطنيين — ولجنة من وفد مطالب الأمة — والتي كان الأستاذ داود أحد محرريها، يوم 5 ماي 1932 على إثر المفاوضات التي جرت بالإقامة العامة الإسبانية بتطوان من يوم 25 أبريل إلى يوم 5 ماي من نفس السنة» [26] لكنه أيضا محكوم برغبة أكيدة من تأسيس فكر علمي، يبتعد عن السياسة حتى يضمن لنفسه البقاء.

2) أما النقطة الثانية فهي تندرج ضمن المنظور التالي : لقد سعت المجلة إلى تأسيس ثقافة مركزية، تتميز باستمرارية تاريخية، تمثلها وجوه رمزية اضطلعت بمهام سياسية أو إدارية أو ثقافية مهمة أو انتمت في غالبيتها إلى الأصول الأندلسية فليس غريبا أن تزخر المجلة بصور هؤلاء سواء كانوا في المشرق أو المغرب : كالحاج محمد المقري وبن غبريط الجزائري الذي ترجم مشروع الحماية، والوجيه سيدي عبد السلام بن عبود الذي كان على رأس أول مجلس إداري للشركة الاقتصادية الوطنية الكبرى، أو محمد مدينة أحد أعيان تطوان وأكابر وجهائها، لأنه من خلال هذا التأكيد، كانت المجلة تبحث عن الشرعية التاريخية للوطنية والتي لا ترجع فقط إلى بداية القرن، ولكن إلى ما قبل ذلك بكثير، كما استنتج الأستاذ عبد المجيد بن جلون : «مجلة السلام الجزء السادس، مارس 1934».

وفي هذه الخطاطة تم إقتصاء وجوه ثقافية طرقية، كانت في أغلبها تنتمي إلى أصول قروية جبلية أو ريفية [27] إلا أن هذا الاعتزاز الإقليمي أو الاثني والذي كان سائدا لدى الفئة الوطنية الحضرية ذات الأصول الأندلسية الذي كان يجعل من قضية امتلاك التاريخ من جديد مكونا جوهريا في ثقافتها السياسية، وبعداً أساسيا من أبعادها الوطنية، والذي جعلها دون غيرها من الفئات الاجتماعية الأخرى قادرة على التأثير في مجرى الأحداث وتوجيهها حسب طموحها الاجتماعي والسياسي على السواء [28].

لقد كان هذا الإحساس كفيلا بدفع الأستاذ محمد داود لتبني مشروعه التاريخي الكبير لمدينة تطوان، والذي لا يمكن الفصل فيه حسب تقديرنا — بين تاريخ الفرد كانتماء أندلسي — وتاريخ المدينة

26. التهامي الوزاني.. مرجع سابق — ص 113.
27. يمكن الرجوع إلى المريني العياشي في مؤلفاته الثلاثة.

28. Benjelloun (Abd).. (1988)

كناتج عن القدرات الفعلية لهذا الفرد وذلك ما يوضحه استاذنا في مقدمة كتابه : «إن تطوان مدينة لن تتدرج كغيرها من المدن الناشئة من مدشر إلى قرية، ومن قرية إلى مدينة وإنما هي مدينة ولدت كاملة، فمن أول يوم جدد فيه بناؤها الأخير كانت مركزا للحضارة الأندلسية ومهدا للرقي المهذب، لأن المؤسسين أو بالمعنى الصحيح المجددين **كانو من أرقى البشر الموجودين في ذلك العصر...**» [29].

ومن هذا المنطلق ــ الذي يمكن إدراكه سهلا في ذلك الوقت ــ يساهم الأستاذ داود في بناء مشروع اجتماعي ضخم يقوم أساسا على إدراك الخصوصيات الفعلية لطموح وتطلعات المواطن المغربي والمتجلية في : التعليم ــ حرية التعبير ــ الاعتزاز بالانتماء الإقليمي داخل الارتباطات القومية والوطنية. وتلك ــ لعمري ــ عناصر تميز أكثر الحركات الوطنية والقومية تقدما في العالم [30].

29. محمد داود.. تاريخ تطوان، المجلد الأول، المقدمة ص 14.

30. Kozlov (6).. 197.

الفهـــــرس

مطبعة المعارف الجديدة
زنقة الرخاء ـــ الحي الصناعي
الهاتف : 7947 08/09/15
الرباط

22 درهما